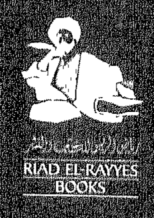
سيرة السيد محسن الأمين

وهي جزء من كتاب أعيان الشيعة



تحقيق وشرح
هيثم الأمين
وصابرينا ميرفان



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS







سيرة السيد محسن الأمين

وهي جزء من كتاب أعيان الشيعة



سيرة السيد محسن الأمين

وهي جزء من كتاب أعيان الشيعة

تحقيق وشرح

هيثم الأمين وصابرينا ميرفان



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

BIOGRAPHY OF AL-SAYYED MOHSEN AL-AMIN

BY:

AL-SAYYED MOHSEN AL-AMIN

First Published in Febraury 2000

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 185513 490 X

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: شباط/فبراير ٢٠٠٠

المحتويات



شكر

نتوجه بالشكر إلى السيّد جودت فخر الدين لمراجعته ملازم هذا الكتاب، وإلى العلّامة السيّد محمّد علي الأمين للجلسات الطويلة التي خصصها لنا في شرح ما خفي من مصطلح هذا الكتاب، وإلى السيّد حسن الأمين لاتساع صدره، طوال مدّة تحضيرنا لهذا الكتاب، لأسئلتنا الحصيفة والسخيفة حول كلّ شاردة وواردة في هذا الكتاب.

صابرينا ميرڤان، هيثم الأمين



تنبيه

هذا الكتاب هو الجزء الأربعون من كتاب أعيان الشيعة، وقد نشره السيد حسن الأمين في كتاب على حِدَة بعنوان: السيّد محسن الأمين، سيرته بقلمه وأقلام آخرين، مضيفاً إليه بعضاً من رسالة التنزيه، ومختارات من ديوانه الرحيق المختوم، وما قيل في السيّد بعد وفاته من خطب وقصائد، وما كُتِب فيه من مقالات. وقد اكتفينا في هذه الطبعة بنصّ السيرة بقلم السيّد محسن.

وكان من المقرّر نشر هذا النص في مقابل ترجمته التي قمنا بها، أنا والسيدة صابرينا ميرفان إلى الفرنسية، إلاّ أن المسؤولين في المعهد الفرنسي بدمشق قرروا نشر النص المترجم وحده. فبادرت دار رياض الريّس إلى نشره.

وقد توخّينا في تحقيق الكتاب، الحفاظ على النصّ كما ورد في الأصل، إلاّ ما كان فيه سهو أو تصحيف. وأشرنا إلى المواضع المصححة بهامش يذكر صيغة النص كما وردت في الطبعة الأولى. وحافظنا على رسم الألفاظ، ولا سيما أسماء العلم، كما ورد حتّى وإن كانت اللفظة الواحدة برسمين مختلفين: كـ «الزقرت» و«الزكرت» أو «بنت جبيل» و«بنتجبيل» .

وقمنا بتحقيق أسماء الرجال كاملة في هوامش وذكرنا فيها تاريخ الولادة، إن تيسر، وتاريخ الوفاة، وأحلنا فيها إلى مرجع يبحث في الرجل.

وقسمنا الكتاب إلى أربعة فصول لم تكن في الأصل.

أما علامات الوقف، فقد اتبعنا فيها المعنى، فقسمنا النص إلى جُمَل وفقرات بخلاف ما كان عليه أولاً، واتبعنا في الحوار المباشر مبدأ النقطتين بعد فعل القول، إشارة إلى بداية جملة الحوار، والنقطة أو علامة الاستفهام أو التعجب في آخرها إشارة إلى انتهائها.

وعمدنا إلى شرح المفاهيم والمصطلحات الواردة في الكتاب، وهي كثيرة، كذلك إلى شرح المفردات التي قد لا يجدها القارىء في المعجم مثل «كجاوة» وإلى شرح بعض الأبيات من اللهجات العامية.

هيثم الأمين

الصوّانة في ٢ أيلول ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنتجبين ورضي اللّه عن التابعين لهم بإحسان وتابعي التابعين وعن العلماء والصلحاء والزهّاد والعبّاد إلى يوم الدين وسلّم تسليماً.

وبعد، فيقول العبد الفقير إلى عفو ربّه محسن بن المرحوم السيّد عبد الكريم الأمين الحسينيّ العامليّ الشقرائيّ نزيل دمشق عفا اللّه عن جرائمه: هذا هو الجزء الأربعون من كتابنا أعيان الشيعة وفّق اللّه تعالى لإكماله وهو خاصّ بترجمة المؤلف وحده وضعناه اتّباعاً لما صنعه المؤلّفون في الرجال كالعلاّمة في **الخلاصة**[1] وغيره، من ترجمة أنفسهم في كتبهم. وذكرنا أكثر ما اتفق لنا في هذه الحياة الدنيا، وإن كان بعضه ليس بذي بال، عسى أن يكون فيه تذكرة وعبرة لمن تذكّر واعتبر، وإمتاع لمن قرأ ونظر، وأن لا يكون خالياً من بعض الفائدة فإن لم يجد القارىء في بعضه شيئاً من ذلك فالكريم من عفا وعذر.

---

(١) خلاصة الأقوال، للعلامة الحلّيّ (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م).

وحشرنا نفسنا بين أهل العلم عسى أن تنالنا بركاتهم وأن يكتبنا اللّه مع صالحيهم، وقدّمناه للطبع قبل الوصول إلى محلّه من الكتّاب خوفاً من مفاجأة الأجل[٢] نسأل اللّه تعالى مِنْ مَنّه وكرمه أن يؤخّر أجلنا إلى إتمام هذا الكتاب وليس ذلك على فضله وكرمه بعسير. كما نسأله العصمة والتوفيق إنه سميع مجيب وعليه نتوكل وبه نستعين.

(٢) توفّي قبل طبع هذا الكتاب.





الفصل الأول

في شقراء

نسب المؤلف

هو أبو محمّد الباقر محسن ابن الصالح الزاهد التقيّ النقيّ الورع السيّد عبد الكريم ابن العلاّمة الفقيه الرئيس الجليل السيّد عليّ ابن الرئيس السيّد محمّد الأمين ابن العالم العلاّمة الفقيه الرئيس الجليل السيّد أبي الحسن موسى ابن العالم الفاضل الرئيس السيّد حيدر ابن العالم الفاضل السيّد أحمد ابن الفاضل السيّد إبراهيم المنتهي نسبه إلى الحسين ذي الدمعة ابن زيد الشهيد ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين الشهيد ابن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام، العلويّ الفاطميّ الهاشميّ الحِلّيّ العاملي الشقرائيّ مؤلّف هذا الكتاب غفر اللّه ذنوبه وستر عيوبه.

ووجدنا نسباً لجدّنا السيّد أبي الحسن موسى مع بعض الفلسطينيين بخطٍّ غاية في الجودة وعليه خطوط العلماء من الفريقين[1] وشهاداتهم، وفيه ذكر أبناء السيّد أبي الحسن المذكور وغيرهم من

---

(١) أي السنّة والشيعة.

متفرّعات العشيرة وقد ادّعاه هذا الفلسطيني وادّعى أنه من ذُرِّيَّة صاحب النسب. ولا ندري كيف وصل إليه ولعلّه مِمّا نُهِبَ في حادثة الجزّار[٢] من ذخائر جبل عامل ومنها الكتب التي أوقدتْ في أفران عكّا برهة من الزمن، واختار علماء عكّا منها جملة من نفائس مخطوطاتها فأخذوها وكان هذا النسب منها والله أعلم. ونحن ننقله هنا وهذه صورته:

السيّد موسى المعروف بأبي الحسن الحسينيّ ابن حيدر بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن قاسم بن عليّ بن علاء الدين بن عليّ الأعرج ابن إبراهيم بن محمّد بن علي بن مُظَفَّر بن محمّد بن عليّ بن حمزة بن الحسين بن محمّد بن عُبَيْد الله بن عليّ بن عيسى، ووصفه بالحسنيّ من قبل أمّه فإنها حسنيّة، ففي النسب المذكور أن السيّد أبا الحسن موسى أمّه فاطمة بنت خليل بن محمّد بن الحسن ابن أحمد بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن جعفر بن يوسف بن محمّد بن الحسن بن عيسى بن فاضل بن يحيى بن جوبان بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عبد الله بن محمّد بن يحيى بن داود بن إدريس بن داود بن أحمد بن عبد الله بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب.

وعلى النسب شهادة جماعة من المفتين ونقباء الأشراف والقضاة والخطباء وغيرهم من أهل السُّنّة، فعليه شهادة إسماعيل بن أحمد العانيّ المفتي بدمشق، وشهادة محمّد أسعد الصدّيقي، وشهادة

(٢) أحمد باشا الجزّار، الوالي العثماني منذ سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م. اتخذ عكّا مقراً له وفرض فيها سلطته. هاجم جبل عامل فتصدّى له العامليون بقيادة ناصيف الذي قُتل في معركة يارون سنة ١١٩٥هـ/ ١٧٨١م. فانهزم العامليون وعاث جنود الجزّار نهباً في البلاد. وظلّت هذه الحادثة محفورة في ذاكرة سكان هذه المنطقة.

عبد الرحمن البِزري المفتي بصيدا، وشهادة أحمد خطيب الجمعة بأسكلة صور، وشهادة السيّد حمزة العجلاني النقيب بدمشق، وشهادة أحمد الحسيني اليافي وفيها أبيات منها:

كموسى شريفُ الذات والوصف إذْ غدا
لـه نـسـبٌ قـد زاد فـخـراً ومُـفـتـلـى
أبـو حـسـنٍ يُـعـزى لحيـدرَ أصـلُـه
فـلا زال مَـحْـمِـيّـاً بـه ومُـكَـمّـلا

وشهادة محمّد النائب[٣] بمدينة صور، وشهادة السيد حسين قائمقام نقيب الأشراف بمدينة صفد، شهادة إبراهيم المُوَلّى خِلافةً[٤] في دمشق، والسيّد محمد العلمي نقيب الأشراف في مدينة صيدا. وعليه شهادة جماعة من علماء الشيعة في ذلك العصر؛ فعليه شهادة بخطّ الشيخ سليمان معتوق[٥] وعليه بخطّ الشيخ إبراهيم بن يحيى العامليّ[٦] ما صورته: ليس يخفى على أحد من العقلاء أمر «شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء»[٧]

---

(٣) أي القاضي.

(٤) المُولّى خلافة، أي قائمقام القاضي.

(٥) سليمان معتوق، دَرّس في جبل عامل ثم في العراق، وبقي فيه ثلاثين سنة حتى وفاته سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م. أنظر: الأعيان، م ٧، ص ٣١٥.

(٦) إبراهيم بن يحيى العاملي (١١٥٤هـ/ ١٧٤١م ١٢١٤هـ/١٨٠٠م). من كبار شعراء جبل عامل، هاجر بعد حرب الجزّار إلى بعلبك ثم إلى دمشق حيث توفّي ودفن. أنظر: الأعيان، م ٢، ص ٢٣٧ - ٢٤٨.

(٧) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٢٤. وتفسير هذه الآية عند بعض المفسّرين أن الشجرة محمد وجذعها علي ومادتها فاطمة وثمارها أبناء فاطمة وأوراقها الشيعة. أنظر: الطبرسي، مجمع البيان في علوم القرآن، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٣٦، م ٣، ص ٣١٢. ولا يرى المفسّرون السُنّة أن تكون هذه الشجرة كناية عن آل النبي. أنظر: الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧، م ٧، ص ١٢٨ - ١٣٨.

فكيف يحتاج هذا الأمر إلى شهادة الشاهدين وقد صرّح بصحّته بقيّة العارفين في الأمة المحمّدية وطراز العصابة العلويّة الغنيّ بذاته عن زكيّ أسمائه وصفاته، سنام مجد العلماء وواسطة عقد الفضلاء طاهر السرّ والعلن سيّدنا وشيخنا أبو الحسن لا زال بدر سعده في بروج الكمال وشمس مجده في أمن من الزوال، وقد خدمتُ جِيد هذا النسب العالي بعقد من النظام الغالي كما هو شأن العبيد والموالي فقلت:

لقد عظمتْ أنساب آل محمّدٍ
فليس لهم في العالمين مُناسبُ
ومَنْ مثلهمْ والشمس بعض جدودهمْ
وبدر الدجى والنيّرات الثواقبُ
إذا ما رياض الحَزْن طابتْ فروعُها
فلا يُمترى أنَّ الأصولَ أطايبُ
إذا ما انتمى منهمْ حسيبٌ تَهَلّلَتْ
له الأرضُ وانثالتْ عليه المناقبُ
بَني كلِّ فيّاضِ اليَدَيْنِ تراثه
إذا ما قضى طِرْفٌ ورُمْحٌ وقاضِبُ
غطارفةٌ شمُّ الأُنوف نصيبهمْ
من المجد مقسومٌ سنامٌ وغاربُ

المولد

ولدتُ في قرية شقراء من بلاد جبل عامل سنة ١٢٨٤، هذا هو الصواب في تاريخ مولدي وما ذكرتُه في غير هذا الموضع من أنّ ولادتي سنة ١٢٨٢ أو غير ذلك فهو خطأ. ولم يكن مولدي مؤرَّخاً لكن والدي أخبرني أن ولادتي كانت سنة بناء جسر

القاقعية[8] الجديد، وقد قرأت تاريخ بنائه على الصخرة التي كانت موضوعة عليه وسقطت فإذا هو سنة ١٢٨٤، وأُخْبِرْتُ أيضاً أن ولادتي سنة ولادة السيد يوسف ابن السيد حسن بن إبراهيم خَلَف وقد أرّخها عمّنا السيد عبد اللّه بقوله[9]: «حَسَنٌ يوسفُ بازغْ» وهو يبلغ ١٢٨٤، فتحقّقْتُ من ذلك ومن أمارات أُخَر أن مولدي في ذلك العام. وقد بلغت إلى حين تحرير هذه الكلمات، وهو غرّة شوّال سنة ١٣٧٠، ستة وثمانين عاماً فقد «وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا»[10] وضعفت القوى وتواردت على الجسم العلل والأسقام وجاء نذير الأجل، وعَزَفَتِ النفس عن الدنيا وكل ما فيها، وماتت الشهوات، وضاق من نفسنا ما كان متّسعاً حتى الرجاء وحتى الخوف والأمل، مع ما تراكم وتتابع من الهموم واعْتَوَرَ من نوائب الدهر. لكن الهِمّة والحمد لله والعزمَ والجدُّ باقية كما كانت أيام الشباب، وإن كانت القدرة على العمل أضعف. والحواس بحمده تعالى صحيحة سالمة، والمواظبة على المطالعة والتصنيف والتأليف، ليلي ونهاري وعشيّي وإبكاري، باقية كما كانت لا أشتغل بشيء سوى ذلك إلاّ ما تدعو الضرورة القاهرة إليه. ولست أدري متى يوافيني الأجل المحتوم فقد أصبح مني قريباً، أسأله تعالى أنْ يختم أعمالي بالصالحات وأن يجعل ما بقي من عمري مصروفاً في طاعته وأنْ يوفّقني لإكمال هذا الكتاب تأليفاً وطبعاً وغيره مما شرعتُ به، وأنْ يجعل مستقبل عمري خيراً من ماضيه وأن يجعل ما ألّفْتُه من حديث وقديم ستراً بيني وبين نار

---

(٨) قرية على نهر الليطاني قرب قلعة الشقيف، سُمّي الجسر باسمها.

(٩) له ترجمة مختصرة في الأعيان، م ٨ ص ٥٥.

(١٠) سورة مريم ١٩، الآية ٤.

الجحيم، إنّه رؤوف رحيم. وعجّلت بهذه الترجمة قبل الوصول إلى محلّها من الكتاب خوفاً من مفاجأة الأجل وباللّه التوفيق.

أصل العشيرة

الذي سمعناه متواتراً من شيوخ العشيرة أن الأصل من الحِلّة[١١] جاء أحد الأجداد منها إلى جبل عامل بطلب من أهله ليكون مرجعاً دينيّاً ومرشداً. ولسنا نعلم من هو على التحقيق، بل هو مردّد بين السيد إبراهيم وابنه السيّد أحمد وابنه السيد حيدر[١٢]، والسيد حيدر سكن شقراء وتوفّي بها سنة ١١٧٥ كما هو مرسوم على لوح قبره في مقبرتها الشرقية القديمة، ووُلِدَ له في شقرا عدة أولاد ذكور وإناث نبغ منهم السيد أبو الحسن موسى[١٣]. وصاحب «مفتاح الكرامة»[١٤]، هو ابن ابنه وابن أخي السيد أبي الحسن، ويظهر من آثاره أنه كان واسع الحال عريض الجاه. وأفراد العشيرة البارعون تجد تراجمهم في مواضعها من هذا الكتاب[١٥].

النسبة

كانت العشيرة قبل هذا الوقت تُعرف بقَشاقِش أو قشاقيش ولا

(١١) الحلّة مدينة على الفرات بين بغداد والكوفة كانت مركزاً علمياً للشيعة ومقرّاً علمياً لكثير من علمائهم، منهم ابن إدريس (ت. ٥٩٨هـ/١٢٠٢م) والمحقق الحلّي (ت. ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، والعلاّمة الحلّي (ت. ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م).

(١٢) حول السيد حيدر وأولاده أنظر: **الأعيان**، م ٦، ص ٢٦٤.

(١٣) أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ١٨٢ ـ ١٨٥ تحت اسم موسى بن حيدر (١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م ـ ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، من أبرز علماء جبل عامل. أسّس مدرسة شقراء فجاءها الطلاب من جميع القرى وأخرجت عدداً من مشاهير العلماء والشعراء.

(١٤) هو محمد الجواد بن محمد (١١٦٤هـ/ ١٧٥١م ـ ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م)، أنظر: **الأعيان**، م ٤، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٥، و**مفتاح الكرامة**، شرح على **قواعد الأحكام**، للعلامة الحلّي (كتاب في الفقه).

(١٥) يقصد كتاب، **أعيان الشيعة**.

يُعرف أنّ ذلك نسبة إلى أيّ شيء. واحتمل بعض العلماء أن يكون ذلك تصحيف الأقْساسِيّ نسبة إلى أقساس، ماللك قرية قرب الكوفة. والأقساسيّون طائفة كبيرة هم من ذُرّية جدّنا الحسين ذي العبرة يُنسبون إلى هذه القرية. ثم عُرِفت العشيرة بآل الأمين نسبة إلى السيّد محمّد الأمين(١٦) ابن السيد أبي الحسن موسى ووالد جدّنا السيّد علي الأمين فصار يقال لذُرّيّته آل الأمين.

والد المؤلف

وأمّا السيّد عبد الكريم ابن السيّد عليّ والد المؤلّف(١٧) فكان تقيّاً نقيّاً صالحاً صوّاماً قوّاماً طيّب السريرة بكّاء من خشية اللّه تعالى. حجّ بيت اللّه الحرام وزار بيت المقدس وزار المشاهد المقدّسة في العراق وكان عازماً على زيارة مشهد الرضا(١٨) عليه السلام، فأشار عليه ابن عمّه السيّد كاظم أن ينفق ما يريد إنفاقه في ذلك السفر على طلبة العلم من أبناء إخوته فقبل إشارته وعاد من العراق. وبعد هجرتنا إلى العراق لطلب العلم بمدّة هاجر إليها مع باقي العائلة. ودُفن في النجف الأشرف في الصحن الشريف سنة ١٣١٥. وكان عند وفاة أبيه يتيماً فكفله، بعدما تزوّجت أمه، أخوه السيد محمّد الأمين، لكنه لم يلتفت إليه كما يجب وأساءت زوجته الحاجة خاتون بنت شيت معاملته حتى أنها لمّا توفيت بسقوط البيت عليها واحتراق جبينها بالموقد طُلب إليه أن يسمح عنها فأبى مع ما كان عليه من طهارة النفس ورقّة القلب، مما دلّ على شدّة إساءتها

(١٦) محمد الأمين (ت. ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م)، كان مفتياً لجبل عامل. أنظر: الأعيان، م ٩، ص ٦١ - ٦٢.

(١٧) لم يرد اسم والده في الأعيان لأنه لم يترك أثراً دينياً أو أدبياً معروفاً.

(١٨) الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية، علي الرضا. ضريحه في مدينة مشهد في إيران.

إليه. أما باقي إخوته الصغار فكفلتهم أمهاتهم وكنّ من العائلة ولم يتزوّجن فلم يجر عليهم ما جرى على الوالد وأخيه السيّد أمين الذي تزوّجت أمه أيضاً بعض أقاربها، وكانت من حولا من آل الغنوي. وربّما كان للقرابة بين الزوجين تأثير في ذلك. ولمّا ترعرع الوالد تسلّم هو وأخوه السيّد أمين ما خصّهما من ميراث أبيهما بالشركة واستغلاّه وانفرد لأنفسهما في الدار التي كانت نصيبهما من ميراث أبيهما.

والدة المؤلف

وتزوّج الوالد ابنة العالِم الصالح الشيخ محمّد حسين فَلْحَة المَيْسِيّ[19] وهي والدة المؤلف وكانت من فُضْلَيات النساء، عاقلة صالحة ذكيّة مدبّرة عابدة مواظبة على الأوراد والأدعية، توفيت في حدود سنة ١٣٠٠، وكان لها وللوالد الفضل العظيم في تربية المؤلّف وتفريغه لطلب العلم وحثّه على ذلك ومراقبته في سنّ الطفولة. ولمّا توفيت قال في رثائها من أبيات:

حويتَ يا قبرُ لو تدري مطهّرةً
من العيوب اكتست ثوباً من الشرفِ

من معدنٍ طاب أصلاً في العُلى فزكتْ
منه الفروع ونور الشمس غير خفي

يا ديمةً من سحاب العفو مثقلةً
إذا مَرَرْتِ بجَنْبَيْ قبرِها فَقِفي

روّي جوانبَ قبرٍ طاب ساكنه
ولا أقول إذا روّيتِه انصرفي

(١٩) أنظر: الأعيان، م ٩، ص ٢٥٢.

ويا سحابَ الغوادي روِّ تربتها
حتّى تعودَ كمثل الروضة الأُنُفِ
يا خيرَ والدةٍ بَرّاً ومَرْحَمَةً
بنجلها هو حِلْفُ الوجد والأسفِ
ليَنْعَمَنَّك عيناً بالفعال فقد
علمتِ من ذا الذي أبقيتِ من خَلَفِ
والدهر يعلم مَنْ نابتْ نوائبُهُ
فتىً لغير إلٰه العرش لم يَخَفِ
إنْ تصبحي من حلول الموت في تلفٍ
فإنّما خُلِقَ الإنسان للتلفِ
قد كان يمنعها بُعْدي القرارَ ولو
دنا المزار لفرط الحبّ والشغفِ
فكيفَ واليومَ عاد الحشرُ موعدَنا
والشمل منّا شتيتٌ غيرُ مؤتلفِ

جدّ المؤلف لأبيه

أمّا جدّ المؤلّف لأبيه، السيّد علي[٢٠] فكان فقيهاً رئيساً ذا شهرة واسعة وتأتي ترجمته وترجمة باقي الأجداد في محالّها وبعضها تقدّم في محلّه.

جدّه لأُمّه

أمّا جدّه لأمّه الشيخ محمد حسين فلحة العامليّ المَيْسِيّ من آل رِزْق، فكان عالماً فاضلاً صالحاً وَرِعاً تقيّاً شاعراً، قرأ في مدرسة

(٢٠) علي الأمين (ت. ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م). أنظر: الأعيان، م ٨، ص ٣١٨ ـ ٣٢٦.

جُبَع ثم سافر إلى النجف الأشرف لطلب العلم مع ولده خالنا الشيخ حسين فلحة فأقام في النجف مدّة ثمّ توفّي.

خال المؤلف

وكان ولده خالنا المذكور غاية في الفهم والذكاء وحِدّة الخاطر، شهماً كريماً سخيّاً أبيّ النفس عاليَ الهِمّة، بقي في النجف مدة بعد وفاة والده ثم عاد إلى جبل عامل وتوفّي في قرية مَيْس قبل عودتنا من العراق للمرة الأولى بمدة يسيرة، وكان له أخ يُسمّى الشيخ أحمد مرّت ترجمته[٢١].

جدّة المؤلف لأبيه

هي بنت السيّد إبراهيم خَلَف الحسيني من شقراء تزوّجت بعد وفاة زوجها جدّنا السيّد علي، بالحاج ظاهر عجمي من أرنون الشقيف.

تعلم القرآن

بعدما بلغتُ سنّ التمييز وأظن أن سنّي لم يتجاوز يومئذٍ السبع، وذلك بين سنة ١٢٩١ و١٢٩٢ وكنت وحيد أبويّ، ذَهَبَتْ بي الوالدة إلى معلّم القرآن في القرية. فلما دخلت مكان التعليم ضاق صدري ضيقاً شديداً وجزعت جزعاً مفرطاً لأن ذلك طبيعة الأطفال ولما كان في التعليم من القساوة. فالفلقة مُعلَّقةٌ في الحائط فوق رأس المعلّم، وهي خشبة بطول ثلاثة أشبار تقريباً مثقوبٌ طرفاها وفيها حبل دقيق يوضع فيها الساقان وتُشدّ عليهما. وعنده عصوان طويلة وقصيرة والأطفال جلوس إلى جانبه فإذا غضب المعلّم على واحد لذنب هو من الصغائر وهو قريب منه، تناوله ضرباً

(٢١) أحمد فلحة، أنظر: **الأعيان**، م ٣، ص ٢٢١.

على رجليه بالعصا القصيرة، فإن كان بعيداً عنه ضربه عليها بالعصا الطويلة، وإذا غضب على الجميع تناولهم بالضرب على أرجلهم بالعصا الطويلة وهم جُلوس صابرون على هذا البلاء خوفاً من الأشدّ منه وهو الفلقة. وإذا غضب المعلم على واحد لذنب هو عنده من الكبائر، كأن يهرب فراراً ممّا يلاقيه، أرسل المعلّم الأطفال الكبار ليأتوا به كما يرسل رئيس الشرطة أو الدرك جنوده لإحضار من يريد عقابه، فإن حضر معهم مشياً على الأقدام، وإلاّ حملوه مُشَهّراً بين الناس وهو يبكي ويصيح ولا من مجيب، وهم في أثناء ذلك ينشدون الأناشيد في ذَمّه، فيضعونه أمام المعلّم مُعْتَزّين فرحين فيأمرهم أن يلقوه على ظهره ويرفعوا رجليه ثمّ يتناول الفلقة ويضع رجليه بين الحبل والخشبة ويفتل الخشبة حتى يقبض الحبل على رجليه قبضاً شديداً. ويُمسك بأحد طرفي الخشبة واحد قويّ من التلاميذ وبالطرف الآخر مثله، ثمّ ينهال المعلّم ضرباً على رجليه بعصاً دقيقة أو قضيب، وهو يبكي ويصيح ويستغيث فلا يُغاث والمعلّم يقول له: تهرب بعدُ يا خبيث! فيقول له: واللّه يا شيخي ما عدت أهرب أبداً. أمّا عدد الجلدات فليس له حدّ في شرع المعلّمين، وليس هو كحدّ الزنا وشرب الخمر له مقدار معيّن، بل هو من نوع التعزير الموكول أمره في الشرع إلى نظر الإمام، وهذا موكول أمره إلى نظر المعلّم. فيختلف بحسب اختلاف ذنب الطفل وتكرّره منه ومقدار درجة عقل المعلّم وتفاوت حاله في الغضب، وحظ الطفل في السعادة والتعاسة. ثمّ يأمر الشيخ بفكّ الفلقة عن رجليه ويقوم الطفل يمسح دموعه ويجلس في مكانه، والأطفال ينظرون إليه شزراً متبسّمين تبسّماً خفياً، ولا يقلّ ألمه من ذلك عن ألمه من الضرب. ثمّ يعلّق الشيخ الفلقة في الوتد المثبت في الحائط، وهذه الفلقة لا تزال معلّقة هنا يراها الصبيان رمزاً إلى أنّ مَنْ أتى

بذنب فهذه مُعَدَّة له. ولا يتكلّم أهل الطفل في شأنه بشيء بل يقولون للمعلم: لك اللحم ولنا الجلد والعظم. اعتقاداً منهم أن ذلك في مصلحته وأنّه محتاج إلى التأديب، لذلك لا يجسر الطفل إذا هرب أنْ يأتي إلى بيت أهله، ولا يتوقّف المعلّم عن تأديبه بأي نوع من أنواع التأديب.

فبقيتُ ذلك اليوم عند المعلّم وما أظنُّ أنّي أكملته وما تعلّمت شيئاً. وفي اليوم الثاني أبَيْت الذهاب إلى المعلّم، ولم يشاؤوا أنْ يجبروني على ذلك لكوني وحيد أبَوَيّ، ولشدّة شفقتهما عليّ. فتولّت الوالدة تعليمي القرآن. أما الوالد فهو، وإنْ كان لا يُقَصّر عنها اهتماماً بتعليمي، لكنه لا يراقبني كمراقبتها. أما الخطّ فكان شيوخ العائلة الجيّدو الخطّ يكتبون لي قاعدةً على لوح من التنك بِمداد من تراب أبيضَ ثمّ على الورق إلى أن ختمتُ القرآن. وتعلّمتُ الخطّ في مدّة يسيرة. ثم لمّا أخذت في طلب العلم كنت أكتب في وقت العطلة على بعض الخطّاطين.

ولم يكن لي في حال الصغر رغبة فيما يعتاده الصبيان من اللعب وإن كنت أتعاطاه قليلاً. وقد تعلّمتُ السباحة وركوب الخيل والمطاردة(٢٢) لتعارف ذلك في المحيط الذي نحن فيه، لكن ما تعلّمت الصيد بالبندقية لأن ذلك يعاب على من يطلب العلم، ولا أُطلقت يوماً بندقية ولا مسدّساً إلاّ مرّة واحدة، كانت عندنا بندقيّة صيد يأخذها فلاّحنا معه إلى الحقل يصطاد بها فاستعصت مرّة

(٢٢) المطاردة، نوع من الفروسية. يصطفّ فريقان من الخيالة الواحد في مقابلة الآخر على طرفي حقل فسيح. يخرج أحد الخيالة من الفريق الأول ويعدو نحو الفريق الثاني؛ فإذا ما وصل بإزائه يعود مسرعاً إلى فريقه فيطارده خيّال من الفريق الثاني فإذا ما وصلا إلى موضع الفريق الأول يعود الخيّال الثاني نحو فريقه فيطارده خيّال آخر من الفريق الأول وهكذا.

الدكّة التي فيها ولم تُثَر فتناولتها وأنا صغير السنّ وحرّكْت الزناد فثارت. وكنت يوماً مع جماعة في بعض متنزّهات دمشق ومعهم مسدّس فصوّبته إلى شجرة وغمضت عيني وأطلقته فأصاب المرمى.

ويظهر أن هذه الطريقة، وهي الشدّة في التأديب، على الصبيان كانت متّبعة في القديم من المعلّمين حتّى مع أولاد الخلفاء والملوك والأمراء. فقد رَوَوْا أنّ المأمون أبطأ على المعلّم فلما حضر ضربه المعلّم فبكى، فبينا هو يبكي إذ قيل: جاء الوزير البرمكيّ. فمسح المأمون دموعه وسوّى عليه ثيابه وجلس كما ينبغي لابن الخليفة أن يجلس مع الوزير ثمّ قال: ليدخل. فدخل وحادثه ساعة ثمّ انصرف. ونظر المأمون إلى المعلّم وقد تغيّر، فسأله عن سبب تغيّره، فقال: خفت أن تخبره بما جرى فينالني منه سوء. فقال: سامحك اللّه عن هذا وخذ في وِرْدِك ولا تفكّر في شيء مما جرى، وكيف يمكن أن أخبره به؟ وبعد فأنا محتاج إلى التأديب. وهذا يدل على رجاحة عقل المأمون.

وضرب يوماً المعلّم بعض أولاد الكبراء على غير ذنب وهو يعلّمه فَسُئل عن ذلك فقال: أردت أن يعرف مرارة الظلم فلا يظلم أحداً. وكان المعتصم بن الرشيد شِبه أمّيّ يقرأ ولا يكتب، لأنه كان له عبد صغير يتعلّم معه في الكُتّاب فمات العبد فقال له الرشيد: مات غلامك. قال: نعم واستراح من الكُتّاب. فقال له: بلغ بك الحال من كراهة الكُتّاب أن تغبط غلامك على الموت لأنه استراح من الكُتّاب! وأعفاه من الذهاب إلى المعلّم فخرج يقرأ ولا يكتب. فلهذا لمّا كتب بعض العمّال إلى المعتصم كتاباً فيه لفظ الكَلأ، لم يفهم معناه، فسأل الوزير، فلم يعرفه، فقال المعتصم: خليفة أمّيّ

ووزير عاميّ كيف تصلح على هذا حال؟ فسأل بعض الكتّاب عنه ففسّره، فعزل الوزير واستوزر الكاتب. وهذا يدلّنا على مكانة العلم ومكانة الجهل، فهذا بعلمه صار وزيراً وهذا بجهله عُزِل عن الوزارة. وكان الخلفاء والملوك يعتنون كثيراً بتعليم أبنائهم والأبناء يُعظّمون مشايخهم.

كان الأمين والمأمون يتعلّمان النحو والأدب عند الكسائي[٢٣]، وكان للرشيد عين عليه. فقام الكسائيّ يوماً ليخرج فتسابقا إلى تقديم نعليه، فأصلح بينهما أن يقدّم كلّ واحد فرداً. فأخبر العينُ الرشيدَ بذلك فأرسل إلى الكسائيّ وقال له: من أعزُّ الناس؟ قال: أمير المؤمنين. قال: لا بل أعزّ الناس من يتسابق أولاد أمير المؤمنين إلى تقديم نعليه. فاعتذر إليه الكسائيّ، فقال له الرشيد: هذا يدلّ على حسن تأديبك إيّاهما. وهذا يدلّنا على أن شرف العلم أعظم من شرف السلطان.

ومهما قلنا بقساوة التعليم في تلك الأعصار ولينها اليوم لا نستطيع أن نقول إن نتائج التعليم اليوم الأخلاقيّة والدينيّة تعادل نتائجه في تلك الأعصار.

نموذج من طريقة التعليم في العصر السابق

يبدأ الطفل بقراءة الحروف الهجائية حتّى يحفظها ثمّ يأخذ في تعلّم المنقوط وغير المنقوط وعدد نقط الحروف فيقول: «أ» لا شيء عليه. «ب» نقطة من تحت. «ت» نقطتان من فوق، «ث» ثلاث نقط من فوق وهكذا. ثم في معرفة الحركات والسكون فيقول: ألف «أَ» نصب. ألف «إِ» خفض. ألف «أْ» جزم، وهكذا إلى الآخِر ثم الباء

(٢٣) الكسائي (ت. ١٨٩هـ/٨٠٥م) نحويّ وقارىء، علّم هارون الرشيد ثم علّم أولاده.

وباقي الحروف بهذا الترتيب ثم الفتحتان والكسرتان والرفعتان بهذا الترتيب. لكنّهم لا ينطقون بما يدل على ذلك بلفظ صحيح ويسمّون الكسر خفضاً والضمّ رفعاً والسكون جزماً.

ومن العادة التي كانت متّبعة أحياناً أنّه إذا وصل الطفل إلى سورة الضحى فعليه أن يأتي إلى الشيخ بشيء من بيض الدجاج أقلّه خمس أو ستّ وأكثره عشر ليقليَ بمناسبة قوله تعالى في هذه السورة ﴿ما ودّعك ربّك وما قلى﴾[٢٤]. وإذا وصل إلى ﴿عمّ﴾[٢٥] عليه أن يأتي بغَمّة إن كان موسراً وهي عبارة عن الكرش والرأس والأكارع من الذبيحة بمناسبة قرب لفظة «عمّ» من غمّة. وكلّ ذلك كقرب زيادٍ من آل حرب[٢٦]. فإذا ختم القرآن، زفّه الأطفال إلى بيت أهله فأطعموهم الحلوى وسقوهم الماء والسكّر.

الحرب بين روسيّة والدولة العثمانية

وفي حوالى سنة ١٢٩٠[٢٧] كانت الحرب بين روسيّة والدولة العثمانيّة، وأنا في سنّ الطفولة. ووقع الناس في شدّة وضيق، وأخيراً غُلِبَتْ الدولة العثمانيّة ودخل الروس بحر استانبول فردّهم أسطول الإنكليز، وأخذ الإنكليز مقابل ذلك جزيرة قبرص، وأعلنت الدولة العثمانيّة إفلاسها وطَبعت ورقاً للمعاملة كان يسمى قوائم.

---

(٢٤) سورة الضحى ٩٣، الآية ٣.

(٢٥) المصدر نفسه، سورة النبأ، ٧٨، الآية ١.

(٢٦) زياد بن أبيه (ت. ٥٣هـ/٦٧٣م) كان والياً في عهد علي. ثم ادّعى معاوية أن زياداً هو ابن أبي سفيان بن حرب. فاستماله بذلك وضمن ولاءه. فلا وجه للقرابة بين زياد وآل حرب إلاّ ادّعاء معاوية.

(٢٧) تاريخ الحرب بين روسية والدولة العثمانية يقع بين سنتي ١٨٧٧م و١٨٧٨م أي ما يقارب سنتي ١٢٩٥هـ و١٢٩٦هـ.

تعلّم علمي النحو والصرف

بعدما ختمت القرآن وتعلمتُ الكتابة شرعت في قراءة علم النحو وتعلّم إجادة الخطّ، بحفظ متن الآجرّومية[٢٨] وإعراب أمثلتها غيباً كما هو المألوف. فأول ما يُبْدَأ به إعراب البسملة ويقال عنه إعراب لفظ الجلالة وعلامة جرّه كسر الهاء تأدّباً وفي غيره يقال وعلامة جرّه كسر آخره. ثم بإعراب «الكلام هو اللفظ المركّب المفيد بالوضع»[٢٩]. وعند تعداد حروف الجرّ يذكر لكلّ واحدة مثال ويعرب. وعند ذكر النواصب كذلك وعند ذكر الجوازم كذلك. والمثال قد يكون جملة مختصرة مثل: سرت من البصرة، وقد يكون آية قرآنية مثل: ﴿وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم﴾[٣٠]، وقد يكون بيتاً من الشعر أو شطر بيت مثل «وإذا تُصِبْكَ خَصاصةٌ فتجمَّلِ»، عند عدّ إذا من الجوازم في الشعر خاصة وأول البيت «استغنِ ما أغناك ربُّك بالغنى»[٣١]. ويَعُدّ صاحب الآجروميّة من النواصب كيْ ولامَ كيْ مع أن اللام إذا دخلت على كَيْ فالناصب كَيْ واللام جارّة. ويعدّ من الجوازم لم ولمّا وألم وألمّا وفيه خطأ ظاهر[٣٢].

---

(٢٨) كتاب في النحو كان دارسو النحو يبتدئون به. مؤلفه محمد الصنهاجيّ المعروف بابن آجرّوم وإليه نسبة الكتاب. وقد شاعت الآجرّوميّة بين جمهور الطلاب والشارحين فوصل عدد شروحها إلى الستين. وترجمت إلى اللاتينية منذ سنة ١٥٩٢م.

(٢٩) الجملة الأولى من الآجرّومية.

(٣٠) سورة الأنفال ٨، الآية ٣٣.

(٣١) البيت من شواهد الآجرّوميّة.

(٣٢) الخطأ في عدّ ألم وألمّا مختلفين عن لم ولمّا مع العلم أن الهمزة فيهما مضافة للاستفهام.

وكان شيوخ العشيرة أمثال السيّد عبّاس مرتضى والسيّد محمّد حسين أحمد والسيّد محمد حسين عبد اللّه وغيرهم يكتبون لي الدروس وإعراب أمثلتها فأحفظ ما أمكنني حفظه درساً أو درسين غيباً وأتلوه على مستمع. وكنت أقرأ الماضي كلّ يوم في دارنا وفيه محلاّن للسكنى: الوالدة مع الأخوات في محلّ، وأنا في محلّ وحدي أتلو فيه الماضي من الدروس كما أُنْزِل حتّى إذا وصلت إلى النواصب وهي عشرة والجوازم وهي ثمانية عشر يأخذني الملل من إعراب أمثلتها الكثيرة الطويلة وقد سبقها حروف الجرّ وحروف القسم وإعراب أمثلتها الطويلة فأقتصر من النواصب والجوازم على سرد أسمائها دون ذكر أمثلتها وإعرابها، وأجعل كلّ مضارع منها كأنه قد «مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم»[٣٣] على حدّ قول المتنبي. فينقص من المدّة أكثر من نصفها. وكنت أعلم أنّي إذا خرجت من البيت قبل انتهاء المدّة المعتادة لقراءة الماضي، تعلم والدتي أنّي لم أُتمّ قراءته فأبقى في البيت ساكتاً فأسمع والدتي تقول لإحدى أخواتي أن تنظرني أَأقرأ الماضي أم لا؟ فإذا قارَبَتِ البيت رفعتُ صوتي بالقراءة فإذا عادت، سكتُّ حتى ينقضي الوقت فأخرج.

وفي بعض الأيام ضاعت مني **الآجُرّوميّة** الوحيدة النسخة. فكانت المصيبة بها جُلّى ولا كمصيبة صاحب المُغْني **بالمغني**[٣٤] حين سقط منه في البحر في سفره إلى الحج. لكن صاحب المُغْني أعاد

(٣٣) هذا شطر من قصيدة «على قدر أهل العزم» لأبي الطيب المتنبي وأوله: «إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً»؛ أنظر: **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب**، لإبراهيم اليازجي، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، الجزء الثاني ص ٢٠٤.

(٣٤) جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت. ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م) صاحب **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، وهو كتاب جامع في النحو.

كتابته من حفظه، أما أنا فلم يكن ذلك باستطاعتي ولا أتذكّر الآن ما صنعتُه لتدارك ذلك أوجدتُها بعد ضياعها أم استغنيت عنها وكُتِبَ لي ما بقي منها؟ وكيف ما كان فقد طويتُ مرحلتها وانتقلت إلى مرحلة ثانية، وهي الشروع في قراءة **قطر الندى وبلّ الصدى** لابن هشام الأنصاري في النحو، وفي قراءة شرح سعد الدين التَفْتازاني على متن **عِزّي** في التصريف(٣٥)، وذلك بين سنة ١٢٩٥ و١٢٩٦. فشرعت في قراءة ذَيْنكَ على السيّد محمّد حسين ابن عمّنا السيّد عبد اللّه(٣٦)، وكان فاضلاً حسن الأخلاق فحضرت عنده القراءة أنا ورفيقان لي من بني عمّنا هما أكبر منّي سنّاً بكثير فجلسنا أمامه في المسجد على رُكَبنا متأدّبين كما هي العادة وشرع أحدنا يقرأ العبارة كما هي العادة أيضاً بأن يقرأ أحد التلاميذ عبارة الكتاب والباقون يضبطون عليه ثمّ يفسّرها لهم الأستاذ، ثمّ يقومون فيُعيد الذي قرأ العبارة ما قاله الأستاذ في تفسيرها والباقون يراقبونه هل أصاب أو أخطأ؟ وفي اليوم الثاني يقرأ العبارة تلميذ آخر، ويعيد ما كرّره الأستاذ حتّى ينتهي الدور ويعود إلى الذي قرأ أولاً. فلما قرأ: أصْلٌ، «الكلمة قول مفرد» قال له الأستاذ: قف. فوقف، فقال الأستاذ: كلّما مرّ أول الدرس «ص» فمعناه أصل وكلّما مرّ «ش» فمعناه شرح فليكن ذلك على علم منكم. فقلنا: نعم. ثم قال: اعلم أنّه لا بدّ لكلّ طالب علم قبل الشروع فيه من معرفة ثلاثة أشياء: حدّ العلم وموضوعه وغايته. أمّا حدّه فلئلاّ يدخل فيه ما ليس منه، وأمّا موضوعه فلأن تمايز العلوم

---

(٣٥) المقصود كتاب شرح التصريف العِزي للتفتزاني (ت. ٧٩٣هـ/١٣٨٩م). وهو شرح لرسالة في الصرف لعزّ الدين عبد الوهاب الزنجاني المعروف بالعِزّي (ت. ٦٥٥هـ/١٢٥٧م).

(٣٦) محمد حسين الأمين (ت. ١٣٣٤هـ/١٩١٦م)، أنظر: **الأعيان**، م ٩، ص ٢٦٠. عبد الله الأمين (بلا تاريخ الوفاة) أنظر: **الأعيان**، م ٨، ص ٥٩.

بتمايز الموضوع، وأمّا غايته فلئلا يكون طلبه عبثاً ولئلاّ يكون كمن ركب متن عميا وخبط عشوا (ولكنه قال وخبط خبطة عشوا)[٣٧] فلا يزيده كثرة السير إلاّ بعداً. أمّا حدّ علم النحو فهو علم بأصولٍ يُعرف به أحوال أواخر الكَلِم من حيث الإعراب والبناء، وموضوعه الكلمات العربية وغايته صون اللسان عن خطإٍ في المقال. فلمّا سمعت هذا الكلام أظلمتِ الدنيا في وجهي، وسِنّي يومئذٍ نحو العشر سنين، وقلت في نفسي: هذا علم لا يمكن أن أتعلّم منه شيئاً إن كان كله من هذا القبيل. متن عميا خبطة عشوا ما هو هذا الكلام؟ لكن هذا الدرس أفادني درساً في التعليم وكيف ينبغي أن يكون. ثم قال الشيخ: احفظوا هذا الذي ألقيته عليكم غيباً لتعيدوه عليّ غداً. ولست أتذكّر ما جرى لنا في حل هذه المشكلة أضربنا صفحاً عن حفظه أم كتبه لنا وحفظناه؟ ثمّ ابتدأ أحد رفيقيّ يقرأ درس التصريف وكانا أكبر منّي سنّاً ـ كما مرّ ـ لكنهما في منتهى البلادة. فقال: اعلم أن التصريف في اللغة التغيير وفي الاصطلاح تحويل الأصل إلى أمثلة متعددة لمعانٍ مختلفة لا تحصل تلك المعاني إلاّ بها. وشدّد اللام من تحصل فضربه الشيخ على هذه الغلطة القبيحة، وأدركت أنا حينئذٍ تقدمه في البلادة لأنّ كلمة تَحْصُلُ مبذولة معروفة لا يمكن أن يقرأها عاميّ بتشديد اللام. فقال له ذلك التلميذ لـمّا ضربه: واللّه لو ضربتني بخشب البيت ما نزل من عيني دمعة.

أوّل ديوان شعر قرأته

كان لوالدي صديق اسمه الحاج محمود مروّة من الزراريّة ينزل عندنا في طريقه إلى بنت جبيل فأوصيته أن يشتري لي ديوان شعر

(٣٧) لعله يعترض على استعمال «خبطة» وهي للمرة الواحدة، ولا تصحّ في هذا المثل.

من بيروت فاشترى لي ديوان أبي فراس الحمدانيّ[٣٨] فجعلت أقرأ فيه وحفظت كثيراً منه لا يزال في حفظي إلى اليوم وكنت أفهم أكثر معانيه والبعض أفهمه على غير وجهه لأنّني كنت صغير السنّ جداً، وهو أول ديوان شعر قرأته.

زيارتنا لعمّنا السيّد محمّد الأمين

ابن السيّد علي الأمين

كان له منصب مفتي بلاد بشارة[٣٩] كما كان لأبيه من قبله مع أنّه لم يكن في عداد الرؤساء، لذلك كان أهل النفوذ في البلاد تارة يسالمونه وتارة يعادونه ويخاصمونه. وكان يوسف آغا المملوك من أهل صور من ألدّ أعدائه لأنه اعتاد ظلم الفلاحين من أهل جبل عامل[٤٠]، فكان عمّنا المذكور يعارضه. وقَدِر يوسف آغا بدهائه وأساليبه الشيطانية أن يستميل إليه رؤساء البلاد فيكونوا معه على السيّد محمّد الأمين.

حدَّثني الحاج إبراهيم عبد اللّه[٤١] قال: اجتمع في منزلنا بالخيام جماعة، وكتبوا مضبطة في الشكاية من السيّد محمّد الأمين ختم فيها أبو سويد من زبدين وختمت فيها أنا وأخي الحاجّ محمّد ومختار النصارى في الخيام وأعطيناها للشيخ صادق، من أهل الخيام من أقارب آل صادق فيها، ليمضيها من القرى؛ أمّا مختار

(٣٨) أبو فراس الحمداني شاعر وأمير، ابن عم سيف الدولة (ت. ٣٦٩هـ/ ٩٨٠م).

(٣٩) حول حدود بلاد بشارة وجبل عامل أنظر محسن الأمين، خطط جبل عامل، الدار العالمية، بيروت ١٩٨٣، ص ٦١ - ٦٦.

(٤٠) كان يوسف آغا المملوك يرهق الفلاّحين بالضرائب فيبعثون بمضابط الشكاية إلى الوالي، ولكن دون طائل.

(٤١) من أعيان بلدة الخيام.

النصارى فتوفّي فجأة تلك الليلة، وأمّا أبو سويد فكان في حجرته التي نام فيها كانون فحم أشرف منه على الموت، وأمّا الشيخ صادق فركب فرساً وذهب فلمّا تجاوز عقبة الخيام ووصل إلى السهل عثرت به الفرس فسقط عنها فكُسِرَتْ رجله فحُمِل في نعش إلى الخيام. فجاء الحاج حسن عبد اللّه إلى أولاده وقال لهم كفّوا عن هذا الرجل قبل أن تصيبهم المصائب بسببه، فكفّوا؛ (انتهى ما حدّثني به الحاج إبراهيم). وهذه الواقعة اشتُهِرت في جبل عامل يومئذٍ حتّى تحدّث بها الخاص والعامّ وسمعتُها وأنا طفل صغير لا أظنّني أتجاوز السبع، وزاد الناس فيها حواشيَ كعادتهم في أمثال هذا المقام مثل أن السيّد محمّد الأمين أراد صلاة الصبح في ذلك اليوم وليس معه ماء فنبعت له عين ماء فتوضّأ. والحقيقة التي لا شكّ فيها هي ما حدّثني به الحاج إبراهيم لأنّه شاهد عيان، وبعض أمورها جرت معه ومع أخيه.

وكان السيّد محمّد الأمين مرّة في خصام مع خليل بك الأسعد[٤٢] ويوسف آغا المملوك فهدّده الوالي المكلّف بالتحقيق في هذا النزاع في بيروت بأنّه يحبسه فقال له: إن حبستني لم تقدر على حبس لساني وقلمي. وكثر الكلام فيما بينهما فأرسل الوالي إلى خصومه وألزمهم بصلحه، فاستاؤوا لذلك كثيراً وقالوا: بعد هذه المشاقّ والنفقات الكثيرة والأموال الجزيلة نُلْزَم بالصلح! حدّثني بذلك الحاجّ حسن ملحم خال أولاد الحاج حسن عبد اللّه وكان له ميل شديد لعشيرتنا قال: فجئت إلى السيّد محمّد الأمين أبشّره بذلك فلم يهتم به وقال لي: هم يعتمدون على الحكّام وعلى أموالهم وأعوانهم وأنا اعتمادي على اللّه وحده.

(٤٢) خليل الأسعد (ت. ١٣١٤هـ/٩٧ - ١٨٩٦م) أنظر: الأعيان، م ٦، ص ٣٤٦ - ٣٤٩.

وبعد أن رجع من بيروت إلى قرية الصوّانة ظافراً على أخصامه الذين أرادوا به الغوائل ذهبنا للسلام عليه مع شبان بني عمّنا ولم أكن رأيته قبل ذلك إلاّ مرّة واحدة، جاء فيها مع ولده السيّد حسن ليلاً إلى دارنا بشقراء، وكنت يومئذٍ صغير السنّ جداً، فلم تبقَ بذاكرتي صورته ولا صورة ولده السيّد حسن. وكانت دارنا ضيّقة وفيها بعير مُناخ فلم يستطع المرور إلاّ بصعوبة فقال لوالدي: يا أخي دارك ضيّقة. فقالت له والدتي: ماذا نصنع لك، في جوارنا خيرات كثيرة ولا تعطينا منها شيئاً يبيع أو هبة لنوسّع دارنا. فسكت. أما هذه المرّة فكان عمري حوالى عشر سنين وذلك حوالى سنة ١٢٩٤ فرأيته رجلاً صبيح الوجه أشمّ الأنف جهوريّ الصوت بطيناً شجاع القلب يلبس على رأسه شالاً من الترم[٤٣] الأخضر ويلبس جبّة وثياباً ليست بالفاخرة ويُبسط له سجادة صغيرة فيجلس عليها خارج داره. فسأل عنّي ولم يكُ يعرفني. وفي الليل أتى بخرج فيه كتب من دواوين شعرية وغيرها من مطبوع ومخطوط وأعطى كلّ واحد منا كتاباً وكتب عليه أنه وقْفٌ عليه، وشَرَطَ شروطاً منها أن يعيره ولا يمنعه كأنّه قد وقف عليه ضيعة أو خاناً. ولـمّا ودّعناه جعل يوصي ابن ابنه السيّد حسين بطلب العلم. ورأيته مرّة ثالثة حين وفاته فكان بطلعته البهيّة وهو ميت يبهج النفس كما كان في حياته ولا يوحشها. وكانت وفاته بعد رؤيته الثانية بمدّة قصيرة لعلّها تبلغ السنة أو السنتين.

وبقيت أقرأ مدة يسيرة عند شيخنا وابن عمّنا المذكور لكن بفائدة قليلة لأنّني لم أبلغ سنّاً يمكنني فيه أن أعرف كيف ينبغي أن يكون التعلّم وليس من يرشدني، أما هو فرجل فاضل.

---

(٤٣) الترم: نوع من القماش يسمى الكشمير.

الفصل الثاني

في جبل عامل

في عيثا الزّط

ثمّ حضر من العراق السيّد جواد مرتضى[1] إلى قريته المسمّاة عيثا الزطّ قرب تبنين وذلك حوالى سنة ١٢٩٧. وتُنسب إلى الزطّ وهم الذين يُنْزون ذكور الخيل والحمير على إناثها وليس بها منهم اليوم أحد، ولعلهم كانوا في الأعصار السالفة، كذلك تمييزاً لها عن عيثا الشِعْب التي هي في منطقة تسمى الشِعْب. فأُرسلْتُ إليها حوالي سنة ١٢٩٧، وشرعتُ جماعةً في قراءة **القطر** عليه. ولكوني في سن الطفولة كنت إذا فتحت الكتاب ليلاً للمطالعة حسب العادة، لا أهتدي إلى فهم شيءٍ من العبارة، وإذا حضرت الدرس نهاراً لا أفكر في الدرس بل فكري مشتت. فمضى عليَّ على هذه الحال مدّة قليلة وأترابي جلّهم مشتغلون باللعب. ثم رأيتني أخاطب نفسي فأقول: أنت حضرت إلى هنا لتستفيد لا لتتعاطى ما يتعاطاه الصبيان من اللعب.

---

(١) جواد مرتضى (١٢٦٦هـ/١٨٥٠م - ١٣٤١هـ/١٩٢٣م). وكان قد رجع من النجف وبقي أربع سنوات في جبل عامل ثم عاد إلى النجف في طلب العلم. أنظر: الأعيان، م ٤، ص ٢٦٦ - ٢٧٠.

فصممت على الجدّ والكدّ فلما كان الليل فتحت الكتاب وأمامي السراج والطلاب محيطون به كلٌّ في فراشه يطالعون، وجعلت أنظر في العبارة فكأنني كنت في ظلام، ثمّ لاح لي في أثناء ذلك الظلام ضياء يسير فَرِحْتُ به وتنبّهت وجعلت أعرف جيّداً كيف ينبغي أن تكون المطالعة وأن يكون تفهّم الكلام. ولم أزل من ذلك الحين أشتغل بطلب العلم قراءة وتدريساً ومذاكرة وتأليفاً بهمّة لا تعرف الكلال في الصرف والنحو والمنطق والبيان والفقه والأصول في مدارس جبل عامل بكلّ جدّ وإتقان، وفي النجف على مشاهير علمائها تاركاً معاشرة كلّ من لا أستفيد منه علماً، مقبلاً على خُوَيْصة نفسي[2] صابراً على مِحن الزمان.

ومَنَّ اللّه عليَّ في جبل عامل برفيق يُسمى الشيخ محمّد دبوق[3] وهو أكبر منّي سنّاً، فهو ملتح وأنا طفل وكان تقيّاً ورعاً زاهداً فطناً مُجِدّاً في طلب العلم متجنّباً للغيبة وسماعها. وإذا أراد أحد أن يستغيب في مجلسه صرف الكلام عن جهته بدون أن ينهى المستغيب صريحاً بل بأسلوب جميل قلّ أن يقدر عليه أحد، ولا تمرّ به حادثة إلاّ ويستشهد عليها بشعر أو ذِكر حكاية، فكنّا نقرأ معاً عند السيّد جواد المذكور فإذا قرّر مسألة لا يمكن أن يتجاوزها حتّى يفهمها جيّداً فإذا لم يفهمها يقول له: هذه لم تدخل في فكري. فيعيدها ثمّ يقول له: هل دخلت؟ فيقول: لا لم تدخل. فيعيدها ثانياً حتّى يقول فهمتها. أما أنا فكنت أضجر من ذلك ولكنّني أسكت. ثم نذهب للمباحثة فيجلس أمامي على ركبتيه لا يتّكيء ولا يميل إلى يمين أو يسار ولا يلتفت، فإذا رأيته استَحَيْتُ من نفسي وجلست جلوسه ثم تغلبني طبيعة الصِبا فأنسى وأجلس متربّعاً

(٢) مقبلاً على خُوَيْصَة نفسي: متقبلاً للموت.

(٣) محمد دبوق (ت. ١٣١٧هـ/١٩٠٠م) أنظر: **الأعيان**، م ٩، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

وأعتمد على يميني أو شمالي ثم أتذكّر فأعود. فأتممتُ معه قراءة شرح القطر بكلّ إتقان، وقراءة علم الصرف وشرح ابن الناظم على ألفية والده إلى نِعْمَ وبِئْسَ[٤].

وحضر في سنة ١٢٩٨ من العراق الشيخ موسى شرارة[٥] إلى بلدة بنت جبيل، فذهب والدي لزيارته. وعاد فأخبرني عنه وقال إن الناس تتوافد لزيارته. وذهب شيخنا أيضاً لزيارته. وكانت عادتي أن أحضر إلى شقراء في أغلب الأسابيع يوم الخميس بعد الظهر إذ أكون قد أكملت دروسي فأبيت فيها ليلة الجمعة وأرجع عصر يوم الجمعة. رجعت مرة فوجدت الشيخ موسى قد جاء ليردّ الزيارة لشيخنا المذكور وهو جالس أمام الدار على مصطبة، فسلّمت عليه وجلست، وكنت متلفّعاً بملفع من الصوف ولي وفرة كما يكون للشبّان فسأل عني فأخبروه فقال لي: لمَ تلفّعتَ بهذا الملفع؟ وهذه الوفرة لا تليق بطالب العلم. فقلت: أما الملفع فأتّقي به البرد وأما الوفرة فأحلقها. فقال لي: بأي كتاب تقرأ؟ قلت: في شرح القطر. وكان إلى جانبي رفيق لي هو أسنّ منّي فسأله أيضاً فقال: في شرح القطر. فقال له: ما تعريف الكلمة؟ فلم يحر جواباً. فسألني فقلت: قول مفرد. فقال: أيّهما الجنس وأيّهما الفصل[٦]؟ فقلت: هذا لم أقرأه. فسكت، فلمّا كان الليل وأُحضِر العشاء افتقدني ولم يرضَ

(٤) ألفية ابن مالك، أرجوزة في النحو مؤلّفة من ألف وبيت ألّفها جمال الدين بن مالك (ت. ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م). وقام ابنه بدر الدين بشرحها. وشرحه معروف بشرح ابن الناظم.

(٥) موسى شرارة (١٢٦٧هـ/١٨٥١ - ١٣٠٤هـ)، ١٨٨٧م أنظر ترجمته في: الأعيان، م ١٠، ص ١٧٢ - ١٧٨.

(٦) يشتمل كل تعريف على جنس وفصل؛ فأما الجنس فيتعلّق بما هو مشترك بين المعرّف وغيره. وأما الفصل فيتعلّق بما هو خاص بالمعرّف. وعليه فإن «قول»، في تعريف الكلمة بـ «قول مفرد»، هو الجنس و«مفرد» هو الفصل.

أن يتعشّى حتّى حضرت وتعشّيت معه فلمّا فرغنا قال: أسألك أيضاً. قلت: نعم. قال: كيف تعرب؟

إذا قالت حَذامِ فصدّقوها
فإنَّ القول ما قالت حَذام؟

قلت: إذا ظرف متضمّن معنى الشرط، قال: بماذا يتعلّق؟ قلت ـ خطأً ـ بقالت، فقال: إذا مضافةٌ إلى الجملة التي بعدها والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. فلم يكن عندي جواب لأن ذلك لم يطرق سمعي من قبل ولكنّني سُررت بالتفاته إليَّ وبسؤاله لي ونشطت لطلب العلم ورغبت فيه.

وكان معنا في عيثا الشيخ أحمد برّي[7]، وكنّا نستأجر امرأة لنقل الماء من العين الفوقا التي تبعد نحواً من ربع ساعة من القرية، ونلاقي من ذلك مشقة لعدم وجود من نستأجرها في كل وقت. فاخترع الشيخ أحمد لذلك أن صنع لصفيحة من صفائح الكاز خشبتين وشدّهما بها شدّاً وثيقاً فيحملها أربعة من التلاميذ وينشدون شعر **ألفية ابن مالك** ذهاباً وإياباً فيكون في ذلك عدة فوائد. والماء يُستخرج من هذه العين بـ «النادوف» فيوضع عامودان من خشب بجانبَي العين التي يبلغ عمقها نحو أربعة أو خمسة أمتار وبينهما خشبة مُعترِضَة من إحداهما إلى الأخرى ويُدْخَل في الخشبة المعترضة خشبة أُخرى طويلة، طرفها الدقيق من جهة العين وطرفها الآخر بحيث إذا تُرك يصل إلى الأرض. وفي طرفها الذي يلي الأرض حجر ثقيل وفي الذي يلي الماء الحبل والسطل.

(٧) أحمد بن حسن برّي (ت. ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، أنظر ترجمته في: **الأعيان**، م ٢، ص ٥٠٩.

فيجذبها المستقي حتى يصل السطل إلى الماء ويمتلىء ثم يرسلها فترفع السطل إلى فم العين فيتناوله ويفرغه وهكذا.

ووقع في بعض السنين ثلج وليس عند الطلاّب حطب، وقريب من القرية شجرة قديمة عاديّة يحترمها أهل القرية ويتحرّجون من قطع غصن منها خوفاً من المجازاة في الدنيا، وأمثال ذلك في جبل عامل وغيرها كثير. فذهب التلاميذ وجعلوا يربطون فروع تلك الشجرة بالحبال فتنكسر وتسقط فيجرّونها إلى أماكنهم للوقود وأهل القرية يستنكرون ذلك ويخافون على التلاميذ عاقبة ذلك وينهونهم فلا ينتهون. وفي الصباح جاؤوا ينظرون إليهم هل ماتوا من عاقبة هذا العمل فوجدوهم أحياء ولم يمت منهم أحد وبَطُل ما كانوا يظنّون.

وسُرق لواحد من التلاميذ دراهم فقال الشيخ أحمد برّي: أنا أستخرجها. فكتب على قطع من الخبز حروفاً وقال: هذه لقمة الزقّوم[٨] من كان سارقاً وأراد بلعها يختنق. فابتلعها جماعة ولمّا وصلت النوبة إلى السارق اصفرّ لونه وخاف من بلعها وأقرّ ودفع الدراهم.

وكتب رفيقنا الشيخ محمّد دبوق إلى الشيخ أحمد برّي يوماً بهذه الأبيات:

يـا شـيـخـنـا مـسـألـة مـفـيـدَة
لا بَـرِحَـتْ أوقـاتـكـمْ سـعـيـدَهْ
لِمْ مُـنِـعَ الـعَـطْـف عـلـى الـضـمـيـرِ
وهـل هـنـا مـن مـانـع ضـروري[٩]

---

(٨) الزقوم: ثمرة شجرة في جهنم يأكلها أهل النار.

(٩) أضفنا «من» على هذا الشطر لاستقامة الوزن. والظاهر أنها سقطت سهواً.

إنْ لم يعدْ في العطف حرف الجرّ
أرجو الجواب عاجلاً يا بـرّي

وكان معنا رجل من الطلبة هو أكبرهم سنّاً يتعاطى كتابة الحُجُب والهياكل وعنده كتاب مطبوع في مصر اسمه **شمس المعارف الكبرى**[10] لرجل مغربي وفيه الأعاجيب:

منها طاقية الإخفاء، تَذْبَح عدداً من الضفادع الخضر وتسلخ جلودها وتجفّفها في الظلّ ثمّ تصنع منها طاقية (قَلَنْسُوَة) وتكتب عليها حروفاً ذَكَرها ثمّ تلبسها فلا يراك أحد وعلامة ذلك أنّه لا يظهر لك ظلٌّ في الشمس.

ومنها لِطيّ الأرض؛ تصوم أيّاماً وتقرأ ورداً[11] وتعمل وتخرج إلى الصحراء في ليلة مظلمة فيأتيك عبد بيده عصا، فاخطفها منه واذهب فإنّه لا يتبعك فإذا أردت أن تُطْوى لك الأرض فأمسك تلك العصا بيدك وغمّض عينيك وآمشِ وآنوِ المكان الذي تريد فترى نفسك فيه عن قليل.

ومنها رياضة وعمل لأمر من الأمور أراد صاحبنا أن يعمله، وهو أن يصوم ثلاثة أيّام ثمّ يختلي ليلاً في مكان ليس فيه أحد ويعمل أعمالاً تلك الليلة ويقرأ أوراداً فيحصل له مقصوده. فصام ثلاثة ثمّ اختلى ليلاً في مسجد القرية لأنّه لا مكان أخلى منه. وفي المسجد قبر ونعش للجنائز فلما ذهب المصلّون وانقطعت المارّة استوحش فتجلّد، ثمّ زاد استيحاشه فتجلّد، ثمّ خُيّل إليه أن الميت خرج من

(١٠) **شمس المعارف ولطائف العوارف**، رسالة في السحر مشهورة للبوني (ت. ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) وما زالت متداولة إلى يومنا هذا. ولها ثلاث نسخ: صُغرى ووسطى وكبرى.

(١١) الوِرد: الجزء من القرآن يقوم به الإنسان كل ليلة وقد يقال لجزء من دعاء.

القبر وجاء إليه فولّى هارباً وفسد العمل وفاته المطلوب. وأراد مرّة عمل خَتْم[١٢] فصام ثلاثة أيام وبعدها شرع في قراءة أوراد منها «يا قدّوسُ» مئات المرات. وقراءة تلك الأوراد يجب أن تكون ليلاً فغلبه النعاس وهو يقول: «يا قدّوسُ»، فجعل يقول: «يا قدّوم يا قدّوم». ثمّ نام وفسد العمل وبطل المرام. وأمثال هذه المَخْرقات كثيرة رائجة بين الناس.

حُكيَ أن اثنين من شطّار بغداد ضاق بهما الحال فجلسا في مقهى وخلفهما يهوديّ ظهره إليهما فقال أحدهما للآخر: عندي عمل للإخفاء. فقال له الآخر: أخفض صوتك لئلاّ يسمعك أحد. فأصغى إليهما اليهوديّ، فلمّا قاما تبعهما وطلب منهما أن يعلّماه ذلك العمل ويعطيهما ما يشاءان فأبيا وأنكرا ذلك فقال: إنّي سمعت كلامكما. فقال أحدهما للآخر: حيث إنّه سمع كلامنا فلا بأس أن نعلّمه. فذهبا إلى داره وكتبا له أسماء أشياء للتبخير وإنجاز العمل فأحضرها من السوق. ونزلا إلى السرداب وعملا فيه دائرة وقالا لليهودي: إيّاك أن تقترب من هذه الدائرة فإن في القرب منها خطر الموت. ونزعا ثيابهما واتّزرا وجعلا يحرقان البخور ويقرآن ويُعَزِّمان، وأمراه أن يُخرج عياله من الدار إلى السطح خوفاً عليهم من الخطر ثم صنعا له قَلَنْسُوَة من الورق ونقشاها بأنواع الألوان وأمراه بلبسها وقال أحدهما للآخر: هل تراه؟ قال: لا، فأمراه بنزعها فنزعها فقالا: ها هو ذا. ثم أعادا العمل مراراً فكلّما لبسها اختفى عن نظرهما وكلّما نزعها نظراه. فقالا له: قد تمّ العمل فاذهب فإنّه لا يراك أحد. فذهب إلى السوق ومدّ يده إلى بعض البضائع وأراد حمله فانتهره صاحب الدكان فقال: أأنت

(١٢) الخَتْم هنا بمعنى النّذْر.

تراني؟ فسخر منه فعاد إلى البيت فرأى أن الرجلين قد حملا كلّ ما يمكن حمله وذهبا آمنين.

وكان عند الشيخ أحمد برّي كتاب فيه عمل المندل. فأراد يوماً أن يعمله، فأحضر غلاماً صبيح الوجه وبخوراً وفنجاناً فيه زيت ومداداً أسود وكلَّ لوازم المندل وقال للغلام: إذا جاء الخادم فقل له يكنس ويفرش وإذا جاء الملوك فقل لهم كذا. وجعل يقرأ ويُعزِّم[١٣] ويُبخّر ويقول للغلام: هل رأيت شيئاً؟ فيقول: لا. ثمّ يعيد التعزيم والتبخير ويسأله فيقول: لا. وفي أثناء ذلك انقلب الفنجان وأريق الزيت والمداد.

وجاء مرّة إلى عيثا رجل فارسي كان قد تعاطى طلب العلم ولم يتقنه فكان ينشد قول الشاعر:

هي الشمس مسكنها في السماءِ
فعزِّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلا تستطيع إليها الصعودَ
ولا تستطيع إليك النزولا

فيغلط فيه غلطاً إذ يبدل عزاءً بقوله غراء. فاتفق أن نزل مطر كثير وأعقبه نزول ثلج منعنا من الذهاب إلى بلادنا ومنعه من الخروج فبقي عندنا في المدرسة أيّاماً، فسألته يوماً عن الحطب ما اسمه بالفارسية؟ فقال هيزم. فقلت له: والحطب الأخضر؟ فقال: هيمان. وقال يوماً: قرأ أعجميّ ﴿وعصى آدم ربّه﴾[١٤]، ﴿وخرّ موسى صَعِقاً﴾[١٥]، فقال: العصا كان للموسى وما كان للآدم؟ والخرّ

(١٣) عزّم: قرأ الرُّقى.
(١٤) سورة طه ٢٠، الآية ١٢١.
(١٥) سورة الأعراف ٧، الآية ٤٣.

كان للعيسى وما كان للموسى؟ وخر بالفارسية الحمار. وقال يوماً: إنّ كلمات إذا تُلِيَتْ على الحديد لم يتألّم به الجسم وهي «سين سين أول دار بحرور بسرور بكاس كال كاي» وتلاها على إبرة وأدخلها في داخل شدقه وأبقاها مدة وأخرجها من خارجه ولم يخرج منه دم. وفعل ذلك مراراً، وفعل ذلك بعض الطلبة فكان كذلك. والحقيقة أن ذلك الموضع ليس فيه عروق فإذا شُكّت فيه إبرة لم يخرج منه دم إلاّ لخاصيّة في هذه الكلمات. وفطن لذلك الطلبة ففلعوا بدون الوِرد.

وكان عند الشيخ أحمد برّي كتاب أدبيّ تاريخيّ طَبْع أوروبة، وهو كتاب نفيس فيه ذكر حروب العرب وأشعارهم وقصائدهم المشهورة، فقرأته كلّه وعلق بذهني من أشعاره الشيء الكثير وجمعت منه من الأشعار التي يُسْتَشْهَد بها على مسائل من العربية عدداً وافراً، وفيه ذِكْرُ حرب البسوس التي دامت أربعين سنة. والبسوس الناقة التي كانت الحرب بسببها وضُرِب بها المثل فقيل: «أشأم من البسوس». وقيل البسوس اسم صاحبة الناقة وكانت لامرأة نازلة على جسّاس[١٦] وكان لكُليب حميً وبه يضرب المثل[١٧] وكان يجعل فيه كلباً فمن سمع صوته لم يقرب الحمى فيقال: كليبُ وائل. ثمّ غلب عليه اسم كُليب بعدما كان اسمه وائل. وكان هذا الحمى لا يقربه غير إبل كليب وجسّاس. وكان كليب متزوّجاً أخت جسّاس واسمها جليلة، وكانت البسوس ترعى مع إبل جساس فرآها كليب مع إبله فانتظم ضَرْعها، فجاءت الناقة فبركت أمام البيت وضرعها يشخب دماً فلما رأتها قالت:

---

(١٦) جسّاس بن مرّة: أحد أبطال حرب البسوس.

(١٧) «أمنع من حمى كُليب».

ولو أنّني أصبحت في دار مِنْعةٍ
لما ضِيم زيدٌ وهو جار لأبياتي
ولكنّني أصبحت في دار غربةٍ
متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتي

فحَمِيَ جسّاس لذلك وحلف ليقتلنّ بها الفحل الأكبر، فظنَّ كليب أنّه يريد فحلاً له اسمه عَليان. ورأى جسّاس كُليباً فطعنه بالرمح فقتله وطلب أن يسقيه ماءً فقال: عداك شبيث والأحَصّ؛ وهما ماءان. وجاء جسّاس فقال لأبيه من أبيات:

وإنّي قد جَنَيتُ عليكَ حرباً
تغصّ الشيخَ بالماء القراحِ

فلامه أبوه ثم خاف عليه الانكسار فقال:

لئن تكُ قد جنيتَ عليَّ حرباً
فلا وَكِلٌ ولا رَثُّ السلاحِ

وفيه من شعر مُهَلْهِل[١٨] قصائده كلّها منها القصيدة التي يقال إن العرب كانت تغتسل إذا أرادت قراءتها، ومنها القصيدة التي يقول فيها:

كُليبُ لا خيرَ في الدنيا ومن فيها
إنْ أنت خلّيتَها فيمن يخلّيها
كُلَيبُ أيّ فتى عِزٍّ ومكرمةٍ
تحت الصفاة التي يعلوك سافيها

والقصيدة التي يقول فيها:

(١٨) مُهَلْهِل: لقب امرىء القيس عَدِيّ بن ربيعة أحد أبطال حرب البسوس وله في أخيه كليب مراثٍ كثيرة.

نُبِّئتُ أنّ النار بعدك أُضرِمَتْ
واستبّ بعدك يا كُلَيبُ المجلسُ
وتحدّثوا في أمر كلّ عظيمةٍ
لو كنتَ شاهدَهم بها لم يَنبِسوا

وكان فيهم رجل يُسمّى همّام بن مرّة من عقلاء الرجال، فاعتزل الحرب وقال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل. فأرسلها مثلاً. وكان له ابن يُسمّى بُجَيْراً فخرج في طلب إبل له، فقتله مُهَلْهِلٌ وقال: بُؤْ بشِسْع نعل كُلَيْب. فبلغ أباه قتله فقال: نِعْمَ القتيل قتيل أُصْلِح به بين عشيرتين إن كان مُهَلْهِلٌ قتله بأخيه كُلَيب فلا أطلب بدمه. فقيل له: إنّما قتله بشسع نعل كليب. فقال: قد يأتي الحديث عن غير أهله. فلما علم ذلك قال:

قَرِّبا مربطَ النعامةِ منّي
قرّباه وقرّبا سربالي
قرّبا مربط النعامة منّي
واسألاني ولا تطيلا سؤالي
قرّبا مربط النعامة منّي
طال ليلي على الليالي الطوالِ
قرّبا مربط النعامة منّي
لبُجَيرٍ فداه عمّي وخالي
قتلوه بشسع نعل كُليبٍ
إنّ قتل الكريم بالشسع غالي

ولما قُتِل همّام قال فيه مُهَلْهِل:

وهمّام بن مرّة قد تركنا
عليه القشعمان من النسورِ

ومُهَلْهِل لُقِّبَ بذلك لأنه أول من هَلْهَل الشعر.

وكان من جملة الطلبة طالب يسكن في دار جماعة غير البيت الذي يسكن فيه جمهور الطلبة وأنا معهم، فكان يأتي نهاراً إلى البيت الذي نحن فيه فيجلس ناحية يكتب ويقرأ ولا يلتفت إلى ما فيه الآخرون من لعب وبطالة، وهو حسن الخلق هادىء، فكانت تعجبني حاله فأجلس إليه وأتحدّث معه. إلى أن ذهبنا إلى العراق فرأيته قد تغيّر وانقلب عمّا كان عليه. فعلمت أن لطلبة جبل عامل ثلاثة أدوار: الدور الأول في جبل عامل. فقد يكون صالحاً فإذا ذهب الطالب للعراق فقد يزداد صلاحاً وقد يتغيّر إلى غير ما كان عليه، وإذا كان فاسداً ازداد فساداً في الدور الثاني والثالث. الدور الثاني في العراق وهذا يُعْلَمُ حاله ممّا مرَّ في الدور الأول. الدور الثالث بعد الرجوع من العراق فصاحبه إمّا أن يزداد صلاحاً أو فساداً.

وكان معنا في هذه الحجرة لفيف من الناس يجري بينهم أشكال من اللعب واللطائف. فكان للحجرة طاقة على السطح يدخل منها هرّ فيأكل زاد الطلاّب، فكان أحدهم يذهب إلى السطح ويصرخ بصوت كصوت الهررة فيتبادر الجماعة من الطلبة إلى العِصيّ وإلى الطاقة ليسدّوها. ومطرت السماء مرة فتساقط الدلف فبات بعضهم على المكان الخالي منه وبعضهم على «المحْمَل»[١٩] وبعضهم أسفل من «المَحْمَل».

وكان معنا في تلك الحجرة رجل هو أكبر الطلبة سنّاً وأقلّهم عقلاً وأكثرهم جهلاً وأفسدهم أخلاقاً، فكان يحكم على الطلبة إذا أراد

(١٩) الدلف: الماء المتصبّب من السقف وقت المطر. والمحمل: موضع في حائط البيت يوضع فيه فراش النوم بعد لمّه صباحاً.

النوم أن يناموا ويطفئوا السراج ولا يدعهم يكملون مطالعة دروسهم، وإذا أراد أحدهم أن ينام وهو يطالع يحكم عليه أن يبقى ساهراً، ومن الذي يجسر على معارضته وهو إذا عارضه أحد تناوله بالسبّ والشتم القبيح. وإذا رأى أن أحداً منهم يمدحه الناس لحسن صفاته بادر إلى ذمّه. وكان الطلبة يسبحون مرّة في عين تُسمى عين بَطيطة في أيام الربيع، فحكم عليهم أن يخرجوا ومن لم يخرج ألقى ثيابه في العين. فألقى بثياب جماعة منهم فغرقت من جملتها عباءة لم يمكن إخراجها لأن العين بعيدة القعر. واقتضى نظره أن يهجم هو وجماعة من الطلبة على رجل من أهل القرية ففعلوا وأوسعوه وزوجته ضرباً، ثم اقتضى نظره أن يذهب مع الطلبة إلى تبنين يشكون ذلك الرجل المضروب إلى المدير[٢٠]، فقال لهم كاتب المدير: كيف يُعقل أن يكون رجل واحد ينتصر على جماعة كثيري العدد فيضربهم ولا يضربونه؟ وكان السيّد جواد غائباً مع الشيخ موسى شرارة في ساحل صور، فرأى أن يذهب إليهما فتلقّاهما مع الطلبة إلى وادي عاشور[٢١]، فقال له الشيخ موسى: الظاهر أنكم ما تركتم الرجل حتى أمتّموه. ثم إني انتقلت من تلك الحجرة إلى مكان آخر.

وبعد إكمال **شرح القطر** شرعنا في قراءة شرح ابن الناظم على **الألفية** بكل إتقان، وجعلنا نراجع بكل دقة في أثناء ذلك **شرح الشيخ الرضي على كافية ابن الحاجب**[٢٢] الذي هو من أجلّ

(٢٠) مدير الناحية وهي أصغر دائرة إدارية في التنظيم العثماني.

(٢١) وادي عاشور: واد بين بلدتي قانا وحاريص.

(٢٢) جمال الدين بن الحاجب (ت. ٦٤٦هـ/١٢٤٩م) مؤلّف **الكافية في النحو**. والشرح المذكور لرضي الدين الأستراباذي (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) وهو من أشهر شروحها. ولابن الحاجب أيضاً **الشافية في الصرف**.

كتب النحو، ويحوي فلسفة علم النحو واللغة العربية بطرز عجيب لا يوجد في غيره، ونراجع أيضاً عدة من كتب النحو المشهورة **كشرح الجامي**[٢٣]. وأعوزنا كتاب **التصريح**[٢٤] تأليف خالد الأزهري فلم نجده لا شراء ولا عارية حتى وجدنا نسخة مخطوطة عند بعض أقربائنا ضخمة الحجم جداً قد أفنى كثيراً من سطورها الزاج الذي مزج بمدادها، وهم يضنّون بها وهي لا تساوي شيئاً، فاستعرناها بعد جهد شديد، وامتناع من أصحابها حتّى كأنّهم أعارونا جوهرة يتيمة. وذكرنا هذا ليُعْلَم ما قاسيناه من المشاقّ في طلبنا العلم. ثم تهيّأ لنا عارية نسخة مطبوعة فسررنا بها كثيراً. وكنا نحضر غالباً يوم الخميس بعد الظهر من عيثا إلى شقراء ونعود عصر الجمعة. واتفق مرة أن مطرت السماء وتعذّر علينا الذهاب يوم الجمعة، فذهبت الوالدة تفتّش لنا ليلة السبت على **شرح الألفية** لئلا تفوتنا مطالعة الدرس ليلة السبت. فما زالت حتى وجدته وأحضرته إلينا.

وقرأنا، مع **شرح الألفية**، **شرح الجاربردي** في التصريف على شافية[٢٥] ابن الحاجب حتى وصلنا في **شرح الألفية** إلى بحث نِعْمَ وبِئْسَ. وعندها سافر رفيقي الشيخ محمد دبوق إلى العراق للزيارة مع رفيق له راجلين بزيّ الدراويش، ثم عاد. فأكملت في غيابه **شرح الألفية**. ولما عاد راجع معي قراءة ما فاته وكان قد

---

(٢٣) في الأصل الخيامي. وقد نبهنا الأستاذ بسّام الجابي إلى هذا الخطأ المطبعي. والكتاب المقصود هنا هو شرح عبد الرحمن الجامي (ت. ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م) على **كافية ابن الحاجب** وعنوانه: **الفوائد الضيائية**.

(٢٤) **التصريح بمضمون التوضيح** شرح ألفية **ابن مالك** لخالد بن عبد الله الأزهري (ت. ٩٠٥هـ/١٤٩٩م).

(٢٥) في الأصل: «على كافية ابن الحاجب» واللبس هنا واضح. والجاربردي (ت. ٧٤٦هـ/١٣٤٥م) له شرح على **الشافية**.

ودع كتبه حين سافر عند السيد جواد مرتضى شيخنا وصاحب
مدرسة عيثا وفيها **شرح القطر** مجلّداً تجليداً متيناً بجلد سختيان
جديد. وكان الرجل المشار إليه آنفاً أنه أكبر الطلبة سنّاً وأقلّهم عقلاً
وأكثرهم جهلاً وأفسدهم أخلاقاً يدخل إلى دار السيد جواد، وكان
يتعاطى كتابة الحجب والهياكل. فأتى يوماً بذلك الكتاب وقصّ
الجلد منه وجعله جلوداً للحُجُب والهياكل التي كان يكتبها للنساء
والأطفال. وألصق مكانه كاغداً وأبقى السختيان على أطراف
الجلد، ومن ذا الذي يجسر من الطلبة على معارضته أو منعه؟ ثمّ
خاف أن يظهر الأمر فأخفى الكتاب بالكلية والله أعلم ماذا صنع
به. فلما حضر الشيخ محمد من العراق افتقد **شرح القطر** فلم
يجده فأخبرته بما صنع به فلم يزد على إنشاد هذا البيت:

وقد يُهلِك الإنسانَ كثرةُ ماله
كما يُذبح الطاووس من أجل ريشهِ

وحصل ونحن في عيثا عرس في حاريص واتّفق وجودنا هناك فرأينا
العريس راكباً على فرس يطاف به على البيوت لأخذ
«النقوط»[٢٦]، وهو من العادات القديمة التي لم يبق لها أثر اليوم.
ثم شرعنا بعد إكمال **شرح الألفية** في قراءة **مغني اللبيب**، ولما
وصلنا إلى كلمة «أجل» وقع لي تصحيف غريب. فصاحب **المغني**
يقول: «إن أجل تكون تصديقاً للمخبر وإعلاماً للمستخبر ووعداً
للطالب». ثم يقول: «وقيّد المالقيّ الخبر بالمثبت والطلب بغير
النهي». والمالقي عالم منسوب إلى مالقة بفتح اللام، بلدة من بلاد
الأندلس وإليها ينسب المالقي، نوع من الأواني الخزفية في لسان
أهل دمشق، وأهل العراق يسمونه «فرفوري». وقرأت هذه الكلمة

(٢٦) النقوط مفردها النُّقطة وهي ما تُهداه العروس عند الزواج مما يصلح لها من ثياب وغيره.

لما طالعتها «وقَيْداً لِمَا لَقِيَ» بنصب قيداً وتنوينها وكسر اللام من لما، ولقي بصيغة الماضي. وبقيت أفتّش عليها حتّى عرفت صوابها. والتصحيف يقع كثيراً ويوقع في الاشتباه.

قرأ بعض الشيوخ في كتاب الحج: ويُسْتَحَبّ الحجّ لأهل «الجدّة» في كل عام. وظنّها البلد الذي الساحل الحجازيّ، فتحيّر في تفسيرها، وإنما الصواب: لأهل الجَدّة أي الغِنى. وقرأ بعضهم: في عبارة المعالم الحجّيّة. بفتح الحاء، والصواب ضمّها، فلما وصل إلى قوله: وقال الشيخ عَقِيبَ ذلك. قرأها: وقال الشيخ عُقَيِّب، بضم العين وتشديد الياء. وسأل أستاذه: من هو هذا الشيخ عُقَيِّب؟ فقال له: هذا زوج الحَجِّيّة التي مرّ ذكرها. وقرأ بعض طلاب العجم: في المسألة أقوال أسَدُها، بضم الدال مخفّفة. وسأل رفيقه: ما معنى أسَدُها. فقال: معناه أنه أصحّها تشبيهاً بالأسد المفترس. وصحّف صاحب المغني وهو من أئمة النُّحاة بيتاً للفرزدق من جملة أبيات في وصف الذئب يقول فيها:

تَعَشَّ فإن عاهَدْتَني لا تخونُني
نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يا ذِئْبُ يَصْطَحِبانِ

فأنتَ امرؤٌ يا ذِئْبُ والغدرُ كُنْتُما
أُخَيَّيْنِ كانا أُرْضِعا بِلِبانِ

وكُلُّ رفيقَيْ كُلِّ رحلٍ وإنْ هما
تَعاطى القنا قوماهما أخَوانِ

فقرأ: قوماً بالتنوين. وإنما ألِفُها ألف التثنية. فوقع من تأويل البيت في حَيْصَ بَيْص[27].

---

(٢٧) في الأصل: «في حيص وبيص». ووقع في حَيصَ بَيْصَ: أي في اختلاط لا مخرج منه.

وبقينا نقرأ في المغني إلى مبحث «أم» فلما وصلنا إلى قول الشاعر:

أنّى جَزَوْا عامراً سوءاً بفِعْلِهِمِ
أمْ كيف يجزونني السوءى من الحَسَنِ

أمْ كيف ينفع ما تُعْطِي العَلوق به
رئمان أنْفٍ إذا ما ضنَّ باللّبنِ(٢٨)

استعصى علينا الأمر في هذين البيتين ثم نظرت بعد ذلك فلم أتذكّر ما وجه الاستشكال فيهما ورأيت أمرهما واضحاً.

وألّفت حين قراءتي في علم النحو كتاباً في النحو ونظمت أرجوزة في علم التصريف من جملتها:

وبَعْدَه الصرفُ في الكلامِ
كالنحو مثل الملح في الطعامِ

تراهما للعلم أمّاً وأبا
فيا له من ولد قد نُجِبا

وما لحرفٍ أو لشبه الحرفِ
عندَهُمُ من عُلْقةٍ بالصرفِ

ومن جملتها:

واحْكُم لأشياءَ بقلبٍ تُصِبْ
لمَنْعِها الصرفَ ولا مِنْ سَبَبْ

وابتدأت وأنا في عيثا بقول الشعر، فأجبت الشيخ محمّد دبوق عن أبيات عينيّة بأبيات على رويّها وقافيتها موجودة في الرحيق المختوم.

(٢٨) صُريم بن معشر الملقّب بأُفنون التغلبيّ. (ت. ٥٦٤م) أنظر السيوطي، شرح شواهد المغني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، جزآن، الجزء الأول ص ١٤٤ ـ ١٤٦. والمفضّل الضبيّ، المفضليّات، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦ ص ٢٦٣.

ثمّ إن شيخنا السيّد جواد عاد إلى العراق. وخرجت مع رفيقي الشيخ محمّد إلى بلدة أخرى[٢٩] كنّا نظن فيها عِلْماً فخاب الظن.

في بلدة أخرى

ويحقّ لها أن تُسمى بلدة البراغيث كقريتنا شقرا. كنّا نسكن في حجرة فتركناها أيّاماً ثمّ عدنا فدخل الشيخ صالح مَزْيَد ليكنسها، وألقى ثيابه عدا القميص ثم خرج ورجلاه كعنقود السُمّاق.

وشرعنا في هذه البلدة في قراءة عِلْمي البيان والمنطق في **المطوّل وحاشية ملاّ عبد الله الزَنْجاني على تهذيب سعد الدين التفتزاني**[٣٠] وكان ذلك حوالى سنة ١٣٠٠. وكان شيخنا ذا حالة غريبة فهو لا ينظر في عبارة الكتاب ولا يفسّرها. ويشرع في البحث ويذكر مطالب لا نفهم منها ساعة البحث إلاّ خيالات، فإذا أردنا المباحثة نجد أنه لم يعلق بذهننا منها شيء. فنتباحث فيما فهمناه بالمطالعة ومراجعة الحواشي. وكان في الغالب لا يضيع عنّا شيء من المطالب، وكان حسن ظنّنا بالأستاذ يحملنا على الاعتقاد بأنه يأتي بمطالب عالية ليس لنا قابلية فهمها، فنقول له: نحن لا نريد منك إلاّ تفسير عبارة الكتاب ولا نريد فوق هذا. فيقول: قيّدوني كتّفوني أنا لا أستطيع إلاّ هكذا. وقد صدق، وحقّاً إن قدرته على هذه الطريقة كانت من العجائب.

ولما ابتدأنا بقراءة **المطوّل** كان أوّل درس لنا في كلمة «مقدمة» فقط، فلما جئنا للمباحثة وجدنا أنه لم يعلق بذهننا مما قرّره شيء، وبقينا على هذه الحال مدّة لا نستفيد مما يقرّره شيئاً، وإنما فائدتنا

---

(٢٩) المقصود بالبلدة الأخرى مجدل سلم.

(٣٠) **المطوّل في علوم البلاغة**، لسعد الدين التفتزاني (ت. ٧٩٣هـ/ ١٣٨٩م) و**تهذيب المنطق والكلام** للتفتزاني، كتاب في المنطق.

من المطالعة فنفهم أكثر ما نطالعه فإذا استعصى على فهمنا شيء راجعناه في الحواشي وتأمّلنا فيه فنهتدي إليه، وإذا حضرنا الدرس نقوم كما جلسنا ثم نتباحث فيما فهمناه من المطالعة، وإذا بقي شيء لم نفهمه حال المطالعة، فهمناه حال المباحثة. ولم تزل هذه حالنا حتّى وصلنا في الحاشية إلى دليل الافتراض(٣١) فطالعناه فلم نفهمه، فراجعنا الحواشي فلم نفهمه، فأتينا للدرس فلم نفهمه، فجئنا للمباحثة، فلم يتّضح لنا، فطالعناه في الليلة الثانية فكانت كالأولى، فأعدنا الدرس عند الشيخ والمباحثة بلا جدوى. وكان قد سبق لنا الظنّ بأننا لسنا في هذا التدريس على صواب، وأنّه لو كان فاهماً له لفهمناه منه. ودليل الافتراض جعل هذا الظنّ قريباً من اليقين. وكان قد لوّح لنا بذلك بعض الفضلاء فقلت لرفيقي الشيخ محمّد دبوق: أرى أنّنا في هذا التدريس لسنا على صواب، ونريد الانتقال من هذا البلد. فعزمنا على الاستخارة بالقرآن الكريم على الانتقال لبنت جُبيل وفيها الشيخ موسى شرارة المارّ ذكره، وله مدرسة وعنده طلاّب، فتفألت بالقرآن فخرجت الآية: ﴿قال ربِّ آشرح لي صدري ويسّرْ لي أمري واحلُلْ عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعلْ لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي أُشْدُدْ به أزري وأَشْرِكْه في أمري كي نسبّحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنّك كنت بنا بصيرا﴾(٣٢) فذهبنا من فورنا إلى بنت جُبَيْل واستأجرنا فيها مسكناً وكان ذلك حوالي سنة ١٣٠١.

---

(٣١) دليل الافتراض، أحد الأدلة على صحة إنتاج إحدى صور الشكل الرابع في القياس المنطقي. والقياس أربعة أشكال وستّ عشرة صورة مُنتِجة. للشكل الأول، وهو الأبسط ونتائجه بديهية، أربع صور منتجة. أما الشكل الرابع فصوره المنتجة ثمان ونتائجه بعيدة عن البداهة، فهي تحتاج إلى الأدلّة ومنها دليل الافتراض.

(٣٢) سورة طه ٢٠، الآيات ٢٥ ـ ٣٥.

في بنت جبيل

وكان قد جاء إليهما الشيخ موسى شرارة من العراق، ولكن بدون أبّهة ولا فخفخة ولا دعاية إلى الاستقبال وتهيئة الأسباب لإظهار الجلالة والنبالة، كما يجري في هذا الزمان المنحوس. فقد جاءني وأنا في جبل عامل في بعض السنين كتاب، كما جاء غيري مثله، يدعوني مرسله إلى استقبال شخص مُدْرَج في أهل العلم يريد المجيء من مكان قد استوطنه إلى بلده الأصلي يقول فيه: يتحرّك فلان من وطنه الثاني الساعة كذا والدقيقة كذا فَيَصل إلى موضع كذا الساعة كذا والدقيقة كذا ويجري استقباله على الجسر الساعة كذا والدقيقة كذا. وهكذا تُحدّد المنازل والساعات والدقائق للحلّ والترحال كما تُحدَّد أسفار الملوك[٣٣]. أما الشيخ موسى فجاء من العراق إلى دمشق راكباً على بغل المكاري حتى نزل بباب الشيخ محمّد حسين مروّة[٣٤] في دمشق؛ لم تُبثّ الدعايات لاستقباله ولم يشعر به أحد ولم يحضر لاستقباله أحد من أهل البلاد، إلاّ أن يكون بعض ذوي رحمه الأقربين. فلما حضر ورآه الناس وسمعوا أقواله ورأوا أفعاله كان له المقام الأسمى.

الشيخ موسى شرارة وإصلاحاته

سعى الشيخ موسى رحمه الله سعياً حثيثاً في الإصلاحات الدينيّة فأنشأ مدرسة تُدَرَّس فيها علوم العربيّة من النحو والصرف والبيان

---

(٣٣) الظاهر أنه يلمّح إلى عودة السيد عبد الحسين شرف الدين من النجف، وقد رواها بتفاصيلها في مذكّراته، أو عودة السيد محمد علي ابن السيد عبد الحسين شرف الدين. أنظر: **بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين**، الدار الإسلامية، بيروت ١٩٩١، الجزء الثاني ص ١٠٤ ـ ١١١.

(٣٤) محمد حسين مروة (ت. ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) كان يسكن دمشق. أنظر: **الأعيان**، م ٩، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وعلم المنطق وعلمَي الأصول والفِقه. واجتمع فيها عدّة من الطلاّب استفادوا وأفادوا. وأحيا إقامة العزاء لسيّد الشهداء، ورتّب لذلك مجالسَ على طريقة العراق. وسنّ للشعر العاملي طريقة جديدة، وعقد لقراءته المجالس على غرار مجالس العراق وسنَّ لأهل بنت جُبيل عمل الطعام عن روح الميت ثلاثة أيّام، ولم يكن ذلك معهوداً. ومنع النساء عن اتّباع الجنازة. واتّفق موت أحد الوجهاء فعمل أهله طعاماً ودعوا الشيخ ووجوه تلاميذه. فاتّفق أن سمع بعض التلاميذ كلمة استخفاف بهم من أحد الجالسين في سوق البلدة الصغير، تعود إلى ذهابهم للولائم، فامتنعوا من الحضور وغابوا عن الأبصار. وافتقدهم الشيخ وأبى تناول الطعام حتى يحضروا. ففتّش عليهم أصحاب الدعوة فلم يجدوهم. وما زالوا يفتّشون عليهم حتّى وجودهم وتوسّلوا إليهم في الحضور واعتذروا فأبوا أن يحضروا، فما زالوا بهم حتّى حضروا.

وجرى من الذاكرين للعزاء بعض الأمور الموجبة لإعراضه عنهم فطلب إليَّ القراءة في ذلك المجلس فقرأت، وكان يعظ في المجالس ويقرأ في **نهج البلاغة**. فقال لي أن أقرأ بدله في **النهج** ففعلت. وقال لي مرة: كل صفاتك حسنة إلاّ شدّة الحياء. وأنشأ مجالس الفاتحة وقراءة الشعر فيها على طرز العراق وعلّم الأدباء طريقة النقد في الشعر وشجّعني على النظم. ولما توفي الشيخ عبد اللّه نعمة[٣٥] عقد له مجلس الفاتحة ونظم الشعراء في رثائه، وأنا منهم، ونظم هو قصيدة قال من جملتها في حقّ ولده الشيخ حسن:

وذا حَسَنُ الأخلاق من خير دوحة
وخير بطونٍ أنتجته عِقامُها

(٣٥) عبد الله نعمة (١٢١٩هـ/١٨٠٤م، ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)، أنظر: **الأعيان**، م ٨، ص ٦٠ - ٦٢.

وقال إن وصف البطون بالعقام مستحسن؛ ألا ترى إلى قول الشريف الرضيّ «وكانوا نتاجاً للبطون العقائم» وهو اشتباه لم يتفطّن له أحد من الأدباء الجالسين وتفطّنْت أنا له فإن الرضيّ رضي اللّه عنه يقول:

إذا نزلوا بالماحِل استنبتوا الربى
وكانوا نتاجاً للبطون العقائمِ

ومعناه أن البطون العقيمة بسبب المحل والقحط تعود منتجة ببذلهم وجودهم لا أنهم نتجوا من بطون عقائم.

ومن تلك المجالس التي أنشأها، أربعة مجالس أحدها ليلة الجمعة عنده، واثنان يوم الجمعة صباحاً واحد بعد الآخر. وكان يعظ في الأول منهما ويجتمع الطلبة ويتذاكرون في المسائل العلمية ويقرأ في **نهج البلاغة**. وواحد يوم الجمعة عصراً، وكان يسأل الطلبة ليلة الجمعة مسائل في العلوم التي يقرأونها عند غيره من النحو والصرف والبيان والمنطق فيثني على المصيب ويلوم المقصّر. وكان يطلب منّي أن أنوب عنه في السؤال في بعض الليالي فأفعل. وكان يقول للمقصّر: الحقّ في هذا على شيخك، وشيخه حاضر. واتّفق ليلة حضور الرجل الظريف الشيخ محمّد مغنية[٣٦]، فلمّا تكرّر من الشيخ هذا القول التفت إليه فقال: وشيخه حقّه على من؟ فقال: عليكم، لأنها على الأصول تنبت الفروع.

واتّفق أنّ الشخص الذي كان عنده المجلس الثاني يوم الجمعة غضب لأمرٍ ما وأغلق بابه وقت المجلس. وحضر في المجلس الذي يقام عصر الجمعة فجعل الشيخ يسأله عن سبب إغلاقه بابه

(٣٦) محمد بن مهدي مغنيّة. أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ٦٨ ـ ٧٠.

ويستعطفه. فلمته في نفسي على ذلك على مقتضى نزق الشباب. فما كان من الرجل إلاّ أن اعتذر وقال إنه يعود إلى فتح المجلس في الجمعة القادمة. فعلمت حينئذٍ خطإي وإصابته.

وهذه المجالس التي أنشأها لم تكن كاملة من جميع النواحي، لأنّها كانت على غِرار مجالس العراق؛ فكتب له بعض الذاكرين سفينة[٣٧] ضمّنها ما يُقرأ في مجالس العراق وفيها جملة من الأكاذيب وتغييرات للتاريخ الصحيح، إلاّ أنها على ما فيها من عيوب أصلح مما كان قبلها. فقد كان يُقرأ في جبل عامل في عشر المحرّم ليلاً فقط في كتاب يسمى **المجالس**، مخطوط، من تأليف بعض أهل البحرين، فيه عشرة مجالس مطوّلة جداً يجتمع منها كتاب ضخم، والسعادة العظمى لمن يحظى بهذا الكتاب ويملكه. وفي أوله هكذا: «المجلس الأوّل في الليلة الأولى من العشر المحرّم. أيها المؤمنون المجتمعون». ثم يشرع في مقدمة طويلة، ثم يبتدىء في ذكر حديث مكذوب أشبه بالقصص المخترعة في هذا الزمان، أو صحيح لكن زيد عليه أضعافه من الأكاذيب في أثنائه وفي آخره. وهذا الكتاب قد رأيته وأنا صغير السنّ وعلق بذهني منه حديث عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام أنها رأت طيوراً بيضاء تمرّغت بدم الحسين (ع) وجاءت حتّى وقفت على حائط دارها بالمدينة.

ثم يبتدىء بالمجلس الثاني فيقول: «المجلس الثاني في الليلة الثانية من عشر المحرّم. أيها الإخوان المجتمعون». ثم يشرع في مقدمة نظير مقدمة المجلس الأوّل وحديث شبيه بحديثه. وهكذا ينتهي إلى الليلة العاشرة، وهذه المجالس ليس من شرطها ترك التدخين في أثنائها ولا

---

(٣٧) السفينة: اسم شاع لما يُجمع بين دفتي كتاب من أخبار مصرع الحسين.

ترك الكلام أحياناً بل هي أشبه بالقصص التي تُتْلى في المقاهي في هذا العصر. وفي اليوم العاشر تُعطل الأعمال إلى ما بعد الظهر ويُقرأ مقتل أبي مِخْنَف[٣٨] ثم تُزار زيارة عاشوراء ثم يُؤتى بالطعام إلى المساجد وفي الغالب يكون من الهريسة فيأتي كلّ إنسان بقدر استطاعته، فيأكل منه الفقراء ويأكل منه قليلاً الأغنياء للبركة، ويُفَرّق منه على البيوت، كلّ ذلك تَقَرّباً إلى الله تعالى عن روح الشهيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام. أما القرى التي ليس فيها نسخة **المجالس**، فيُقْتَصَر على قراءة المقتل يوم العاشر ويُقرأ منه في ليلتين أو ثلاثٍ قبل ليلة العاشر كلّ ليلة شيء حتى يكون الباقي، إلى يوم العاشر، خاصّاً بالمقتل وحده.

وكانت المجالس التي أنشأها الشيخ موسى على ما فيها من عيوب كما قدّمنا أصلح بكثير مما تقدمها، وكانت مبدأ الإصلاح لمجالس العزاء. ولما ألّفنا **لواعج الأشجان والمجالس السنيّة**[٣٩] وجدنا أن جملةً مما يقرأه الذاكرون في العراق مكذوب لا أصل له، وبعضه قد زيد فيه أشياء لا أصل لها. منها المنسوب إلى حبيب بن عمرو أنه قال لأمير المؤمنين لمّا دخل عليه بعدما ضربه ابن ملجم: «إن البرد لا يزلزل الجبل الأصمّ ولفحة الهجير لا تجفّف البحر الخضمّ والليث يضرى إذا خُدِش والصِلّ يقوى إذا ارتعش». فهذا الكلام المزوّق لم يذكره مؤرّخ ولا محدّث، وإنما هو من تزويق بعض الناس ويقرأه كل ذاكر في العراق، واشتملت عليه سفينة الشيخ موسى شرارة.

(٣٨) أبو مِخنف (ت. ١٦٥هـ/٧٧٤م) من أوائل المؤرخين وناقلي التراث الإسلامي.

(٣٩) **لواعج الأشجان في مقتل الإمام أبي عبد الله الحسين**، طُبع سنة ١٩١١. **المجالس السنيّة**، طُبع سنة ١٩٢٤. وفي مقدمة لهذا الكتاب حرّم محسن الأمين أذى النفس وتشخيص وقائع كربلاء يوم العاشوراء.

وحضرتُ يوماً في النجف مجلساً أقامه الشيخ ميرزا حسين النوري[٤٠] في داره لذكرى مقتل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وهو محدِّث متتبّع وحيد عصره في ذلك، فقرأ المقتل بنفسه ونبّه على هذا الكلام المنسوب إلى حبيب بن عمرو أنه لا أصل له. وسمعت مرة، وأنا في سنّ الطفولة، من يقرأ المقتل يوم العاشر وفيه حديث عن دُرّة الصَّدَف وأنها حضرت يوم العاشر إلى كربلاء لتنصر الحسين عليه السلام في قصة طويلة لم تبقَ في ذاكرتي، وكنت أستنكر ذلك وأكذّبه في نفسي.

ومما غيّره الشيخ موسى شرارة أن جعل قراءة المقتل في مقتل ابن طاووس[٤١]. ولمّا ألّفنا **لواعج الأشجان** صارت قراءة المقتل فيه وصارت قراءة الذاكرين في **المجالس السنيّة** فخُلّصتِ الأحاديث وصَفَتْ من تلك العيوب والأكاذيب. وكان الشيخ موسى يميل إلى أهل العراق كثيراً ويتأنّق في العبارات فإذا ذكر بعض عادتهم قال هذا سَبْك العراق. وافتخر عليه بعض أهل البيوتات يوماً فقال له الشيخ موسى: ما أكثر الدعوى وأقلّ المعنى.

وشرعنا في بنت جبيل في القراءة على السيد نجيب فضل الله الحسنيّ[٤٢] العَيْناثيّ، فأتممنا عنده قراءة **المطول وحاشية ملاّ عبد الله في المنطق**» وقرأنا عليه **شرح الشمسيّة**[٤٣] في المنطق أيضاً

---

(٤٠) ميرزا حسين نوري (ت. ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) كان يدرّس في النجف. أنظر ترجمته في نقباء البشر، لآغا الطهراني، م ٢، ص ٥٤٣ ـ ٥٥٥، دار المرتضى، مشهد، ١٤٠٤هـ. وانظر: **الأعيان**، م ٦، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٤١) ابن طاووس، (٥٨٩هـ/١١٩٣م ـ ٦٧٢هـ/١٢٧٤م). كتاب **اللّهوف على قتلى الطفوف**.

(٤٢) نجيب فضل الله (ت. ١٣٣٦هـ/١٩١٧م) كان تلميذ الشيخ موسى شرارة ومدرّساً في مدرسته قبل ذهابه إلى النجف. أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

(٤٣) يبدو أن الشرح المقصود هنا هو شرح قطب الدين الراري (ت. ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) على **الشمسيّة في القواعد المنطقية**، لنجم الدين الكاتبي (ت. ٦٥٧هـ/١٢٧٦م).

بكلّ دقّة وإتقان. ونراجع مع ذلك **شرح المطالع في المنطق**[٤٤]. ثم ابتدأنا في قراءة **المعالم في الأصول**[٤٥] مع مراجعة **حاشيتي سلطان والشيرواني** عليها وغيرهما بكل إتقان. وكان الفضل في ذلك لمزيد من الجدّ والاجتهاد.

وحاولنا أن نقرأ في الفقه في **الشرائع**[٤٦] فقرأنا درساً أو درسين عند بعض الناس فلم نجد فيه كفاءة فتركناه ولم نجد سواه. وكتبت على **المطوّل** حاشية عند قراءتي إياه وحاشية على **المعالم** وكتاباً في النحو. وكان السيّد نجيب ربّما ذهب يوم الخميس إلى عيناثا ولم يعرّج علينا فكنّا نذهب إلى عيناثا كي لا يفوتنا الدرس.

وفي مدّة وجودي في بنت جبيل سافر والدي إلى العراق بقصد زيارة قبور الأئمة عليهم السلام في العراق وزيارة الرضا عليه السلام[٤٧] في خراسان؛ ولمّا وصل إلى العراق أشار عليه ابن عمه العلاّمة الحافظ السيّد كاظم ابن السيّد أحمد[٤٨] بدفع ما يريد صرفه في زيارة الرضا عليه السلام إلى أولاد أخيه المشغولين بطلب العلم في النجف وقال له: إن صرف ذلك عليهم مع اشتغالهم

---

(٤٤) **مطالع الأنوار في المنطق**، لسراج الدين الأرماوي (ت. ٦٦٤هـ/١٢٨٣م) وقد شرحه قطب الدين الرازي في: **لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار**.

(٤٥) **المعالم في الأصول** هو مقدّمة **معالم الدين وملاذ المجتهدين**، للشيخ حسن الملقّب بصاحب المعالم أو ابن الصاحب الثاني (ت. ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م). وهو كتاب في أصول الفقه.

(٤٦) **شرائع الاسلام في مسائل الحلال والحرام**، للمحقق الحِلّي (ت. ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).

(٤٧) الإمام الرضا وهو الإمام الثامن عند الشيعة الإثني عشرية ومقامه في مشهد في إيران.

(٤٨) كاظم بن أحمد الأمين (١٢٣١هـ/١٨١٦م ـ ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)، أنظر: **الأعيان**، م ٨، ص ٤٥٨ ـ ٤٧٥.

بطلب العلم أفضل من صرفه في سبيل الزيارة. ففعل وعاد من العراق ولم يذهب إلى خراسان.

وطلب وهو في العراق إرسال عشر ليرات عثمانية ذهباً فذهبت مع عمّي السيّد أمين يوم الخميس إلى سوق بنت جبيل وأخذنا من الدراهم ما قيمته عشر ليرات عثمانية واستبدلناه بها. واتّفق أن غَبَنَنا بعضُ من وثقنا به فقال عمّي: الثقة بكلّ أحد عجز. ولم أكن سمعت هذا الحديث فحفظته وأُعجبت بما فيه من حكمة ولأجله ذكرت هذه الحكاية ولكنّني مع ذلك قد أثق بمن لا يوثق به.

ولمّا كان والدي في العراق أوصاه أبناء عمّي بإرسالي إلى النجف. فلمّا عاد إلى الوطن زاره الشيخ موسى شرارة في جملة من زاره، فأخبره والدي بوصية أبناء أخيه له بإرسالي للنجف فلم يشر عليه بذلك وقال له: إن أبناء عمّه ليسوا بأفضلَ منه.

ومن السوانح المستطرفة التي جرت معنا أيّام وجودنا في بنت جبيل أنه جاءني يوماً الشيخ طالب سليمان البيّاضي وقال: انذرْ لي إذا بلّغك اللّه رتبة الاجتهاد أن تكسوَني عباءة. فنذرت له ذلك فقال: اكتب لي صكّاً. فكتبت له، ومضت الأيام والليالي وأُنْسيتُ ذلك، ولما عدت من العراق جاءني فأراني الصكّ فسلّمته العباءة.

ومنها أنه لما كنّا نسكن في بنت جبيل في وسط البلدة كان يسهل علينا الاستقاء من الآبار القريبة منّا فلمّا سكنّا في دار حسن أيوب في آخر البلدة من الشمال، احتجنا إلى من يستقي لنا الماء من عيناثا لأن بها عيناً ماؤها غزير، أما عيون بنت جبيل فينضب ماؤها في الصيف حتّى يقل جداً ولا يكفي لحاجة أهلها، فقيل لنا: إن رجلاً اسمه موسى قُلَيْط حلاّق يسكن قريباً منّا عنده بنت يمكن أن تستقي لكم من عيناثا بمشاهرة، فطلبنا من السيّد نجيب أن يتوسط

الكلام مرغّباً، فقال: قد أخبرتك أنه ليس عندي بنات فلا لزوم لإطالة الكلام. فعدنا نسحب أذيال الخيبة. رحمك اللّه يا موسى قُليْط لست أنسى وقوفنا بين يديك ولا كوقوف الأسرى بين يدي كِسرى أبرويز(٥٠) ونحن نستعطفك وأنت تقسو علينا سامحك اللّه وعفا عنك.

ولما يئسنا من وجود من يستقي لنا الماء ذهب الشيخ محمّد دبوق يوم الخميس(٥١) واشترى جرّة متوسطة وقال: أنا أذهب وأملؤها من العين في عيناثا. فقلت: ذلك إليك. وكانت له عباءة مؤلّفة من عباءتين إحداهما تسمّى بوزيّة لا تفترق عن البساط شيئاً والأخرى سوداء تسمّى صدّيّة قد «أخنى عليها الذي أخنى على لبدِ»(٥٢) وقد خاط إحداهما فوق الأخرى فصارتا عباءة واحدة فكان يفترشها على الأرض، ويجلس عليها عند المباحثة، وهي لحافه إذا نام، ويلبسها إذا خرج وإذا جلس أمام الشيخ في الدرس، وهي للجمعة والجماعة. وعنده مخدّة زرقاء ينام عليها وفيها يقول شعراً:

وربّ مـــخـــدّة زرقـــاءَ أضـــحـــى
لـــهـــا حَـــشْـــوٌ يـــفـــوق الـــشـــوك لـــينا
جـعـلـت رباطـهـا «الـبـابـيـر»(٥٣) كـيـمـا
تـــزيـــد مـــلاحـــة وتـــقـــلّ شِـــينا

---

(٥٠) من السلالة الساسانية (٥٩٠م - ٦٢٠م).

(٥١) إشارة إلى سوق الخميس في بنت جبيل.

(٥٢) الشطر الثاني من بيت للنابغة الذبياني (ت. نحو ٦٠٤م) وأوله: «أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا»، ولبد هو النسر السابع من نسور لقمان الذي عاش مقدار أعمار سبعة نسور.

(٥٣) البابير: أغصان نبات البَرْدِيّ وهي طويلة كالقصب لكنها ليّنة تُطوى. وكانت تُستعمل في صناعة الحُصُر وما شاكلها، ويؤتى بها من منطقة الحولة في فلسطين.

لنا في هذا الأمر عند والد البنت باعتبار أنه من عيناثا القريبة من بنت جبيل ولأهلها معرفة به وهو سيد شريف فاضل من عائلة علمية فوساطته قريبة من النجاح. فذهبنا نمشي معه حتّى ورد منزل المذكور، وهو شيخ قد وخطه الشيب فوجدناه متّكئاً على الأرض أمام حجرته الضيّقة التي بابها على الطريق وليس لها دار وتسمى في عرف تلك البلاد «خِشّة»[٤٩]. فسلّمنا عليه ولا بدّ أن يكون ردّ علينا السلام، إما أنّه جلس بعدما كان متّكئاً أو قام قائماً فلا أتذكّره، وغالب ظنّي أنه لم يفعل. فوقف السيّد، ونحن وقوف إلى جانبه وبدأ يخاطبه بلسانه الذلق وعبارته البليغة الفصيحة، وافتتح الكلام بالثناء على الرجل فقال: يا شيخ موسى، أنت والحمد للّه من أهل الشهامة والغيرة والمروءة ومن مُحبّي الخير لا سيّما معونة طلاّب العلم. وأخذ يثني عليه بمثل هذه العبارات حتّى لم يبق في القوس مَنْزَع، والسيّد أديب شاعر إذا أخذ في الخطابة أجاد، والمطلب وإن كان تافها وهو طلب بنت موسى قُلَيْط الحلاّق لتُحضر كل يوم جرة من الماء بأجرتها، إلاّ أن ذلك لمّا كان يتعلّق بطلاّب العلم، ولا سيّما أنهم تلاميذ السيّد، لزم عليه أن يهتم به غاية الاهتمام. ولما فرغ السيّد من الثناء على الرجل قال له: ونحن نريد منك البنت أن تستقي كلّ يوم جرّة من الماء بأجرتها لهؤلاء الجماعة طلبة العلم الذين من أعانهم ولو بمَدّة قلم كان له على اللّه الجنة. وأطال السيّد في الترغيب حتّى لم يدع شاردة ولا واردة. فلما فرغ من خطابه أجابه الرجل بجواب مختصر فقال: أنظر ما أنا بطبلٍ حتّى تنفخني، ليس عندي بنات لجلب الماء. فلم يستحسن السيّد أن يقطع الكلام معه لعلّه يجيب إلى ما سُئِلَ منه فعاوده

(٤٩) الخِشّة: بيت صغير رثّ.

وهذا منتهى الزهد والاستهانة بالدنيا، يفعل ذلك بدون كلفة وبكل سهولة وطيب نفس أمام جميع الخلق. فوضع العباءة على كتفه والجرّة فوقها وأمسكها بإحدى عروتيها وتوجّه على اسم اللّه إلى عيناثا، والمسافة نحو ربع ساعة، فوجد على العين ثُلّة من النساء مجتمعات للاستقاء، والنساء رقيقات القلوب بالطبع لا سيما أنهنَّ رأين طالب علم ذا لحية سوداء وعمامة بيضاء جاء بجرّته من بنت جبيل إلى عيناثا ليحمل بها الماء، وما دعاه إلى ذلك إلاّ الضرورة. منظر يرقّ له الجلمود، فأخذتهنَّ الرّقة، ولم يكن عندهن قساوة موسى قُلَيْط فملأت إحداهنَّ له الجرّة برفع الماء بالسطل من العين ووضعه في الجرّة، وهو لا يخلو من مشقّة، فشكرها الشيخ على ذلك وتناول الجرّة بإحدى عروتيها ليضعها على كتفه فانفلقت فلْقَتيْن. والعادة أن تُحْمَل الجرّة بكلتا عروتيها. فحمل نصفها بيد وأتى. وحينئذٍ لم يبقَ من حيلة إلاّ عرضُ الأمر على المرجع الأعلى الشيخ موسى. فأخبرناه بذلك فقال: خذوا من بئر الجامع. فاشترينا جرّة وحملها الشيخ محمد إلى الجامع عند العصر في وقت اجتماع نساء آل البزّي على البئر للاستقاء، فطلب من إحداهن أن تملأها له فأجابت وملأتها. فطلب منها نقلها إلى المنزل فقالت له: يا روحي[٥٤] أنا تركت عدسي على النار وأريد أن أطبخ لأولادي. وحملت جرّتها وانصرفت. وطلب إلى الثانية فقالت: تركت ولدي يبكي وأريد أن أذهب. وإلى الثالثة فاعتذرت بما يشبه أعذار رفيقاتها، وهكذا حتّى بقيت واحدة فاعتذرت وحملت جرّتها لتنصرف. فلمّا رأى ذلك الشيخ محمّد وضع العباءة الجليلة المقدم ذكرها على عاتقه وحمل الجرّة ووضعها فوقها، لكنّه تناول الجرّة

(٥٤) عبارة للردّ تحبّباً سلباً أو إيجاباً.

هذه المرّة بكلتا عروتيها وعلّمته الجرّة المكسورة في عيناثا كيف يجب أن يتناول الجرّة المملوءة. وكان الشيخ موسى والحاج سليمان البزّي جالسين قريباً من ذلك الموضع، فأشار الشيخ موسى إلى جليسه أن يأمر من يحمل الجرّة عن الشيخ وكانت المرأة الأخيرة قد وصلت إلى باب دار المسجد فصاح فيها الحاجّ: ويلك احملي الجرّة عن الشيخ. فوضعت جرّتها وأخذت الجرّة من الشيخ وحملتها إلى المنزل راغمة، وأمرها أن تحملها كلّ يوم فكانت تفعل كذلك، ووقع البلاء عليها وحدها. وفِعْل الشيخ محمّد هذا الذي كان يفعله بدون مبالاة يدلّ على زِهدٍ عظيم وخلقٍ كريم وطبع مستقيم. وكانت عادته في بنت جبيل وغيرها إذا التقى بامرأة في الطريق أن يقف ويدير وجهه إلى الحائط حتّى تتجاوز المرأة عنه مع أن النساء هناك، وإن كنّ سافرات، إلاّ أنّه لا يبين منهن إلاّ الوجه الوضوئي.

وكنّا نقرأ عند السيد نجيب في بيت رجل يسمى محمود أيوب وعنده أم تشبه أم الحِلِّيس[٥٥] قد تجاوزت السبعين. وكانت تخبز يوماً في زاوية البيت ونحن جلوس أمام شيخنا وهي على يميننا فرأيت الشيخ محمّد يتلوّى ويتضوّر لوجودها عن يمينه فاضطررنا لجعلها خلف ظهره حتى يسكن. والنظر إليها إن لم يوجب القيء فهو يوجب الإشراف عليه.

ثمّ إن الشيخ محمّد المذكور طُلِبَ إلى الخدمة العسكريّة في الرديف[٥٦] وأُخِذَ إلى سالونيك وجرت بيني وبينه مراسلات شعريّة مذكورة في **الرحيق المختوم** وأسف الشيخ موسى لذلك كثيراً وكان يقول هذا الرجل ذهب مهاونة.

---

(٥٥) أمّ الحِلِّيس: الحمارة لِما يوضع على ظهرها تحت السرج.

(٥٦) الرديف: الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش العثماني.

ومن السوانح التي جرت معنا في بنت جبيل أننا كنّا نسكن في دار غربيّ الجامع الكبير وفيها بيوت كثيرة كلّ واحد منها ملك لشخص وتُسمى تلك الدار بيت إبليس، وهذا الاسم كان لها قبل أن نسكنها. وهَبْ أن فينا إبليساً أو أبالسة فلسنا نحن السبب في تسميتها بذلك ولست أدري ما سبب تسميتها بذلك. وكان فيها جيران لنا لصقاء ليس بيننا وبينهم إلاّ كواير[٥٧] لوضع الحبوب والدقيق لا تصل إلى السقف ولا تمنع سماع الصوت. فاتّفق ليلة من الليالي أن أرادوا جرش البرغل فجمعوا لذلك البنات الشابّات حسب العادة. وشرعن في الجرش وفي الأغاني المعروفة عندهن فَمَنَعْنا بذلك عن المطالعة فَنَهيناهنَّ فلم ينتهين لأنهنّ إنما ينشطنَ للعمل بسبب تلك الأغاني فإذا تركنها فترنَ عن العمل. ويبقينَ كذلك إلى نحوٍ من نصف الليل، فتُقدِّم لهن صاحبة البيت سليقَ الحنطة مع الدبس فيأكلن ثم ينصرفنَ إلى بيوتهن مشكورات مدعو لهن بعافية الأبدان من صاحبة البيت ومن يؤول إليها من بناتها وذوات قرابتها. ولم يزل الجدال بيننا وبينهن قائماً مدة طويلة بدون جدوى. فأشار جارنا الآخر وهو إسكاف، وعنده حمار قد خزن له تِبناً، أن نشعل النار في التِّبن ليصل الدخان إليهن فيضطرّهن إلى السكوت. فأتى بكميّة من التبن إلى محلّ سُكنانا وأشعل فيه النار فتصاعد الدخان وأصابنا منه أضعاف ما أصابهنَّ قبل أن يصيبهنَّ منه شيء، ومع ذلك تغلّبنَ علينا ولم يتركنَ ما كنَّ فيه. وكان هذا من الأعمال الصبيانيّة التي كان الأولى بنا تركها والصبر على ما حصل.

ومن السوانح أنّا كنّا نسكن في مسكن قريب من الحوّارة، وهي مجمع للمياه تُجمع في الشتاء لِيُنْتَفَع بها في الصيف، وبقربها

(٥٧) الكواير، مفردها كُوارة وهي كُوّة في الجدار توضع فيها المؤونة من الحبوب.

الجبّانة. فخرجتُ يوماً والفصل شتاء لأتوضّأ لصلاة الصبح، فشاهدت رجلاً مُوَسْوَساً في الطهارة يصبّ الماء على يديه ورجليه وينتقل من قبر إلى قبر ويعيد صبّ الماء وقد صار جلد يديه ورجليه كأنّما صُبغَ بالنيل لشدّة البرد. فتوضّأْتُ وذهبت إلى المنزل وصلّيت ثم عدت لأنظر ما انتهى إليه أمره، فوجدته على حاله الأولى يصبّ الماء وينتقل من قبر إلى قبر فعجبت من ذلك. ولم يزل كذلك حتى طلعت الشمس وفاتته الصلاة. وهو رجل عاقل متديّن ليس فيه ما يُعاب إلاّ هذا الوِسْواس الذي اتبع فيه أمر الشيطان.

وفاة الشيخ موسى شرارة

وبقينا في بنت جبيل إلى سنة ١٣٠٤ وقد وصلنا في **المعالم** إلى مبحث الاستصحاب[٥٨]. وفي شعبان توفي الشيخ موسى بمرض السل الذي كان متمكّناً فيه من العراق. ورثيتُه بقصيدة مذكورة في **الرحيق المختوم**. وتفرّقت الطلبة أيدي سبا، وذهب كلّ منهم إلى بلده على العادة المتّبعة في جبل عامل، أنّ عُمْر المدرسة ينتهي بعُمْر صاحبها وربما ماتت في حياته. وذهبت أنا إلى بعض العلماء الذين أتوا من العراق بغية أن أُتمّ عنده ما بقي من **المعالم** وأشرَعَ في غيرها، فوجدت أن غاية ما يقدر عليه فَهْم ما تحت اللفظ من العبارة الذي لا يصعب عليَّ فهمه بل ربما كنت أفهمُه أجود مما يفهمه. وطلبت منه أن يذكر لي ما تنطوي عليه **حاشيتا سلطان والشيرواني**[٥٩] فلم يكن ذلك باستطاعته فوجدت أن بقائي عنده

---

(٥٨) الاستصحاب: استمرار وضع قانونيّ ما لم يثبت بطلانه.

(٥٩) حاشيتا سلطان العلماء والشيرواني على الروضة البهية في شرح اللُّمعة الدمشقية لزين الدين بن علي الشهيد الثاني. و**اللُّمعة الدمشقية** كتاب في الفقه لمحمد المكيّ الشهيد الأول.

نوع من العبث فتركته ولم تكن نفسي تميل إلى معاشرة العوام وكنت أقضي أوقاتي في التدريس والمطالعة والعزلة عن الناس ونفسي تتوق إلى الهجرة للعراق فلا أستطيع ذلك.

الطلب للعسكرية أولاً

وفي هذه الأثناء طُلِبتُ إلى العسكرية فاقتضى الحال السفر، فسافرت إلى بلاد بعلبك مجتازاً بالبقاع، ومنها إلى بلاد حمص حتى انتهينا إلى قرية تُسمى الغُور بضم الغين تبعد عن حمص إلى جهة الغرب أربع ساعات. ثم عدنا إلى الوطن ثم توفّيت الوالدة ثم أُصيب الوالد بنزول الماء على عينيه فكفّ بصره، ولي شقيقتان لا كافل لهما غيري مع ضيق ذات اليد، فيئست من طلب العلم لانحصاره في الذهاب للعراق وهو غير ممكن، واضطررت إلى تعاطي بعض الأمور الدنيوية التي لم يسبق لي تعاطيها.

في الجولان

فذهبت إلى الجولان مرّتين لأنه كان لنا شريك على فرس أصيلة فبعته النصف الباقي لنا وأخذت بثمنه بقراً إناثاً وذكوراً. والعادة عندهم أن ثمن البقرة الفتيّة خمسمائة قرش. والثور الفتيّ ويسمى عالولاً ألف قرش. ثم عدت وتحتي فرس دهماء رفلاء هي لخالي وعليها خرجٌ فيه خروف وعلبة سمن. فوصلت إلى نهر وأردت أن أعبر بها النهر، وبأسرع من البرق وجدت نفسي فوقها في الجانب الآخر بغير انزعاج. والخيل الدهم الرفل معروفة بالقوة والنشاط. نذكر هذا وأشباهه مستميحين العذر ممّن يقرأونه، فإن الحديث شجون ولعلّه يكون من باب الإحماض(٦٠).

(٦٠) الإحماض: الإفاضة في ما يؤنس من الحديث والانتقال من الجدّ إلى الهزل.

ومن شجون الحديث أنه في إحدى سفراتي إلى الجولان اضطررت إلى المبيت في الحولة في بيت من الشعر، ويسمّونه رَبْعَة، ومعي رجل من أهل مَيْس وبدويّ من عرب الجولان. ووجدنا في الربْعَة بدوياً ضيفاً يقولون إنه شاعر وهو ينتاب الأماكن يطلب برّ الناس ومعه فرس، فأخذوا عَليقَة فرسي وعَليقَة فرسه وأتوا بهما مملوءتين فرفعت العليقة بيدي فوجدتها ثقيلة فمددت يدي فوجدت شعيراً. وبعد مدة قليلة رأيت الفرس تركتِ الأكل منها. فإذا شَلَب، وهو قشور الأرز العليا، فوقه قليل من الشعير، فقلت لمن معي: اشترِ لها شعيراً. أما فرس البدويّ فهي معتادة أكل الشلب فأكلته كلَّه. وجيء بالعشاء فإذا هو بربورة ويسير من اللبن فقلت لهم: دعوا لي هذا اللبن اليسير وأنتم في حلّ من البربورة. وهي ذُرَة بيضاء تُطْبَخ بالمخيض. فجيء بها في باطيّة[٦١] كبيرة مملوءة وصاحب البيت لم يحضر لا أولاً ولا آخراً، ممّا دلَّ على خِسّة طبعه، فأكلوا ما فيها كله مع الخبز وصاحوا بأهل البيت ليأتوا بغيرها فجاؤوهم بباطيّة مملوءة فأكلوا منها ما استطاعوا وجهدوا في إكمالها فلم يستطيعوا، فحفروا في جانب البيت وأفرغوا ما بقيَ في الحفرة حَنَقاً على صاحب البيت. ونهيتهم فلم ينتهوا.

وضِفْت مرة شريكنا على الفرس فذبح لي شاة وبتّ أنا وإياه وصاحبة بيته في بيت واحد من الشعر. وكان معي في إحدى السفرات بدويّ ومعنا عالول فهرب فلحقه ففاته فجعل يسبّ الذي أنبت[٦٢] فيه الشعر تصديقاً لقوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾[٦٣].

(٦١) الباطيّة: إناء من الزجاج.

(٦٢) في الأصل: «الذي نبت فيه الشعر».

(٦٣) سورة التوبة، الآية ٩٧.

في الخيط

وشُرق لنا مرة ثور فاضطررت إلى التفتيش عليه فذهبت إلى مارون الراس، فقال لي بعض أهلها: أنا رأيته اليوم على عين البيضاء. فذهب معي ثلاثة من أهل مارون، اثنان ذهبا لأجلي خاصة وواحد كان له شغل، جزاهم الله خير الجزاء، فمررنا في قرية دَيْشوم وأهلها مغاربة، فلم نرَ امرأة قطّ إلاّ عجوزاً. ووجدنا الرجال تستقي الماء من العين وتحمله في الجرار على عواتقها وهذه عادتهم في صون النساء. ثم هبطنا وادي عوبا وهو وادٍ فيه ماء جار وعليه رحى. ثم خرجنا منه إلى سهل في آخره عين البيضا ومعنا الفلاّح، فذهب ورأى الثور بين البقر وعرف رفقائي عند من هو. ثم صعدنا في عقبة من أرض الخيط حتى انتهينا إلى بيت من الشعر فيه رجل كهل يقرأ القرآن وذلك في شهر رمضان وقد جيء إليه ببدويّ من عرب تلك الجهات فوبّخه وتناوله ضرباً بعصا غليظة في يده فهرب فحذفه بالعصا[٦٤] فوقعت بين أكتافه وولّى هارباً. وكان الذي عنده الثور هناك، فقالوا له: نحن ضيوفك. فقام معنا وركبنا مصعّدين حتى انتهينا إلى الظهر، فإذا سربٌ من بيوت الشعر ممتدّ من الجنوب إلى الشمال، ولم نرَ خارجه امرأة. فانتهينا إلى آخر بيت من الجنوب فنزلنا عن الخيل. وابتدر أحد الرفاق فعقد طرف منديل المغربي الذي على رأسه، وهي عند العرب علامة أن له عنده حاجة يلزمه قضاؤها. وغربت الشمس فجاؤوا بالفطور مغربيّة وخبز على الطابون[٦٥]. وطلبت الماء لأتوضّأ فقال لي صاحب البيت: تريد الوضوء فقط أم تريد معه قضاء الحاجة؟ فقلت: بل أريد الوضوء

(٦٤) حذفه بالعصا: ضربه ورماه.

(٦٥) الطابون: حفرة فيها نار.

فقط. فقال: توضّأ هنا داخل البيت. فتوضّأت وصلّيت. وسألت رفيقي عن معنى ذلك فقال: هذا محافظة على ستر النساء فإن كنت تريد الوضوء فقط فيمكنك أن تتوضّأ داخل البيت ولا مقتضى للخروج لئلاّ تكون امرأة خارج البيوت فتراها، أما إن كنت تريد قضاء الحاجة فلا مناص من الخروج فيحتاطون أن لا تكون امرأة خارج البيوت. ثم طلبوا مني ريالاً مجيدياً ليدفعوه إلى الراعي، لم يكلّفوني غيره، وكنت أحتاج لولاهم إلى عدد من الليرات الذهبية لو أمكن لي الحصول على الثور. فلا أزال أشكرهم وأسأل منه تعالى حسن جزائهم. وفي الصباح رجع معي أحدهم ومررنا على الراعي فأخذنا الثور وعدنا.

الطلب للعسكرية ثانياً

ثم طُلبتُ إلى العسكرية بعد الطلب الأول، ولم تكن طَلَبة العلم في بلادنا معفاة، فأشار بعض الناس بعمل مضبطة وتقديمها إلى الحكومة فلم تُجْدِ شيئاً. ولعل من أخذها، وهو من أهل بلادنا، لم يقدّمها لأنه غضب من كونه لم يبق في الصدر مكان لإمضائه. وضاق الخناق بأهل العلم من جرّاء ذلك وانقطعوا إلى اللّه بعدما كان انقطاعهم إلى الخلق، فهيّأ اللّه لهم الشيخ أبا الخير الخطيب الدمشقيّ قاضي صور، فأشار بأن تُعَيَّن مدرسة في عيثا الزطّ تُسمى المدرسة الحيدريّة باسم رئيسها السيّد حيدر مرتضى(٦٦) ويُعْمَل معروضٌ يُقَدّم إلى المشيريّة(٦٧) بدمشق بطلب اعتبارها مدرسة

(٦٦) افتتح حيدر مرتضى (ت. ١٣٣٦هـ/ ١٨ ـ ١٩١٧م) هذه المدرسة بعد عودته من النجف. أنظر أغابوزك الطهراني، نقباء البشر، م ٢، ص ٦٨٤. والأعيان، م ٦، ص ٢٦٦.

(٦٧) المشيريّة في النظام العثماني: الحاكمية العسكرية، والمشير: الحاكم العسكري.

رسميّة يُقبل طلاّبها في الامتحان، فعمل المعروض بنفسه بأسماء الطلبة المطلوبين وكتبه بخطّه. وكنت غائباً في شقراء فقال بعض الطلبة الحاضرين: لا تكتبوا اسمه لأنه غائب. فقال له آخر: إن لم تكتبوا اسمه لا يتمّ أمر هذا المعروض. فكتبوا اسمي. فأخذ المعروض الشيخ جواد مروّة والشيخ عبد المطلب مروّة. رجلان صالحان لا حول لهما ولا طول. وركب كلّ منهما أتانه وأخذا معهما من النفقة ما لا يتجاوز ثلاثة[٦٨] مجيديات لكلّ واحد، وسارا على اسم الله وبركاته إلى دمشق. وقدّما المعروض إلى المشير واسمه رجب باشا، وهو رجل حازم منصف لا تعصّب عنده، فقال لهما: يحقّقون ويدقّقون فإن كان ذلك كذلك فنَعَمْ وإلاّ فمحال. فعاد إلى جبل عامل فأخبرا بذلك. وطالت المدّة فجعل الناس يهزأون منهما فبعض يقول: لم يصلا إلى دمشق. وبعض يقول: مثل هذين نريد أن نقضي بهما المهمّات. والحاصل كلّ أحد يجيء بعبارة من عبارات الهزء وهما يحلفان: لقد جرى معنا ما قلناه بدون زيادة ولا نقصان. وكانا صادقين في قولهما فصدر الأمر من المشير إلى الملازم الأول في صيدا أن يحضر إلى عيثا ويرى المدرسة الحيدريّة ألَها حقيقة أم لا. وكان من توفيقه تعالى وثمرة التوكّل عليه أن كان هذا الملازم من خيرة الرجال، ولو كان من أقرب الناس إلينا وكنّا من أعزّهم عليه لما فعل خيراً مما فعل. فاكترى برذوناً من صيدا وامتطاه وجاء إلى عيثا فوصلنا عند الغروب فوجد السيّد حيدر يصلّي جماعة في حجرة خارج داره. فنزل عن برذونه وأبى أن يدخل حتى يُتمّ السيّد حيدر صلاته. فجلس خارجاً وانتظر حتى فرغوا من الصلاة فدخل وسأل عن

(٦٨) باعتبار أن مفردها مجيديّ وليس مجيديّة.

المدرسة فقيل له: هي هذه. فقال: أين الطلبة؟ فقالوا: متفرّقون بسبب طلب الحكومة لهم وتشديدها عليهم. وأرسلوا فأحضروا مَنْ أمْكَن حضورهم وحضروا معهم بعض المعمّمين من غيرهم تكثيراً للسواد. فكتب إلى المشيريّة بأنّني حضرت إلى المدرسة فوجدتها مدرسة معمورة ووجدت الطلبة المطلوبين جميعاً فيها. ولم يقبل أن يأخذ من المال شيئاً. فحينئذٍ صدر أمر المشيريّة باعتبار المدرسة مدرسة رسميّة، وأن الطلبة الذين فيها مقبولون في الامتحان المطلوبون منهم وغير المطلوبين. وكان ذلك فتحاً جديداً في جبل عامل أن تُقبل طَلَبته في الامتحانات الرسميّة ولم يكن ذلك سابقاً. وبقي هذا إلى زوال حكم الدولة العثمانية.

وكان من ثمرات التوكل على الله تعالى وتسليم الأمر إليه أمور خارقة للعادة:

الأول ما أشار به الشيخ أبو الخير الخطيب وهو رجل دمشقيّ لا تربطنا به علاقة وإنّما عمل ما عمل لوجهه تعالى. وكان وجوه أهل بلادنا إذا جئناهم لأمر من هذه الأمور ينفرون ويجيبوننا بما تشمئزّ منه النفوس، وهم لا حولَ لهم ولا قوّة ولا طول ولا معرفة. وكلّهم جهلاء، وبعضهم قد يفسدون الأمر لأن فلاناً قدّم اسمه في المعروض على فلان.

الثاني وجود المشير رجب باشا الذي كان من صفاته ما سمعت.

الثالث صدور الأمر إلى الملازم الأول في صيدا أن يتولى تحقيق هذه القضية، ولا يمكن أن يوجد في الدنيا من يعمل فيها بإخلاص كما عمله معنا.

ومن الغريب أنه يوجد دائرتان للرديف في صيدا ليس فيهما مخلص غير هذا الرجل، فضلاً عن أنّه يوجد أحسن منه أو مثله أو

أقل بدرجات. وكان ذلك ثمرة الانقطاع إليه تعالى والتوكّل عليه. كما أن تعويلنا على الخَلْق في أول الأمر كانت ثمرته إيكالنا إليهم فتجهّمونا وعدنا بالخيبة.

وشدّدت الحكومة علينا بالطلب قبل مجيء أمر المشيريّة فطُلبنا أن نحضر إلى الخيام للنظر في أمرنا ومعنا أحد أبناء عمّنا والشيخ موسى مروّة بدلاً عن أخيه الشيخ محمّد حسن مروّة، فقال لهما الحاج إبراهيم عبد اللّه: إرجعا من حيث جئتما. وحضر في اليوم الثاني الموكّل بطلبنا فأنكر الحاج إبراهيم أن نكون جئنا للخيام وفعل معنا ما استحق به جزيل الشكر جزاه اللّه عنّا خيراً. ولم تطل المدّة كثيراً حتّى جاءتنا البشارة بصدور الأمر بقبولنا في الامتحان.

في دار الحاج حسن عُسيران

فلما جاء وقت الامتحان حضرنا إلى صيدا ونزلنا في دار الحاج حسن عُسيران مدّة إقامتنا هناك. وكانت داره مُعدّة لنزول كلّ غريب. وفيها مكانان أحدهما لنزول الفلاحين والآخر لنزول العلماء والوجهاء والأشراف. وكان يقريهم جميعاً أيّام كانت حالته المالية متّسعة. فلمّا ضاقت كان يقتصر في القِرى على بعض الطبقات العالية. وكان يدعونا نحن الطلبة إلى تناول الطعام على مائدته أحياناً، وكان من حديثه أنّ أهل جبل عامل يوصون على صلاة وصيام فهلاّ أوصوا للطلبة في النجف فذلك أفضل وأجدى.

وكان في صيدا بيكباشي تركي اسمه محيي الدين، شديد التعصب على طلبة العلم. فكتب معنا إلى بيروت أن هؤلاء ليسوا بطلبة علم وأنهم زرّاعون صنعتهم الحرث والحصاد. وأرسل معنا دَرَكيّاً كالذين يُساقون للخدمة العسكرية. فلمّا وصلنا بيروت

أخَذَنا للقشلة[٦٩] العسكرية فأرجعوه إلى دائرة الرديف فدخلنا على «ميرالاي»[٧٠] يبدو من كلامه أنه دمشقيّ ذو لحية شقراء قد وخطّها الشيب، ذو إنصاف ومعدلة. فقال لي: أنتم طلبة. قلت: نعم. قال: ومن أين تعيشون؟ قلت: إن اللّه تعالى رازق جميع العباد متكفّل برزقنا، ومع ذلك لنا أهل ينفقون علينا. فقال لي: إن لباسك لباس تجّار. وكنت لابساً عباءة عراقيّة مخيطة حساوي[٧١] وكان الفصل شتاء فقلت: إن العلم ليس باللباس وهذه العباءة لبستها في الطريق للوقاية من البرد، وسيصير الامتحان قريباً وتحضر فيه فتعلم أنّنا طلبة أم لا. فقال: أتدري ما كتب في حقّكم محيي الدين؟ إنه كتب كذا وكذا ونحن قد كتبنا له تكديراً لأنّنا علمنا أنكم طلبة حقيقيّون بموجب الأمر الوارد من المشيريّة. وأمر من يقرأ كتاب المشيريّة ففهمنا مضمونه وإن كان بالتركيّة وهو، أن المدرسة الحيدريّة مدرسة معترف بها وطلاّبها مقبولون في الامتحان، وهؤلاء من طلاّبها. فاذهبوا في حفظ اللّه وأخبرونا عن منزلكم لندعوكم عند الامتحان. فذهبنا إلى المنزل، واشتغلنا بالمذاكرة والمباحثة ليلاً ونهاراً سوى وقت الصلاة والأكل. فكنّا نصلّي الصبح ونشتغل بالمذاكرة والمباحثة إلى الظهر فنتغدّى ونصلّي الظهرين، ثمّ نشتغل بذلك إلى المغرب فنصلي العشاءين ونتعشى ونشتغل بذلك إلى أن يغلبنا النعاس وذلك نحو الساعة الرابعة[٧٢]. ثمّ ننام وهكذا. وكان صدى أصواتنا يصل إلى السوق، حتّى أن

(٦٩) القشلة: الثكنة.

(٧٠) ميرالاي: قائد فرقة في الجيش.

(٧١) خياطة متقنة للأغنياء.

(٧٢) حساب الوقت هنا يتمّ بمقتضى الساعة الزواليّة أو الغروبيّة حيث يبدأ اليوم الآخر بعد غروب الشمس.

الشرطة جاءت يوماً ظانّة وقوع نزاع ومقاتلة بين فريقين. وكان أهل بيروت إذا رأونا في السوق يقولون: هؤلاء إخواننا الشيعيّون، أخي متى الفحص؟

الاجتماع بالمميّز

واجتمعنا بالمميّز[٧٣] في دار محمّد أفندي اللبابيدي مأمور الإجراء[٧٤] حيث دعانا وإياه لتناول طعام العشاء عنده. والمميّز اسمه سليم البخاري[٧٥] وهو مميّز قرعة ومفتي ألاي. فقال المميّز: إنّي أقول بالاجتهاد وأقول بالتجزّي[٧٦]. فاعترضت على القول بالتجزّي بأنّه ربّما كان بالمسائل التي لم يجتهد فيها المتجزّي ما ينافي أدلّة ما اجتهد فيه فلا يكون قد استفرغ الوسع. فلم يكن عنده جواب. وسألنا المميّز: في أي كتاب تقرأون علم النحو. قلنا: في **شرح القطر** و**شرح ألفية ابن مالك** لابن الناظم. فكان ذلك سبب طبع **شرح الألفية** في بيروت ولم يكونوا يعرفونه. وجمعنا للمميّز أربعة آلاف قرش من الطلبة وأنا كواحد منهم، وكان اللبابيدي واسطتنا في إيصالها للمميّز. فلم يقبل أن يأخذها إلاّ أن يكون معه أحدنا فلم يأتمن الرفقاء على ذلك غيري. فجئت أنا

---

(٧٣) المميّز هو المُفتّش.

(٧٤) مأمور الإجراء: مأمور ينفّذ الأحكام.

(٧٥) سليم البخاري (ت. ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م) من كبار فقهاء دمشق ومن دعاة التقارب بين المذاهب الإسلامية. كان قريباً من حركة تركيا الفتاة، ثم شارك في تأسيس جمعيات سرّيّة عربية. وكان رئيس العلماء في عهد فيصل. أنظر ترجمته في مجلة المجمع العلمي العربي، م ١٠ (١٩٢٩)، ص ٧٤٢ - ٧٤٩.

(٧٦) الاجتهاد نوعان: اجتهاد مطلق في العبارات والمعاملات والإيقاعات، واجتهاد في مسألة أو عدة مسائل جزئية من هذه الأبواب ويقال له اجتهاد متجزّىء. والمتجزىء مجتهد في مسألة أو عدة مسائل جزئية. وقد أختُلِفَ في التجزّي فمنهم من يقبل به ومنهم من يرفضه.

واللبابيدي والدراهم معي إلى لوكندة طرابلس التي كان المميِّز نازلاً فيها. فقال له اللبابيدي: الجماعة مقدّمون لكم أربعة آلاف قرش لا على سبيل الرشوة بل معرفة لما عليكم من المصاريف. فقال المميِّز: أنت تعلم يا محمّد أفندي أنني لست من أهل هذا. فأشار إليَّ اللبابيدي بالقيام فقمت، وبقيا منفردين والله يعلم ما جرى بينهما.

الحضور للامتحان

كان الامتحان الرسمي في ستّ سنوات: سنتان في النحو في **شرح الجامي على الكافية وشرح الإظهار**[77] وأربع سنوات في المنطق: سنتان في شرح **إيساغوجي** للفناري[78]، وسنتان في شرح **الشمسيّة**. وكنت مُقيّداً في دفاتر الحكومة من مواليد ١٢٨٠ مع أنّ تولُّدي سنة ١٢٨٤، كما مرّ، وذلك لسوء نيّة من مختار القرية. فلما طُلِبْتُ للقرعة أول سنة وجدوا أني صغير السن. فجعلوا تاريخ ولادتي ١٢٨٢. فلمّا كان بعد ذلك طُلبت للقرعة بمقتضى أن ولادتي سنة ١٢٨٢ وأصابتني القرعة وعند السحب كانت الورقة بيضاء[79]، فتخلّصت تلك السنة. وحَصَل هنا اشتباه في دفاتر الحكومة فبقي المولد سنة ١٢٨٠ فأُسقط سنتان لصغر السن والورقة البيضاء، فيكون أول سنة الامتحان في النحو في شرح **الإظهار**. أما إذا كان المولد ١٢٨٢ وسقط سنتان يكون أول سنة الامتحان في

(٧٧) هو شرح مصطفى الأطهوي (ت. ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) على **إظهار الأسرار في النحو** لزين الدين البركلي (ت. ٩٨١هـ/١٥٧٣م)، عنوانه: **نتائج الأفكار في شرح إظهار الأسرار في النحو.**

(٧٨) **إيساغوجي**، لبورفير (Porphyre)، نقله إلى العربية أثير الدين الأبهري (ت. ٦٦٢هـ/١٢٦٤م) وشرحه شمس الدين الفناري (ت. ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).

(٧٩) كانت القرعة تتم في القرية: فيدعو المختار شبابها وتسحب الأوراق.

المنطق، سنتان في شرح إيساغوجي وسنتان في شرح الشمسيّة. فيكون قد توفّر علينا السنتان الأخيرتان من شرح الشمسيّة. ففتحت الدفتر الذي كان معنا ضمن غلاف ملصق مختوم فوجدت أن التاريخ قد كُتب ١٢٨٠. فوضعت بدل الصفر رقم اثنين، ثم ألصقته وهكذا في باقي السنين. وحضرت الامتحان أربع سنين وتوفّر عليَّ سنتان. وأُعطيت شهادة بانتهاء الامتحان. لكنّهم تفطّنوا بعد ذلك لهذا الغلط فطُلبت وأدّيت الامتحان عن سنتين في سنة واحدة فتوفّر عليَّ سنة واحدة فقط.

وحضرنا للامتحان في السراي فأعطونا محلّ الامتحان في شرح إيساغوجي وقالوا تذاكروا فيه. فدخلنا المسجد الذي في السراي التي هُدمت أخيراً، فجلس البيروتيّون ناحية وجلسنا ناحية. فدخل اللبابيدي وقال للبيروتيّين: قوموا واجلسوا مع إخوانكم واستفيدوا منهم. فقاموا وجلسوا إلينا. فكانوا يُدخلون رجلاً منّا ورجلاً منهم، وكانوا أضعف منّا بمراحل. ودخل واحد منهم حليق اللحية وخرج فقال له آخر: ما سألوك عن هذه؟ فقال: حذفناها حذفاً قياسياً. وكان المجلس مؤلفاً من المميّز والقاضي والمفتي والنقيب وبعض العلماء وجماعة عسكريّين. لكنّ القاضي لم يحضر. ولمّا دخلت قال لي المميّز: إقرأ. فقرأت: القضيّة قول يصحّ أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب فيه. فقال لي: من أي القضايا هذه؟ قلت: موجبة كليّة. فقبل جوابي. ثم تأمّلت بعد ذلك فرأيت أنها طبيعيّة. وسألني أسئلة أخرى فأجبته. ثم قمت لأكتب حسب الطريقة المرسومة، فكتبت ما أُعجب به الحاضرون.

وجاء محرر الجريدة فأخبر أن طلاّب صيدا وصور ومرجعيون نجحوا جميعاً. وجاءت الجريدة إلى البلاد فكانت بشرى عظيمة.

ولما وصلت الشهادة إلى المير ألاي ليمضيها، طلب حضورنا لديه من بين جميع الطلاب. فقال لنا: إنما طلبتكم لأوصيكم بأمرين:

الأول أنكم إذا سئلتم في استانبول أو في الشام أو في بيروت أو في أي مكان، تجيبون بأنّني حضرت امتحانكم وسمعت أجوبتكم فإياكم أن تدفعوا لأحد شيئاً.

الثاني لا تقولوا قد سُئلنا فأجبنا وتتركوا طلب العلم.

فقلت له: نحن لا نطلب العلم لأجل التخلّص من العسكريّة بل إنه ليس لنا مهنة ولا صنعة غير طلب العلم أباً عن جد. وشكرناه على نصائحه وأمضى لنا الشهادة. وخرجنا وعدنا إلى بلادنا سالمين غانمين ببركة التوكّل على الله تعالى واليأس من الناس. وصرنا نأتي إلى الامتحان كلّ سنة حتّى مضت سنوه.

جعفر المحمّد:

ابن الشيخ محمّد حسين المحمّد(٨٠) من نسل الشيخ محمّد بن محمود العاملي المشغريّ الشاعر المشهور، وقد يُنسبون إلى الحرّ للمصاهرة بينهم، حتّى كأنّهم عائلة واحدة. والمتديّنون منهم لا يرضون أن يُنسبوا أو ينتسبوا إلى الحرّ. وكان جعفر هذا مجنوناً في ثياب عاقل متعمّداً للأذى. وكان وهو في العراق يؤذي العامليين، لا سيما ابن عمه العالِم الفاضل البر الصالح الشيخ حسين، بأنواع الأذى ويشكوهم إلى الحكّام وكانوا معه دائماً في عناء. وسافر مرة إلى إيران فكلّف من يكتب له كتاباً إلى النجف بأن جعفراً توفّي. فلمّا وصل الكتاب إلى النجف جعل ابن عمه الشيخ حسين يبكي

(٨٠) محمد حسين المحمد (ت. ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م). أنظر: ترجمته في **الأعيان**، م ٩، ص ٢٥٩.

فقال له ابن عمنا السيد علي محمود[٨١]: أتبكي عليه أبعده الله؟ أنسيت ما كان يصنعه معك ومعنا؟ فقال: إنّما أبكي عليه لقلة توفيقه. وفي أثناء ذلك حضر جعفر للعراق فقيل له: ما الذي حملك على هذا الكتاب؟ فقال: أردت أن أعرف من يحبّني ممن يبغضني ويشمت بموتي. وكان معنا في بيروت جماعة من آل الحرّ الكرام حضروا مع أولادهم المطلوبين للامتحان، فيهم الشيخ عبد السلام الحرّ[٨٢] ومعهم الشيخ محمّد، المعروف بالـخُجا، من آل مروة، حضر مع ولده أيضاً. وكان قارئاً عارفاً بالتجويد فقرأت عليه صلاتي فقال جيدة سوى أن الدال من سورة التوحيد[٨٣] في «أحد» وغيرها تحتاج إلى قلقلة؛ وهي إلحاق شيء بالدال شبه الهمزة. وحضر في هذه المدّة إلى بيروت الحاج محمّد ابن الحاج حسن عبد الله لأجل رجل من الخيام أُخِذَ للخدمة العسكرية ووُضع بالقِشلة فهرّبه ليلاً وصرف ما جاء به من الدراهم لتخليصه. فامتزج معه جعفر وجعل لا يفارقه وهو يكرمه. وكنّا جلوساً مرّة فمدّ الحاج محمّد يده إلى ربطة رقبته ليصلحها فقال جعفر لرجل إلى جنبه: ألست ذكيّاً؟ فإنه يقول لك اذبحه أما تراه مدّ يده إلى رقبته مشيراً إلى ذلك؟

وعزم آل الحرّ ليلة على قتل جعفر ليتخلّصوا من أذاياه الكثيرة وما يشنّع به على الشيعة من الأكاذيب، مع أنه كان نازلاً مع آل الحرّ يأكل زادهم ويؤذيهم ولا يجدون إلى التخلّص منه سبيلاً. فعزموا

---

(٨١) علي محمود الأمين (١٢٧٦هـ/١٨٦٠ - ١٣٢٨هـ/١٩١٠م). بقي عشرين سنة في النجف ثم عاد إلى جبل عامل وأسس مدرسة شقراء. أنظر: **الأعيان**، م ٨، ص ٣٤٠ - ٣٤٥.

(٨٢) أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٨، ص ١٦.

(٨٣) سورة التوحيد هو الاسم الشائع لسورة الإخلاص.

على قتله ودعونا للاشتراك معهم فأبينا مستنكرين ذلك. وكنّا نازلين وهم في فندق واحد. فلمّا مضى شطر من الليل بدأوا بتنفيذ خطّتهم فقال لهم: اخنقوني خنقاً ولا تذبحوني ذبحاً، فمزقوا ثيابه وأكثروا الجراح في وجهه ثم جبنوا عن إتمام خطّتهم. فقال لهم: قد تبت إلى الله وإليكم فاستأجروا لي غداً دابّة لأذهب عنكم إلى جُبَع. فلما كان الصباح غسلوا وجهه وأتوه بثياب وأرسلوا معه من يستأجروا له دابة، فجعل الذي معه يمشي به إلى محل استئجار الدواب وهو يجرّه نحو السراي. فلما رأى منه ذلك عاد عنه وعلم أنه يريد الشكوى. فذهب إلى السراي وشكاهم وأخبر بما جرى له فأُلقي عليهم القبض وما تخلّصوا ذلك اليوم إلاّ بجهد عظيم ومشقّة شديدة وواسطة قويّة.

طلب عالِم من العراق

بعد وفاة المرحوم الشيخ موسى وتفرّق طلبة مدرسته اعتزم الحاج سليمان البزي، وجيه بنت جبيل ومُثْريها وجماعة من الفضل، طَلَب عالم من العراق يتوسّط الشيخ محمّد حسين الكاظمي[٨٤] أشهر علماء العرب في العراق. فأرسل له برقيّة بطلب أحد اثنين: السيّد إسماعيل الصدر أو السيّد مهدي الحكيم[٨٥]. وكثر إرسال البرقيّات بهذا الصدد، وكانت البرقيّات ترسل إلى بغداد بواسطة حسن رضا الشامي ومنها إلى النجف لعدم وجود مركز برقيّ في النجف. فقبل السيّد الحكيم بالمجيء على أن يُرسل له مائتا ليرة

(٨٤) محمد حسين الكاظمي (١٢٢٤/١٨٠٩م - ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) من أصل عاملي ولد في الكاظمية وعاش في النجف. أنظر: **الأعيان**، م ٩، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٨٥) إسماعيل الصدر (١٢٥٨هـ/١٨٤٢م - ١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، أنظر: **الأعيان**، م ٣، ص ٤٠٣ - ٤٠٤. مهدي الحكيم (ت. ١٣١٣هـ/ ٥ - ١٨٩٤م). أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ١٥٢.

عثمانيّة ذهباً. فأُرسل له مائة مقدّماً وأُرجئت مائة إلى حين حضوره. ولما حَضر استقبله القوم إلى دمشق فأَخَذَ بالحزم ولم يبرح دمشق حتّى أُمِّنت المائة الثانية. وكُنّا أشوق إلى حضوره من الظمآن إلى بارد الماء، فهُرِعنا مع من هُرع للسلام عليه. واستبشر الناس بحضوره، وكنت من أشدّهم استبشاراً. واجتمع طلاّب مدرسة الشيخ موسى، وأنا معهم للقراءة عليه سوى السيّد نجيب فضل اللّه، الذي كان قد هاجر إلى العراق. واكتريت داراً وذهبت مع عيالي إلى بنت جبيل. وتوافد الطلاّب إليها وكنت قد وصلت في **المعالم** إلى الاستصحاب كما مرّ، وكان المتقدّمون من بقيّة الجماعة قد فرغوا من قراءة **القوانين** و**شرح اللّمعة** وشيء من **الرسائل**[٨٦]. وتذاكرنا معه في أمر ترتيب الدروس، فقال للجماعة: إن لي شرحاً على منظومة الشيخ موسى شرارة في الأصول[٨٧]. فاقرأوا فيه بدل الرسائل. وهو شرح على شيء من أوّل المنظومة. فقبلوا لمّا لم يجدوا بدّاً من ذلك. وقال لي: الأَوْلى أن تقرأ معهم. فأبيت وقلت: لا بد لي من إكمال **المعالم**. فقال لي: أنت ذو فهم ويمكنك أن تقرأ معهم ولا يفوقونك فهماً. فقلت: أنا أعْرَف بنفسي، ولا أستعمل الطفرة، نعم يمكن أن أقرأ معهم ولا أترك درس **المعالم**. فقرّ الرأي على هذا بعد إصرار منّي. ولم يكن أحد يقرأ في **المعالم** غيري. وحضرت في اليوم الثاني ومعي **المعالم**، فقرأ

---

(٨٦) **قوانين الأصول**، لميرزا القُمّي (ت. ١٢٣١هـ/١٨١٦م)؛ و**الروضة البهيّة في شرح اللّمعة الدمشقيّة**، لزين الدين بن علي المعروف بالشهيد الثاني (ت. ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م)؛ و**الرسائل** أو **فرائض الأصول**، لمرتضى الأنصاري (ت. ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م).

(٨٧) **الدُّرَر**، منظومة في أصول الفقه، للشيخ موسى شرارة. أنظر: **تاريخ جبل عامل**، لمحمد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٢٤٦؛ أنظر أيضاً: حسن الصدر، **تكملة أمل الأمل**، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦ ص ٤٠٤.

الجماعة درسهم وسمعته معهم وفهمته كما فهموه، ثم قرأت عبارة درسي في المعالم، فلما فرغت قال: أليست هذه العبارة مفهومة لك؟ قلت: بلى. وأطبقت الكتاب وانصرفت. وفي اليوم الثاني لم أُحْضِر معي المعالم، فسألني، فقلت: حيث إن الغرض من إحضارها هو قراءة العبارة فقط، فأنا أقرأها لوحدي.

وكان همّه مصروفاً إلى الوعظ والإرشاد وإصلاح المجتمع، أكثر من إنصرافه إلى التدريس، وهذا أمر مرغوب فيه فلا غرو إن اتّبعه. ولكلّ مصلح في هذه الحياة رأي فيتّبع ما يراه أصلح. وقد يكون غيره أصلح منه.

وبعد قليل طلب وجوه البلاد، لأمر لو تمّ لكان فيه من الحزم وجودة الرأي وبعد النظر في عواقب الأمور ما لا يخفى، لكنه لم يتم، وهم خليل بك الأسعد والحاج حسين فرحات وأخوه الحاج حسن والحاج علي أبو خليل والحاج سليمان البزّي، فقال لهم قولاً معقولاً وهو: إني حضرت إلى هذه البلاد لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وهذا لا يتمّ إلاّ بأن أكون مستغنياً عن الناس. وذلك يتوقّف على أن تجمعوا لي من البلاد ما أشتري به مزرعة تقوم بكفايتي. وهذا الكلام لو قيل في مثل إيران أو العراق لكان له وجه، أما في جبل عامل التي يغلب على أهلها الفقر ولم يسبق لأحد من علمائها أن طلب مثل هذا الطلب، وكلّ علمائها قانع بالقليل من عهد الشهيد الثاني[88] الذي كان يحرس كرمه ليلاً بنفسه وبنى داره بيده، فلم يكن من المحتمل أن يُجيبوا إلى مثل هذا الطلب. لذلك أجابه الحاج حسين فرحات من بينهم، بأنه: لا لزوم للجمع من أهل البلاد، بل

(٨٨) زين الدين بن علي الشهيد الثاني (ت. ٩٦٦هـ/١٥٥٨م) من مشاهير علماء جبل عامل قُتل وهو في طريقه إلى إسطنبول.

نحن الموجودين نقوم بثمن مزرعة لأن ثمنها لا يزيد على ألفي ليرة ذهبية؛ فخليل بك يدفع خمسمائة والحاج سليمان خمسمائة، والحاج علي أبو خليل خمسمائة وأنا وأخي خمسمائة ولكنّنا نجعلها وقفاً على العالِم القائم بوظيفة العلم في جبل عامل. وبقي الناس ينتظرون أن يعلموا لماذا كان هذا الاجتماع، وماذا كانت نتيجته. فسألوا الحاج حسين فأخبرهم، وقال: نحن فقراء وعالمنا يعيش كما نعيش وقد اعتدنا أن يجيء العالِم، فواحد منّا يقدّم له فرساً، وواحد شيئاً من المال وهكذا... أما إذا كنّا نريد أن نشتري لكل عالم مزرعة فلا يمضي زمن قليل حتّى يصبح جبل عامل كله ملكاً للعلماء، فأين نذهب نحن؟

وانفضّ ذلك الاجتماع عن غير جدوى. وكان من فتواه أن الضدين الواجبين واحدهما مُوَسَّع والآخر مُضَيّق[٨٩] إذا فُعل الموسَّع دون المضيّق أَثِمَ وصحّ الموسّع ـ وهو الأصحّ ـ وأنّ مَنْ عنده عِقار لا يكفيه نماؤه لا يجوز له تناول الحقّ الذي للفقراء بل عليه أن يبيع العقار ويصرف ثمنه ثم يتناول من الحقّ.

ومن الطرائف أننا جلسنا مرة في أرض ومعنا خالي الشيخ حسين فلحة وسيّد فقير اسمه السيّد إسماعيل دقّة فقال السيّد: هذه الأرض لي. فقال له خالي: اسكت! الآن يسمع بك فلان فيمنعك من أخذ الخمس. فضحك الحاضرون.

العودة إلى شقرا

ولما لم نجد فائدة في البقاء، رجعنا إلى وطننا وكذلك باقي الطلاب

(٨٩) الواجب المُوسَّع هو الواجب الذي يمكن تأجيله؛ والواجب المُضَيّق هو الذي لا يمكن تأجيله.

تفرّقوا وعادوا إلى أوطانهم وانصرف السيّد إلى ما هو بنظره أهمّ من الدرس، من إصلاح المجتمع بالوعظ والإرشاد وإلى الأسفار لا سيّما في شهر رمضان لتعميم المنفعة وتخليص الناس ممّا عليهم من الحقوق الماليّة.

ولـمّا وجدت أن لا فائدة لي من البقاء في بنت جبيل خرجت منها وعدت إلى وطني في شقرا. وعظُمَ الأمر على والدي فطلب إلى صديق له في بنت جبيل يُسمى السيّد أحمد بوصي أن يقنعني بالعودة إليها فقلت له: أنا لو علمت بدرس في رأس جبل الثلج لذهبت إليه، ولكنني آيس من وجود الدرس في بلدكم. وبقيت مثابراً على المطالعة والتدريس المتيسّر حسب عادتي. واجتمع عندي عدّة من الطلاّب من جبل عامل وبلاد حمص يقرأون في علم العربية من النحو والصرف والبيان فيستفيدون منّي ولا أستفيد منهم. وقرأت في هذه المدة شرح **نهج البلاغة** لابن أبي الحديد بكلا جزأيه وكان والدي أحضره معه من العراق وبقيت معطّلاً من الاستفادة لعدم وجود الشيوخ.



الفصل الثالث

في النجف

سفرنا إلى العراق سنة ١٣٠٨

وبقينا على هذه الحال نتشاغل بالتعليم والمطالعة أربع سنين من سنة ١٣٠٣ التي توفّي فيها الشيخ موسى إلى سنة ١٣٠٨. فحضر إلينا الشيخ حسين مغنيّة[1] فقال لي: قد صحَّ عزمنا على السفر إلى العراق لطلب العلم فلتكن معنا. فقلت له: ما أشوقني إلى ذلك ولكن قد ترى حالة والدي فكلّمه في ذلك. وكان الوالد راغباً في ذلك كرغبتي فيه، لكن عجزه وذهاب بصره وفقد المعين يمنعه عن ذلك، فقال لي الوالد: استخر بذات الرقاع[2] فإن خرجت جيّدة فاللّه يتولى تدبير أموري وإلاّ فأكون قد أُعذرت. فتوضّأت وذهبت إلى المسجد بنية خالصة وتضرّع، واستخرتُ بذات الرقاع فخرجت جيّدة، فأخبرت والدي. وتهيّأت للسفر مع العيال ولم يكن معي من النفقة درهم واحد، فهيّأ اللّه

(١) حسين مغنية، ١٢٧٥هـ/١٨٥٩م - ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، من كبار علماء جبل عامل، وكان رفيق المؤلف في دراسته. أنظر: الأعيان، م ٦، ص ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) الاستخارة بذات الرقاع تكون بوضع قصاصات من الورق كتب عليها «إفعل» أو «لا تفعل». يسحب منها واحدة فإن كانت بالإيجاب يؤخذ بها وإلاّ فلا.

ولم أكن رأيته قبل ذلك ولا سمعت باسمه لأنه طُبِعَ حديثاً. فجيء به فإذا فيه في مادة قَسم: «قال رسول الله (ص) يا علي أنت قسيم النار تقول هذا لي وهذا لكِ». وسألوني عن معنى قول الشريف الرضي:

أما في يوم خيبر معجزاتٌ تُخَبِّرُ أو مناجاة الحُبابِ
أرادت كيده والله يأبى فجاء النصر من قِبَلِ الغرابِ[٥]

فقلت هذا إشارة إلى قصّة لم أُطّلِعْ عليها. وبقي ذلك يحوك في نفسي حتى وردت النجف وكان هناك رجل يسمى الشيخ محمّد اللايذ له اطّلاع واسع على تواريخ أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم وعلى تواريخ العلماء وأخبارهم لأنه يُكثِر المطالعة في الكتب المتضمّنة لذلك، فهو دائماً في حُجَر بائعي الكتب يطالع فيها لا شغل له سوى ذلك. وقد تلقّى أخبار العلماء المتأخّرين من أفواه الناس. وإذا حضر مجلساً جعل يُلقي من ذلك على أهل المجلس فيكون هو لا سواه محدّثهم، وكان فقيراً. وعند صديقنا السيّد حسين الصائغ مجلسٌ ليلة الأربعاء تُقام فيه ذكرى سيّد الشهداء ويدعو فيه جماعة لتناول العشاء هو أحدهم على الدوام قد أوعز إليه صاحب المجلس بذلك فلا يحتاج إلى دعوة خاصة. فسألته عن معنى البيتين فقال: نعم، وقف السيد الحِمْيَرِيّ[٦] بالمِرْبَد بالبصرة وهو محل اجتماع الناس وهو راكبٌ على جواد. ونادى:

(٥) أسطورة شيعية تُروى عن علي، وذلك أنه كان يخطب في المسجد، فدخلت أفعى في حذائه، فأرسل الله الغراب فحمل الحذاء وسقطت الأفعى.

(٦) السيد الحِمْيَرِيّ (١٠٥هـ/٧٢٣م - ١٧٣هـ/٧٨٩م) من مشاهير الشعراء العباسيين وشاعر آل البيت. أنظر: **الأعيان**، م ٣، ص ٤٠٥ - ٤٣٠.

تعالى في مدّة قصيرة من بيع بعض الحبوب وغيره نحواً من ٢٥ ليرة فرنسيّة ذهباً.

وسرنا على اسم اللّه تعالى من شقرا في آخر يوم من شهر رمضان المبارك وبتنا في قرية دير قانون النهر. وفي الصباح سرنا قاصدين بيروت فوصلناها مساء. ودعانا فيها صديقنا القديم من أيام الامتحان محمّد أفندي اللبابيدي مأمور الإجراء لتناول العشاء في داره. وحضرنا يوماً إلى مكتبة الشيخ أحمد عبّاس[٣] بجانب الجامع العمري الكبير، وكان هو واللبابيدي يطبعان **ديوان الشريف الرضي** عن نسخة المرحوم الشيخ عبد الله نعمة فجيء بملزمة إلى المكتبة فإذا فيها هذا البيت:

ومـوقـفٍ صـافـحـتْ أيـدي الـرجـال بـه
طُـلـى الـرجـال عـلـى الخرصـان مـن كـثـبِ

فوجدتهم فسّروا كلمة الخرصان بقولهم: «الخرص شيء يوضع في الأذن» فقلت لهم: هذا خطأ فالخرص هنا ليس له محلّ وإلاّ لكان المعنى أنهم يطعنونهم في آذانهم، بل الخرصان هنا أطراف الرماح. فسألوني حينئذٍ عن معنى «قسيم النار» في قول الشريف: «قسيم النار جدي يوم تلقى» فقلت لهم هذا إشارة إلى ما يُروى عن النبي (ص) من قوله: «يا علي أنتِ قسيم النار تقول هذا لي وهذا لكِ». وكان الشيخ أبو الحسن الكُستي شاعر بيروت حاضراً فلم يعجبه هذا التفسير فقال الشيخ أحمد عبّاس: هاتوا **تاج العروس**[٤].

(٣) أحمد عباس الأزهري (١٢٧٠هـ/١٨٥٣م - ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م)، مؤسس الكلية الإسلامية في بيروت. أنظر: **معجم الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الجزء الثاني، ص ١٤٢.

(٤) **تاج العروس في جواهر القاموس**، أوسع معجم في اللغة العربية لمرتضى الزبيدي (ت. ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م).

من جاءني بمنقبة لعلي بن أبي طالب لم أنظم فيها شعراً فله جوادي هذا. فقال له رجل: ماذا نظمت في خبر الحيّة والغراب؟ وروى له قصّتهما فنزل السيّد الحميري عن الجواد وأعطاه إيّاه. وقد أشار الشريف الرضي في شعره إلى ذلك.

الخروج من بيروت

ثم ركبنا البحر من بيروت في مركب تركي اسمه قَيْصَريّ قاصدين إسكندرونة. فاجتزنا بطرابلس واللاذقية وبقينا في البحر يومين وليلة وهاجت بنا المُرّة الصفراء هيجاناً شديداً حتى أننا خرجنا من البحر ونحن كالأموات. وبسبب ذلك تأخّرنا عن صلاة المغرب أول الوقت فتعصّب علينا «قبودان»[٧] المركب لظنّه أننا شيعة. وجاء يسألني عن سبب تأخير الصلاة عن أول وقتها. فأخبرته بالعذر فلم يقنع بذلك. وجعل يتجسّس علينا. وكانت معي رسالة للشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت وهي على مذهب الإمام الشافعي وكنت أقرأ فيها مرة فوقف من خلفي ينظر فيها خلسة لعلّه يجد فيها ما يوافق غرضه. فلما رأى أنها على مذهب الإمام الشافعي انصرف. لكنه بقي على تعصّبه. واشتطّ علينا في أخذ الأجرة حين إنزال ما معنا إلى الزورق ليوصله إلى إسكندرونة. هذه حالة المسلمين في تعصّبهم الأعمى الذي أدّى إلى ضعفهم وصيرورتهم غرباء في أوطانهم.

في اسكندورنة

وهي فُرْضَة[٨] على البحر المتوسط، ولها خليج جعل لها موقعاً

(٧) الأمر يتعلق بالقبطان على ما يبدو.

(٨) الفُرضة من البحر: محطّ السفن.

حربياً جيداً. وأصل اسمها الإسكندرية نسبة إلى بانيها الإسكندر باني إسكندرية مصر. فدخلناها بعد خروجنا من البحر ونزلنا في بعض خاناتها. وأهلها سنيّون وعلويّة. واشترينا اللحم وكنّا إليه جدّ قرمين لما أصابنا في البحر من القيء المتواصل بسبب هيجان الصفراء فكنّا كأنّنا لم نأكله من سنين. وفي اليوم الثاني ذهبنا إلى منبع مائها وهو عزير يفور من أرض سهلة. وكان قد بُنِيَ عليه بناء فتهدّم وبقي بعض جدرانه. واجتزنا في طريقنا إليه بحدائقَ وبساتين كثيرة تُسقى من ذلك الماء فاغتسلنا وغسل النساء ثيابنا ثم عدنا إلى المنزل. وأخذنا في اليوم الثالث نسعى في تهيئة أسباب السفر.

إلى حلب

ومن حيث إن معنا عدة نساء لم يعتدن ركوب الدواب ولا سافرن قبل هذا السفر، صرنا نسأل عن «كجاوات»[9] فلم نجد، وطلبنا إلى النجّارين عملها فلم يهتدوا إلى معرفتها لأنهم لم يروها ولا سمعوا باسمها قبل ذلك. وقالوا لنا: هل تريدون سَمَرا؟ والسمَر بالفتح قتب رحل البغل والبرذون وشبههما. وانحصر الأمر في ركوب الدواب على السروج والجلالات ولو كان ذلك شاقاً مشقة شديدة على النساء. فذهبنا لاستئجار الدواب فطلبوا منا أربع مجيديّات[10] لكلّ دابّة. وبينما نحن في غمّ من هذا الأمر، إذ جاءنا رجل يعرض علينا الركوب في العربات، فكأنما نشطنا من

(٩) الكجاوة: جمعها الكجاوات وهي صندوقان مفتوحان من خشب على مِيلَي الجمل أو البغل، تستعمل لركوب النساء والصغار، وأحياناً للرجال، وهي مريحة للسفر. وإن لم يكن فيها إلاّ راكب واحد يوضع في الجهة الثانية ثقل يوازي وزن الراكب.

(١٠) المجيدية قطعة نقد ضربت في عهد السلطان عبد المجيد (ت. ١٢٧٧هـ/١٨٦١م) تساوي عشرين قرشاً.

عقال. وكان ذلك الرجل يهودياً وهو مالك العربات ومعه سائق كردي. فجعل اليهودي ـ على عاداتهم في المكر ـ نفسه واسطة وادّعى أن مالك العربات هو الكردي، فآستأجرنا منه بنصف ما كنّا نريد أن نستأجر به الدواب، وسرنا على اسم اللّه أحسن مسير، وكان ذلك بتوفيق اللّه وتيسيره. وبعدما قطعنا سهل إسكندرونة سرنا صعوداً فاجتزنا ببلدة بيلان والماء يجري في جانبها. ثم بتنا في خان يسمى «قرق خان» أي الخان الأربعون. ثم بتنا في مكان على ماء جار فوق «تخوت» والماء يجري من تحتنا، ومررنا بمكان فيه جاموس وأظنه سهل العَمِق.

في حلب ثم السفر إلى العراق

ثم دخلنا حلب من باب الفرج وسألنا رجل، على عادتهم في فضول الكلام: من أين أقبلتم؟ فقال له أحدنا: من إسكندرونة. فقال: وإلى أين تذهبون؟ فقال: إلى الخان. وتلقّانا في باب الفرج المكاريّة العراقيون الذين حملوا الحجاج من العراق إلى حلب وكانوا يريدون العودة وليس لديهم ما يحملون على دوابهم. وعرضوا علينا السفر معهم. فقلنا لهم أن يأتوا إلينا لنتّفق معهم. فكان دخولنا من باب الفرج فألاً طيّباً وفرجاً قريباً. وذهبنا إلى خان يسمى خان موسى، وهو نظيف ذو طابقين مبني من الحجر، لا يدخله الدواب، وسقوف طابقيه مقبيّة بالحجر أيضاً. فنزلنا في الطابق الثاني الأعلى. وذهبنا إلى مسجد زكريّا وصلّينا فيه، وإلى الثكنة العسكرية مع بعض الجنود من أهل بلادنا. وصعدنا إلى القلعة وهي على ربوة وفيها مسجد فيه مئذنة عالية فصعدنا عليها ورأينا حلباً كلها وبساتينها من الفستق. وفي القلعة بئر بعيدة المدى يُشتَقى منها على دابة وفيها أكوام من القنابل القديمة. وحضر إلينا المكاريّة فاكترينا

منهم دابة «الكجاوة» بخمسة عشر مجيدياً مع تحميل أربعين أقّة بلا أجرة، ودابة الركوب بعشر مجيديات مع تحميل ثمانين أقة فلا أجرة ومعهم «عكّامون» كانوا مغتبطين أن يعودوا معنا بمؤونة بطونهم بدون أُجرة. والعكّام هو من يقود الدابة التي عليها «الكجاوة». وأظنه مأخوذاً من العكم وهو القبض بشدة على زمام الدابة أو لجامها. ومع العكّامين جُلّ لوازم السفر من خيام وقِرَبٍ ومبارز وسوبيات ومناصب[11] وفؤوس وغيرها فأخذناها بدون أجرة ولم يعوزنا غاير المطرات و«الكجاوات». اشترينا المطرات وذهبنا إلى الخانات نفتّش عن «الكجاوات» فوجدنا في خان ثلاث «كجاوات»: اثنتان جديدتان وواحدة عتيقة قد غمرها الزبل وتكسر أعلاها. فسبق بعض رفقائي إلى الجديدتين فاشتروا إحداهما بليرة فرنسية ذهباً والأخرى بأربع مجيديات. وبقيت الثالثة لم يقبلها أحد فاشتريتها بمجيديين وأصلح النجار أعلاها بزهراوي (نحو ربع مجيدي) فظهر أنها خير الثلاث لأنها عَمَل بلاد العجم؛ متينة واسعة والأخريان عمل الكاظمية ضيّقتان غير قويّتين. وجاء دور العكّامين فاختار رفاقي منهم الشبّان وبقي واحد يُسمى الحاج فُلَيِّح، بتشديد الياء، وهو شيخ كبير السنّ أعورُ أعرج لا يستطيع المشي لكنْ معه حمار صغير يركبه. فكان هو نصيبنا فقبلنا به إذ لم نجد سواه، متوكّلين على اللّه. فظهر أن الحاج فُلَيِّح سلّمه اللّه تعالى رجل صليب العود قويّ البنية قد عركته الأسفار وعلّمته تجنُّب الأخطار والأمن من العِثار.

وخرجنا من حلب على اسم اللّه تعالى قاصدين العراق. وركب

---

(١١) المَبرَز: ج. مبارز، من الأواني التي يحملها المسافر، والسوبيّة: المِدْفأة. والمِنصَب ج مناصب: آلة من حديد تُنصب تحت القدر للطبخ.

الحاج فُلَيِّح حماره الصغير وقاد بغلة الكجاوة وفيها عيالنا وإحدى بنات عمّنا وجعل يقول: تأخروا عن درب الخشّابات(١٢). ويكرر ذلك حتى صار أمام الجميع ومشى على متن حماره الصغير كأنه قائد جيش على متن جواد مطهّم. ومررنا بمكان قد غمره الماء ولا مناص لنا عن عبوره وفيه حُفر كثيرة فجعلت البغال تعثر في تلك الحُفر وتقع عنها الأحمال والكجاوات إلاّ من نجّى اللّه. أما الحاج فُلَيِّح فعبر ببغلته من مكان بحيث لم تبتل حوافرها وتخطّى بها كما يتخطّى العصفور. ووقف في ذلك الجانب مستقبلاً ببغلته القوم ونزل عن حماره وجلس ينتظر عبورهم وهم يعجبون منه كيف استطاع العبور ولم تبتل حوافر بغلته.

وسرنا حتّى وردنا قرية تسمّى جبرين وهي على مسافة أربع ساعات من حلب فنزلنا خارجها وضربنا خيامنا وذهبنا إلى القرية لنشتري خبزاً وبيضاً. فقيل لنا: إن ذلك يوجد عند شيخ القرية. فوجدناه جالساً في ديوانه وحوله أهل القرية فطلبنا منه أن يبيعنا خبزاً وبيضاً فقال: أنتم مسافرون للعراق؟ قلنا: نعم. وتزورون الشيخ عبد القادر الجيلاني الباز الأشهب؟ قلنا: نعم. قال: ها هنا ابن أخته وقد اشتهى يوماً لَبَنِيَّة فقذف له خاله إناء فيه لَبَنِيَّة من بغداد ـ وأشار إلى جبرين ـ فوصله حاراً. وكان هنا رجل أعمى فاستشفى بقبره فعاد مبصراً وهو هذا ـ وأشار إلى شاب جالس ـ أليس كذلك يا فلان؟ فقال له الشاب: بلى. فقلنا له: طال علينا المجال فقم وائتنا بالخبز والبيض. فقام وأتى بهما واشتطّ في ثمنهما.

ومرض أحد رفقائنا وهو الشيخ نعمة الغول بالحمى التيفوئيد. وكان الوقت في حَمارّة القيظ وكنّا نسير الليل كلّه وننزل النهار كلّه. وما

(١٢) لعله تصحيح للخَشْباء وهي الأرض الشديدة التي بها حجارة وطين.

حال محموم محصور في كجاوة، لا تسع غير مقعده، محبوس فيها طول الليل؟ فبينما نحن نسير في جوف الليل في فلاة ليس فيها إنسان ولا حيوان ولا نسمع فيها غير أصوات الأجراس المعلّقة في أعناق البغال، إذا بصائح يصيح: يا زوّار! هذا رفيقكم قد ألقى نفسه من الكجاوة. والقوم كما قال الشريف الرضي:

وَقِيذين(١٣) قد مال النعاس بهامهم

كما أرعشت أيدي المعاطين قرقفُ

فناديت رفيقي الشيخ موسى قبلان: أين أنت؟ قال: ها أنذا. قلت: انزل. فنزلنا ورجعنا إلى الوراء وإذا بالمحموم ملقى على الصعيد، وزوجته إلى ناحيته تبكي وعلى يدها ولدها الرضيع، والعكّام يمسك بزمام البغلة وهي تجاذبه الزمام تريد اللحاق بالقافلة. فقلنا للمريض: قم واركب. فأبي فحملناه بيننا وألقيناه في الكجاوة وأركبنا المرأة وابنها. وقاد العكّام البغلة وسار غير بعيد فألقى المريض نفسه من الكجاوة. وهنا أُسْقِط في أيدينا ولم ندر ما نصنع. فقلت للعكّام: هل عندك حبل دقيق؟ قال: نعم. فأخذته منه وشبكت به باب الكجاوة بعدما أركبناه وزوجته، فرام أن يلقي نفسه فلم يستطع.

وسرنا حتى وردنا دير الشعّار بفتح الشين وتشديد العين وتُسمى أيضاً دير الزور بفتح الزاي.

والزوْر المكان الذي فيه شجر ملتف. وبقربه زَوْر يُسمى زَوْر شَمِر، فلعلّه منسوب إليه. وهي بلدة على الفرات، نزهة ذات خيرات يُزرع فيها البطيخ الأخضر فيكبر حتّى تكون الواحدة كالجرة

(١٣) الوقيذ: الذي عليه النعاس فصار كالسكران.

العظيمة وأكبر، يحكمها متصرّف[١٤] كان يرجع في ذلك الوقت إلى استانبول رأساً كمتصرفيّة القدس، وهي الآن تتبع سورية. فأقمنا بها يوماً وأردنا الرحيل في اليوم الثاني فأبى صاحبنا المريض. فتعهّدنا للمكاريّة بعليق دوابّهم فأقاموا ذلك اليوم حتّى أقنعناه بالسفر.

والتقينا في بعض المنازل وأظنه الحديثة بالشيخ محمد دبوق شريكنا في الدرس. وكان قد سافر إلى العراق لطلب العلم فبقي مدة في النجف وعاد لانحراف مزاجه ومعه الحاج محمد علي رضا الدمشقيّ، فأنسنا بهما وكانا قد قَدِما مع ركب الحاج الإيراني. والحديثة مدينة قديمة وهي اليوم قرية حقيرة من جانب الفرات الشرقي، ومنزل القوافل في الجانب الغربي. فيجيء النساء باللبن والزبد يبعنه على القوافل ويعبرن الفرات على الظروف المنفوخة أو القرع الكبار كما يمشي أحدنا في الطريق.

وسرنا حتى وردنا عانة أو عانات. وهي ممتدّة على الفرات مسافة ثلاث ساعات ويوازيها جبل ممتدّ، والمسافة بينه وبين الفرات قليلة لذلك كانت بهذا الطول. ويقابلها راوة في الجانب الآخر من الفرات. وطلبنا في عانة باذنجان وغيره عند العصر فلم نجد فقال رجل: أنا آتيكم بذلك من راوة. فأخذ منا ربع مجيدي وعبر على الظرف المنفوخ أو القرعة وجاءنا بما طلبنا. ولا أزال أتذكر نجمة الخبّازة التي جئنا إلى منزلها وهي تخبز على التنور ضاحكة مسرورة فاشترينا منها خبزاً وشربنا الماء في آنية مصنوعة من القشّ مطلية بالقار من حُبّ[١٥] مصنوع ومطليّ به.

---

(١٤) المتصرّف: حاكم السنجق وهو دائرة إدارية في العهد العثماني.

(١٥) الحُبّ: الجرّة الكبيرة أو الخابية.

وكان معنا رجل يُسمى الحاج عبّاس، هو شيخ العكّامين، فكان إذا سأله الأعراب عن القافلة يقول: هؤلاء حرم المشير. وكان المشير قد سافر من الشام إلى العراق قبلنا بأيّام وكان على أغطية الكجاوات مرسوماً الشعار العثماني (الهلال والنجمة). فجاءنا في بعض المنازل بدوي يشتكي على آخر أنه سلب منه نعجة ويطلب إلينا تخليص حقّه فقال له الحاج عبّاس: الباشا نائم فلا ترفع صوتك. وكان معنا نصراني يلبس اللباس الفرنجي، ومعنا رجل معه بندقية مزدوجة فحملها وركب بغلاً وذهب مع البدوي وأرجع له نعجته وعاد.

ونزلنا في منزل يسمى القائم وفيه مدير ودَرَك. فقيل لنا: إن عرب عَنَزَة تمر في طريقنا وهي راحلة ويُخشى منها، فلو طلبتم إلى المدير أن يرسل معكم بعض الدرك لكان أوفق. ورغب الدرك في ذلك وحثّونا عليه طمعاً في الجائزة. فطلبنا ذلك من المدير فأبى لأنه ليس معنا أمر بذلك. وفي اليوم الثاني التقينا بالأعراب راحلين كأنهم الجراد المنتشر، فلم يتعرّضوا لنا بسوء. وشاهدنا نساء الشيوخ بالهوادج كلّ واحدة في هودج عليه غطاء من الصوف المنسوج المصبوغ بالحمرة. وفي ذلك أقول من أرجوزة في وصف هذه الرحلة:

يَحمِلْنَ فوقَ الضُمَّرِ الهوادجا
من أحمرِ الصوفِ اكتست نسائجا
كأنّما الأظعانُ والحدوجُ
كواكبٌ تضمُّها بروجُ

وكانت النساء البدويات يأتينَ فيرفعن غطاء الكجاوات وينظرنَ إلى النساء الحضريّات ويُعجبنَ منهنّ. وكنّا نبيت في ذلك البرّ الأقفر والصحراء الخالية بكلّ أمان واطمئنان حتّى نزلنا منزلاً بينه وبين

بغداد نحو ثلاث ساعات فقال لنا المكارّية: هذا منزل مَخُوفٌ فاحترسوا هذه الليلة من اللصوص. فقلنا: يا سبحان اللّٰه لا نأمنُ قرب مدينة بغداد ونأمن في الصحراء المقفرة. فبتنا في ذلك المكان ولم نرَ مكروهاً.

في الكاظميّة وبغداد

وفي اليوم الثاني عند الضُحى(١٦) لاحت لنا قباب مشهد الكاظمين(١٧) يلمع فيها الذهب الإبريز. وشملنا الفرح والسرور. ثمّ دخلنا الكاظمية فجاءنا رجل يُسمى السيّد حمادي يطلب تذاكر المرور، فأعطيناه إيّاها. فلمّا لم يجد فيها مَغْمَزاً، أخذ يتعنّت فيقول: صاحب هذه التذكرة عمره فيها ثلاثون ويلوح من رؤيته أنه ابن أكثر أو أقلّ. فعلمنا مُراده ودفعنا له شيئاً من الدراهم وانصرف.

ودخلنا الحضرة الشريفة في الكاظميّة فاجتمع علينا الخَدَمَة. وبعد الفراغ من الزيارة أكرمناهم بريال مجيدي فأحضروا شمعداناً ووضعوا المجيدي عليه وقالوا لي: ما اسمك؟ ظنّاً منهم أن كلّ واحد منّا سيعطيهم مجيدياً. فقلت له: هذا عن الجميع.

وبعدما ذهبنا إلى الحمّام توجّهت أنا وبعض الرفاق إلى بغداد لنشتري بعض اللوازم، وبين بغداد والكاظمية عربات تجرّها الخيل تذهب كلّ ساعة عربة من بغداد وأخرى من الكاظمية فيلتقيان في منتصف الطريق، ويوجد دوابّ أيضاً. فوجدنا العربة قد ذهبت فاكترينا دوابَّ وركبناها إلى بغداد. وجاء أصحابها ليتسلّموها على العادة فقال لهم رفيقي: هاتوا من يشهد أنّكم أصحابها. فقالوا له:

---

(١٦) في الأصل «عند الأضحى».

(١٧) مشهد الكاظمين فيه ضريح الإمام موسى الكاظم (ت. ١٨٣هـ/٧٩٩م) ومحمد الجواد (ت. ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م). وهو اليوم مدينة كبيرة تكاد تتصل ببغداد وهي الكاظمية.

وهل من الممكن أن يتعرّض لها غير أصحابها؟ فقال: اذهبوا معنا إلى أحمد صندوق لنسلّمكم إيّاها عن يده. فسبّوه وسبّوا أحمد صندوق، فنزل حينئذٍ فلمّا انصرفوا لُمتُه على ما فعل وقلت له: هل من الممكن أنه كلّما ركب أحد دابّة لهم يأتونه ببيّنة على أن الدابّة لهم؟ فقال: أنا أعلم ذلك، ولكن أردت أن يدلّونا على أحمد صندوق. وذهبنا إلى متجر أحمد صندوق الشامي فرأينا في طريقنا قطعة على باب كُتِبَ عليها: بنك شاهنشاهي بنك إيران. وأمامه اثنان من الهنود فسألنا عنه فقيل لنا: إنه بنك إنكليزي باسم إيران. ومررنا في يوم آخر صباحاً فلم نجد القطعة فقلت لرجل: هل نقلوا البنك من هنا؟ قال: لا. قلت: وما فُعِلَ[18] بالقطعة؟ قال: يرفعونها بالليل لئلا تُسرق ويضعونها في النهار. فتعجّبت من وقوع ذلك في بلد فيه والٍ ومشيرٌ وهو عاصمة البلاد.

وذهبنا إلى سوق الصفّارين لنشتري بعض الأواني النحاسيّة، فرأينا سوقاً طويلة فيها دكاكين من الجانبين وليس فيها غير صفّارين. فجئنا إلى أوّل دكان وسُمْنا النحاس. فقلت لصاحبي: لنشترِ. فقال: لا حتّى نسوم في دكّان آخر. فقلت في نفسي: هذا معقول. فسمنا في الدكّان الآخر فكان السعر واحداً. فقلت له: اشترِ. فلم يفعل وانتقل إلى الثالث فسكتُّ وصبرت ولم أقل له إنّي لا أستطيع معك صبراً[19] ولم يقل لي هو إن فعلتُ مثل هذا ﴿فلا تصاحِبْني قد بلغتَ من لَدُنّي عُذْرا﴾[20]. لكنّني عزمت على عدم مصاحبته بعد هذا. واستمر على الانتقال من دكّان إلى آخر حتّى أتمّ الصفّ الأول وانتقل منه إلى الصفّ الثاني فأتمّه إلى آخره. ثمّ إلى الصف

---

(١٨) في الأصل «وما فعلت القطعة».

(١٩) إشارة إلى الآية ﴿قال إنك لا تستطيع معي صبرا﴾ سورة الكهف ١٨، الآية ٦٧.

(٢٠) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٦.

الثالث فأتّمه إلى آخر دكّان منه. وكان السعر في الجميع واحداً. ثمّ تقدّمنا إلى الدكّان الذي جئناه أوّلاً فاشترينا منه حاجتنا بالسعر الذي وجدناه في باقي الدكاكين. وكان لهذا الرجل آراء غريبة وأفعال عجيبة أعرضنا عن ذكرها وإن كنّا لم نذكر اسمه لأنّنا لا نريد أن يُنْسب مثلها إلى رجل من جبل عامل.

وكان صاحب الدار التي نزلناها إيرانيّاً وزوجته كذلك فكنت أسألها عن بعض الأسماء بالفارسية وأكتبها، وقبل ذلك كنت قد حفظت بعض الألفاظ الفارسية في جبل عامل. وكان في قرية ميس رجل عراقيّ يتكلم بالفارسية مع خالي فأردت أن أتعلّم منه، فقلت له: هنا. فقال: إينجا. فقلت: هناك. فقال: كذلك إينجا، فقلت هذا لا يمكن ومزّقت الورقة(٢١).

في سامراء

ثم ذهبنا لزيارة مشهد سامراء، وسامراء بناها المعتصم انتقل إليها من بغداد وهي مخفّف سُرّ مَنْ رأى، فركبنا الحمير البيضاء والكجاوات للنساء فبينما نحن نسير إذ قال لي المكاريّ: إلزم. أي: إمسكْ جيداً. لأنه يريد أن يصيح بالحمير فتطير. وقبل وصولنا إلى سامراء مررنا بجانب جسر قديم يُسمّى جسر حَربي، بناه بعض ملوك العبّاسيين وعليه تاريخ بالآجر. وعبر دجلة من غربيّها في القِفَف فكان النوتيّة السامرّائيون يوقفونها في وسط الشطّ وهي تدور فيأخذون الأجرة ما شاؤوا إلى أن بنى الميرزا الشيرازي(٢٢) جسراً للعبور وسلّمه للحكومة.

(٢١) أما في الفارسية فـ«إينجا» لـ«هنا» و«آنجا» لـ«هناك».

(٢٢) المرجع ميرزا محمد حسن الشيرازي (١٢٣٠هـ/١٨١٥م - ١٣١٢هـ/١٨٩٥م)، اتّخذ سامراء مقراً له وحولها إلى مركز للتعليم الديني سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م. وبنى فيها المدارس والحسينيّة والحمامات والجسر. أنظر: الأعيان، م ٥، ص ٣٠٤ ـ ٣١٠.

ودخلنا سامرّاء فوجدناها تعج عجيجاً بالعلماء والطلاب والزائرين وأرباب الحوائج والميرزا الشيرازي متحجّب في داره لا يراه أحد إلاّ بإذن ويحضر درسه فحول العلماء وخادمه الشيخ عبد الكريم مُحيي الدين يمشي ذاهباً وجائياً والناس تناديه من كلّ مكان، وأرباب الحوائج يكلّمونه من هنا ومن هنا، وهو لا يغضب ولا ينتهر أحداً. وجلس الميرزا يوماً في دهليز داره على كرسيّ وأذن للناس بالدخول عليه، فيدخلون ويسألونه عمّا يريدون ويخرجون، ودخلنا عليه فيمن دخل فسألته عن شيء لا أتذكر الآن ما هو فقال: يُستعمَل فيه القُرعة. وعن نذر الأئمة، فقال فيما أظن: نحن لا نجيزه إلاّ للزائرين. ثم عدنا من سامراء إلى كربلاء.

في كربلاء

فدخلناها في ذي الحجة وأدركنا بها زيارة عرفة، ووجدنا فيها طائفة من العامليين من بني عمّنا وغيرهم. وسمعت كلامنا بنت عمّنا السيّد محسن النجفيّة فوجدته لا يفترق شيئاً عن كلام أهل العراق فعجبت من ذلك. ثم ذهبنا إلى النجف بطريق الماء.

في النجف

ونزلنا في دار بعض بني عمّنا، وفي يوم وصولنا قال لي: إن لي صديقاً كان في بلاد إيران وحضر فاذهب معي للسلام عليه. فذهبنا نحو الساعة التاسعة نهاراً وسلّمنا عليه وجاؤوا لنا بالسكاير والشاي والقهوة فشربنا وبقينا إلى نحو الساعة العاشرة. فأشرت إليه بالقيام فلم يفعل. وقام ناس وجاء آخرون فأشرت إليه بالقيام فلم يفعل. ولا يناسب أن أخرج وأدعه، ومع ذلك فلست أهتدي الطريق إلى الدار، إلى أن بلغت الساعة نحو الحادية عشرة، فأشرت إليه بالقيام فلم يقم. وقَرُب وقت المغرب فذهب الناس جميعاً

وأشرت إليه بالقيام فلم يفعل إلى أن صارت الساعة نحو الواحدة، فكان الحال كذلك وإلى الساعة الثانية ونحن جلوس. فلمّا صارت الساعة الثالثة جيء بالعشاء فتعشّينا معهم وما قمنا حتى قاربت الساعة الرابعة فقلت له:﴿هذا فراقُ بيني وبينك﴾[٢٣] لن أصحبك بعدها أبداً.

ثم اكترينا داراً في محلّة الحُوَيْش وانتقلنا إليها وشرعنا في الدرس والتدريس وكان جارنا الشيخ ملاّ حسين قِلي الهمذاني[٢٤] الفقيه العارف الأخلاقي المشهور، فحضرت يومين في درسه الأخلاقي ثمّ تركت وعكفت على دروس الأصول والفقه ثم ندمت على أن لا أكون حضرت درسه الأخلاقي إلى آخر حياته، وقد توفي ونحن في النجف الأشرف. وكان جلّ تلاميذه العرفاء الصالحون وفيهم بعكس ذلك، لأن الحكمة كماء المطر إذا نزل على ما ثمره مرّ ازداد مرارة وإذا نزل على ما ثمره حلو ازداد حلاوة.

وبعد الاستقرار في تلك الدار شرعنا في القراءة على المشايخ وشرع الطلاّب في القراءة علينا. وكانت صاحبة الدار تسكن فيها معنا لأنها كانت متزوجة برجل من بيت الخُرَسان ولها ابن منه توفي، فورثت الدار منهما. وكانت تسكن معها ملاّ نائحة على الحسين عليه السلام ذاكرة لمصيبته وهي طرشاء واسم إحداهما عزيزية بالتصغير. فلم نأتلف مع صاحبة البيت وخرجنا قبل إكمال السنة فسكنّا في محلة العَمارة.

أقسام التدريس في النجف

التدريس هناك قسمان:

(٢٣) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٨.

(٢٤) حسين قِلي الهمذاني (ت. ١٣١١هـ/١٨٩٣م)، أنظر: الأعيان، م ٦، ص ١٣٦.

الأول تدريس السطوح وهو القراءة من الكِتاب، ولكلّ علم من العلوم كتب مخصوصة يُدَرّس فيها ذلك العلم، فيقرأ المدرس عبارة الكتاب ويفسّرها للطلاب. وإن كان له نظر خاصّ واعتراض بيّنه ومن كان له من الطلاب قابليّة الردّ عليه ومباحثته، ردّ عليه وباحثه. فيقرأون أوّلاً النحو والصرف ثمّ البيان والمنطق ثم الأصول والفقه في كتب مخصوصة لهذه ومنهم من يقرأ علم الكلام الإلهي وحده أو الطبيعي والإلهي.

الثاني تدريس الخارج أي الخارج عن الكتاب؛ وهو إلقاء الدرس بدون كتاب. وهذا يكون في عِلْمَي الأصول والفقه لنيل درجة الاجتهاد لمن وفّقه اللّه لذلك. فيُلقي الشيخ مسائل أصول الفقه واحدة بعد الأخرى ويذكر أقوال العلماء فيها وحججهم ويفنّدها ويختار أحدها ويصحّح دليله ويحتجّ عليه، ويناقشه الطلاّب ويجيبهم ويردّون عليه ويردّ عليهم وكذلك الفقه، ويذكر الفرع الفقهيّ وأقوال العلماء فيه وأدلّتهم من الأخبار[٢٥] وغيرها وإجماعهم، ويناقشه الطلاّب على نحو ما مرّ في علم الأصول، وهكذا حتى تنتهي مسائل الباب الذي شرع فيه، فينتقل إلى باب آخر. وهذا القسم يكون التدريس فيه بعد الفراغ من القسم الأول وهو تدريس السطوح.

تنظيم الدروس

الدروس منظّمة تنظيماً طبيعياً بحسب الكتب وبحسب السطح والخارج. ففي النحو والصرف مثلاً يُبدأ بقراءة كتب مخصوصة وبعد إتمامها يُنتقل إلى غيرها وهكذا باقي العلوم. ويُبدأ بالنحو

(٢٥) الأخبار: ما رُوِيَ عن النبي والأئمة من أحاديث.

والصرف وبعد إكمالهما يُنتقل إلى البيان والمنطق وبعد إكمالهما يُنتقل إلى الأصول والفقه سطحاً وبعد الفراغ منهما يُنتقل إلى الأصول والفقه خارجاً. وهذا ترتيب جيّد نافع، إلاّ أن تطبيقه راجع إلى الطلبة أنفسهم. فمنهم من يُوَفَّق إلى تطبيقه تطبيقاً تاماً فلا يقرأ في كتاب حتّى يُتِمّ ما قبله ويُتقنه، ولا في علم حتّى يفرغ من الذي قبله ويتقنه، ولا يقرأ درس الخارج حتى يفرغ من السطوح. وكثير منهم لا يطبّق هذا البرنامج فيشرع في الكتاب المتأخّر قبل إكمال المتقدم وفي درس الخارج قبل إتقان السطوح، فلا يستفيد شيئاً أو يستفيد فائدة قليلة في مدّة طويلة.

وهناك خلل آخر يحصل من اختيار الشيوخ. فلا يكون الشيخ صالحاً لتدريس هذا الفنّ أو لا يكون صالحاً للتدريس أصلاً ويغترّ به الطلاب لكنّ هذا قليل والخلل السابق أكثر منه.

وليس هناك من يُجبر على تطبيق هذا البرنامج ولا على اختيار الشيوخ الصالحين للتدريس. ولا يمنع شيخ أحداً من درسه إن لم يكن من أهله، هذا إن لم يُرغِّبه فيه حبّاً بتكثير السواد. وليس هناك امتحان تُرتَّب الدروس على حسبه.

وهناك خلل ثالث في الدروس الخارجيّة وهو أن المتأخِّرين من أهل عصرنا وما قاربه اشتغلوا في تحرير محلّ النزاع[٢٦] فصرفوا في تدريسه شهوراً وأيّاماً، وفي التعريفات فقالوا إنها غير جامعة أو غير مانعة فزادوا عليها، فجاء الاعتراض من جهات أخرى. وأول من انتبه لذلك شيخنا الشيخ ملاّ كاظم الخُراساني فقال في تحرير محلّ النزاع: إن كان في كذا فالحق كذا، وإن كان في كذا فالحق

(٢٦) تحرير محلّ النزاع: تبيان موضع الخلاف.

كذا. وقال في التعريفات: إنها لفظيّة كقول اللغويين: «سعدانة نبت». فلا يلزم كونها جامعة مانعة.

وخلل رابع وهو إدخال مسائل الكلام في علم أصول الفقه.

وخامس وهو التطويل في مسائل من علم الأصول فرضيّة لا فائدة فيها كدليل الانسداد وتعارض الأحوال[٢٧] وغيرها بل في جميع مسائل الأصول.

وسادس وهو إهمال علم الحديث وتصحيح الأسانيد والاكتفاء بتصحيح من سبقهم.

وسابع وهو عدم إتقان اللغة العربية ومعرفة خصوصياتها ودقائقها لا سيما من الأعاجم.

أيام التعطيل

تُعطّل الدروس في النجف في يومي الخميس والجمعة، بل في الحقيقة يوم الخميس فقط لأن الجمعة يُشْتغَل فيه بعد الظهر بمطالعة دروس يوم السبت. وتعطّل الدروس في شهر رمضان وأكثر شهريْ رَجَب وشعبان. ولا تُعَطّل في الصيف. ومن الشائع أن التحصيل بين تعطيلين غير مُستحبّ. ولهذا قال بعض الظرفاء لمّا سُئل عن كيفية تحصيله: يومٌ أنا في الحمّام ويومٌ شيخي في الحمّام ويومٌ خلقي ضيق ويومٌ شيخي خلقه ضيّق ويوم خميس ويوم جمعة ويوم تحصيل بين تعطيلين وتمّ الأسبوع.

---

(٢٧) دليل الانسداد: نوع من الأدلة التي يؤخذ بها حُجّة إذا انسدّ باب القطع أو اليقين القائمَيْن على البيّنة أو الرؤية، فيؤخذ بالظن الخاص أو العام. تعارض الأحوال: إذا تعارض دليلان صحيحان فإما أن يُسقَط واحد منهما ويؤخَذ بالآخر أو أن يُسقطا معاً ويُرجَع إلى الأصل في المسألة المطروحة.

الإجازة

منها إجازة الرواية[٢٨] وهذه لا يشترط في المجاز بها أن[٢٩] يكون مجتهداً. ومنها إجازة الاجتهاد؛ وهي شهادة بأن المجاز صار له ملكة استنباط الفروع من الأصول وأنه ثقة عدل يصحّ أخذ الأحكام عنه. ويُعرف ذلك بالممارسة لا سيما إن كان من تلاميذ المجيز.

مشاهير العلماء في العراق أيام كنّا في النجف

فمن العَجم الشيخ ملاّ كاظم الخُراساني[٣٠] والشيخ أقا رضا الهمذاني[٣١] والشيخ عبد الله المازنداراني[٣٢] والسيّد كاظم اليزدي[٣٣] والميرزا حبيب الله الرَّشْتي[٣٤] والميرزا حسين بن الميرزا خليل الطهراني[٣٥]. ومن الترك الشيخ حسن المامَقاني[٣٦] والملاّ

---

(٢٨) إجازة الرواية تجيز لحاملها أن ينقل عن شيخ ما تلقّاه منه من علم.

(٢٩) في الأصل «ألاّ يكون مجتهداً».

(٣٠) ملا كاظم الخراساني (ت. ١٣٢٩هـ/١٩١١م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٩، ص ٥ - ٦.

(٣١) أقا رضا الهمذاني (ت. ١٣٢٨هـ/١٩١٠م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٧، ص ١٩ - ٢٧.

(٣٢) عبد الله المازنداراني (ت. ١٣٣٠هـ/١٩١٢م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٨، ص ٦٩.

(٣٣) كاظم اليزدي (ت. ١٣٣٧هـ/١٩١٩م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ١٠، ص ٤٣.

(٣٤) ميرزا حبيب الله الرشتي (ت. ١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٤ ص ٥٥٩ - ٥٦١.

(٣٥) ميرزا حسين بن خليل الطهراني (ت. ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٦، ص ١٠.

(٣٦) حسن المامقاني (ت. ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٥، ص ١٥٠ - ١٥١.

محمّد الشرابياني[٣٧]. وكلهم مدرسون وغيرهم كثيرون يعسر إحصاؤهم وقد يكون فيهم مَن لا يقصّر عن بعض من ذكرناه أو يساويه. ومن العرب الشيخ محمّد طه نجف النجفي[٣٨] وهو وإن كان أصله من تبريز إلاّ أن آل نجف استعربوا، وهو رئيس المدرّسين من العرب، والشيخ علي رُفَيْش[٣٩] وهو مدرّس، والسيد محمّد، ابن السيد محمّد تقي الطباطبائي آل بحر العلوم[٤٠] وبيده المال المعروف بـ «فلوس الهند» وهو مدرّس. والشيخ عبّاس الشيخ علي[٤١] والشيخ عبّاس الشيخ حسن[٤٢] كلاهما من أحفاد الشيخ جعفر صاحب «كشف الغطاء». والسيّد حسين القزويني[٤٣] والشيخ محمود الذهب[٤٤] وغيرهم كثيرون لا يتّسع المقام لاستقصائهم ولعل فيهم من يفوق بعض من ذكرناه أو يساويهم.

هذا في النجف. أما في غيرها، ففي سامراء رئيس الكلّ الميرزا

(٣٧) الملاّ محمد الشرابياني (١٢٤٤هـ/١٨٢٩م - ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م). كان مرجعاً بعد حسن الشيرازي وليس له ترجمة في **الأعيان** ولا في **نقباء البشر**.

(٣٨) محمد طه نجف (ت. ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٩، ص ٣٧٥.

(٣٩) علي رُفَيْش (ت. ١٣٣٤هـ/١٩١٦م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م٨، ص ٣٦٩.

(٤٠) محمد بن محمد تقي الطبطبائي آل بحر العلوم (ت. ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٩، ص ٤٠٨ - ٤٠٩. كانت بيده حصة النجف من دراهم الهند (المعروفة بفلوس الهند). وبقيت بيده ثم وزعت من قبل الإنكليز بأيدي مجتهدي النجف، فقبلها قوم ورفضها آخرون. فبقي بيده ما بيد أحدهم.

(٤١) عباس الشيخ علي (ت. ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م)، أنظر ترجمته في **نقباء البشر**، م ٤، ص ١٠٠٧ - ١٠٠٩.

(٤٢) عباس الشيخ حسن (ت. ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٧، ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٤٣) حسين القزويني (ت. ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٦، ص ١٧٦ - ١٧٨.

(٤٤) محمود الذهب (ت. ١٣٢٥هـ/١٩٠٦م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ١٠، ص ١١٠.

السيّد محمد حسن الشيرازي[٤٥]، وفي كربلاء الشيخ زين العابدين المازندراني[٤٦]. وفي الكاظميّة الشيخ أسد اللّه التّستري[٤٧] والشيخ محمّد ابن الحاج كاظم[٤٨]، والسيّد مهدي الحيدري[٤٩] والسيّد إسماعيل الصدر[٥٠]، والسيّد حسن الصدر[٥١]، والشيخ مهدي الخالصي[٥٢]، وغيرهم كثيرون.

الشيخ حسن المامَقاني

هذا الرجل من علماء الترك كان حسن الأخلاق جدّاً صاحب نكتة وظرافة، لكنه يُظهر الغضب والشدّة والعنف لمصلحة. اجتمعتُ به عدة مرات، منها في مسجد الشيخ جعفر وكان يدرّس فيه، فتكلّم رجل من ضعفاء العرب بعيدٌ عن العلم فقال الشيخ: **خدابيا مرزد صاحب شمسية را**[٥٣] رحم الله صاحب الشمسية.

---

(٤٥) محمد حسن الشيرازي (ت. ١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٥، ص ٣٠٤ - ٣١٠.

(٤٦) زين العابدين المازندراني (ت. ١٣٠٩هـ/١٨٩١م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٧، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٤٧) حسن التُّشتَري (ت. ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٩، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٤٨) محمد ابن الحاج كاظم، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ١٠، ص ٤٣.

(٤٩) مهدي الحيدري (ت. ١٣٣٦هـ/١٩١٨م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ١٠، ص ١٤٣.

(٥٠) إسماعيل الصدر (ت. ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٣، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٥١) حسن الصدر (ت. ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٥، ص ٣٢٥ - ٣٣٠.

(٥٢) مهدي الخالصي (ت. ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ١٠، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٥٣) أضفنا «أي» على الأصل. والشمسية رسالة في المنطق تُدرّس في النجف مما يعني أن كلام الرجل لا منطق فيه.

وقال في ذلك المجلس: «خطيب أصوليين وشاهزاده شيرين صاحب المعالم فرمود» قال: وأمر خطيب الأصوليين والأسد بن الأسود[٥٤]. وكان يُدرّس مرة وتكلّم بعض الطلبة، واتفق أن سقّاءً ضاع له حمار فكان ينادي في الزقاق: «يا من شاف مطي أبيض». فقال الشيخ للطالب: اسكت لئلاّ يظنّك أنت فيأخذك. ومنها أنّه كنّا في مجلس فيه الشيخ فقال: أنا كنت فقيراً وإذا حصل بيدي خبز وجبن أعدّها نعمة كبرى، فلمّا تزوجت العلويّة ـ وكان متزوجاً بعلويّة عربيّة ـ درّت عليَّ الأرزاق فصرت آكل شلّة الماش[٥٥]. ومنها أنه جاء لوداع رجل تركي يريد السفر، لنا به علاقة نسائية، يُسمى الشيخ عبد النبي، فجرى ذكر ابن أبي الحديد فقال: يقولون إنه شيعي وكان يتستّر بالاعتزال. فقلت: هذا ما لا يصحّ لأنه صرّح بالاعتزال في شعره فقال:

ورأيــت ديــنَ الإعــتــزال وإنّــنــي
أهــوى لأجـلِـكَ كـلّ مـن يـتـشـيّـعُ[٥٦]

وفي مؤلفه **شرح النهج**. ولم يُسمع أن أحداً من علماء الشيعة أظهر خلاف معتقده في كتاب أو شعر قد يظهر ذلك في كلامه. فقال: نعم الأمر كما قلت.

وكان يصل بعض العلويّات الفقيرات من أرحامنا بواسطة الشيخ عبد النبي المقدَّم ذكره، فلمّا أراد الشيخ عبد النبي السفر قال له:

---

(٥٤) في النص الفارسي «شاهزاده شيرين» أي الأميرة «شيرين» لم تترجم إلى العربية، وحلّ محلها: الأسد ابن الأسود. وعلى ما يظهر أن الشيخ يهذر في الكلام هزءاً بأحد تلاميذه.

(٥٥) نوع من الحبوب أصغر من العدس شائع في العراق رخيص الثمن.

(٥٦) يتوجّه الشاعر إلى علي. أنظر **القصائد السبع العلويّات**، لعبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، مطبعة العرفان، صيدا ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، ص ٨٦ ـ ١٠٩.

دلّني على من أوصل ذلك بواسطته. فدلّه عليٌّ وكان لا يعرفني لأنّني لا أتعرّف إلى من لا أستفيد منه علماً. فقال: أريد أن أراه. فقال: آتي أنا وهو إلى داركم. فقال: هذا ما لا يكون لأن فيه حزازة على السيّد. فقال: نأتي بعد الصلاة. قال وهذا أيضاً فيه حزازة عليه. قال: فما الحيلة في ذلك؟ قال: نذهب إليه نحن. قال: متى يكون ذلك لأخبره فلا يخرج من الدار؟ قال: هذا فيه مشقّة عليه ولكن متى كنت ذاهباً إلى مكان وحاذيت داره فأخبرني لنأتي إليه بدون خبر. فاتّفق أنه كان ذاهباً مرة وحاذى دارنا فأخبره فمنعه ولده من المجيء إلينا لعذر خلقه، ثم لما حضرنا لوداعه أخبره عنّي بالتركيّة.

جملة ممّا اتفق لنا ونحن بالنجف من النوادر والحوادث

في أول يوم انتقلنا فيه إلى محلة الحُوَيْش ذهبت للسوق فاشتريت لحماً وجئت لأشتري باذنجاناً. وكنت أعلم أنه رخيص فأعطيت بائعه أقل ما يُتَموّل به وهو فلس نحاسي سكة إيران يُسمى نصف بول يعادل خُمس المتليك العثماني تقريباً، وكانت السكة الإيرانية شائعة في العراق، فملأ الميزان من الباذنجان فقلت له: أنا أُريد بهذا الفلس. فظنّ أنّي استقللته فقال لي: إنه لا يساوي أكثر من هذا. وذكّرتني هذه القصة بما جرى لرجل دمشقي كان ذاهباً لزيارة الرّضا عليه السلام ومعه فرسه فمرّ بكرمانشاه فرأى بائع بطيخ فأعطاه نصف قِران(٥٧) وظنّ أنما يعطيه به بطّيخة واحدة، فأعطاه أربعَ عشرة بطيخة فقال له: أنا أريد بنصف قِران فقال: لا يكون لك به أكثر من هذا. فحمل البطيخ على الفرس وذهب ماشياً.

---

(٥٧) القِران: جزء من الريال قليل القيمة.

وفي اليوم الثاني جاءني رجل عاملي عند الظهر من أرحامنا وكنت أعرف من عادته أنه يزور في غير وقت الزيارة ويطيل الجلوس بغير فائدة. فتناولت المدارك[٥٨] لأنه لم يكن عندي ساعتئذٍ غيرها وطلبت منه تفسير عبارة فيها فقال: ليس هذا وقت تفسير. قلت له: ليس للتفسير وقت. وشرعت في قراءة العبارة فلم يجد بداً من تفسيرها ففسّرها، فقرأت له عبارة ثانية وطلبت تفسيرها وهكذا فضجر وقام. وبعد يومين أو أكثر جاءني في مثل ذلك الوقت فعرفت الدواء فقام ولم يعد.

الحاج أحمد الخباز

وبعدما دفعنا أجرة الدار واشترينا بعض الأثاث والمؤونة نفد ما معنا من الدراهم. وكان الوالد قال لنا إنه عند وصولنا للنجف ستلد الفرس بمشيئته تعالى ويبيع فَلوها ويرسله لنا فكان الأمر كذلك. ولدت فَلواً من البغال باعه بستّ ليرات ذهبية أو أكثر وسلّمها للخال ليرسلها إلينا لأنه لم يجد أقرب منه ولا أشفق منه علينا. والظاهر أن الخال احتاجها ونسي أنّنا في غربة وأنّنا في مسيس الحاجة إليها فصرفها ولم يرسل لنا منها شيئاً. وجاءنا كتاب الوالد يخبرنا بإرسالها وجاء البريد فلم نجد لها أثراً وانتظرنا مدة فلم تحضر وطولب الخال بها فلم يُجِب[٥٩] ولم تُحَصَّل منه إلاّ بعد سنين عديدة. وضاق بنا الأمر ولم نتعوّد أن نخبر أحداً بحاجتنا فضلاً عن أنْ نطلب منه ولو قرضاً. ولكن الله تعالى أبى أن يُحْوِجنا لغير وجهه الكريم وجعل يفتح لنا أبواب الرزق الكفاف من حيث لا

(٥٨) مدارك الأحكام، لمحمد بن علي الموسوي العاملي (ت. ١٠٠٨هـ/١٦٠٠م)، وهو شرح لأبواب شرائع الإسلام في العبادات.

(٥٩) في الأصل: «فلم يجد».

نحتسب ومن حيث لا يكون لأحد علينا مِنّة. فقيل لنا: إنّ هنا خبّازاً إيرانيّاً يُسمى الحاج أحمد، دكّانه في الزاوية التي هي في الفسحة أمام باب القبلة للصحن الشريف. فجئنا إليه فوزن لنا خبزاً وطلب الثمن فقلنا: اجعله دَيْناً. فتناول عوداً من خشب الصفصاف من حزمة بجنبه وبرى طرفها كَبَرْيِ القلم ورسم عليه علامة بالمداد لئلاّ يتبدّل. وكان يفرض للأوقية التي هي خَمْس أواق إستانبول، فرضاً واحداً، ولنصف الأوقيّة نصف فرض، فإذا جاء نصف أوقية آخر أكمل الفرض. والخبز عنده قسمان: عادي وأعلى يُسمّى خبز مهدي. والطلبة مزدحمون عليه ودفتره عيدان الصفصاف بيد كلّ واحد عود كالذي أعطاني إيّاه وعليه علامات كمثل علامته كي لا تُبدّل. واستمر بنا الحال على هذا المنوال. وكنت أضع ذلك العود في جيبي فانخرق الجيب وسقط العود منها ولم أشعر به. وعظم الخطب لأنّي لم أعلم ما يكون موقف الحاج أحمد منّي إذا علم بضياع العود الذي هو الدفتر الوحيد. ولكن الحاج أحمد كان حسن الأخلاق رضيّ الطبع قد سخّره الله تعالى لمعونة الطلاّب المعوزين بإمهالهم بثمن الخبز الذي هو عمدة القوت. فتوجّهت إليه متّكلاً على اللّه مفوّضاً إليه أمري مشجّعاً نفسي على الإقدام، حاسباً لغضب الحاج أحمد ألف حساب. فوزن الخبز وطلب منّي العود. فقلت له ـ والخوف آخذ منّي مأخذه ـ قد ضاع. فلم يتأثر وقال لي: كم فيه من الخطوط؟ قلت: لا أدري. قال: كم تحدس أن فيه؟ قلت: كذا، فأخذ عوداً وخطّ فيه كما قلت له وأعطاني إياه وأوصاني أن لا أضيّعه. فرحمك اللّه يا حاج أحمد وأسكنك جنّته بما صنعته معي.

هذا ما كان من أمر الخبز. ولكن الخبز وحده غير كافٍ وما حال باقي الأشياء. وجاءني يوماً السيد مصطفى مرتضى ابن عمّنا وقال:

يوجد عبادة عن تاجر بغدادي أجرة السنة ستّ ليرات عثمانيّة مشروط فيها الأذان لكلّ ورد والإقامة لكلّ فرض والقصر والتمام، فهل تأخذ منها سنة؟ قلت: يكفيني نصف سنة، فأحضر لي أجرتها ثلاث ليرات عثمانية وطال المدى بإكمالها ولعله استغرق سنة.

واشتريت خاشيّة (عباءة رقيقة) باثني عشر قِراناً إيرانياً وخيّطتها بقران واحد. واشترى أحد رفقائنا خاشيّة رقيقة جداً بليرة إفرنسيّة ذهباً، فكان إذا أراد الجلوس في الصحن يضعها على ركبتيه ويجلس القرفصاء. أما أنا فأجلس عليها وأحمل بها ما أشاء وحالتي المالية أحسن منه.

وبعد ورودنا النجف بمدة قليلة سافر السيّد حسن يوسف العاملي الحبّوشي إلى جبل عامل وسكن النبطية التحتا وبعده بمدّة يسيرة سافر السيّد جواد مرتضى العاملي والشيخ حسين المحمّد العاملي الجبعي، وكل هؤلاء مترجمون في كتابنا «أعيان الشيعة»[٦٠].

ومن طريف ما اتّفق لي بالنجف أنّني كنت أمشي وأمامي اثنان من العجم من طلبة العلم، وبائع العنب ينادي: «صايِرْ كباب العِنَب» فقال أحدهما للآخر: «صاير كباب العنب يعني جه؟» يقول متعجباً: كيف يصير العنب كباباً والعنب ثمر الكرم والكباب شواء من اللحم. وإنما أراد البائع أن العنب ناضج فشبّهه بالكباب.

وكان عاملي يدور على العامليين يوم مجيء البريد فيسألهم عن الأخبار ويسألني فيمن يسأل فأقول له: إن كتبي كلها إنشاء وليس فيها أخبار. وأتعجّب من حماقته. واتّفق لهذا الرجل أن مرضت

(٦٠) حسن يوسف مكّي (١٢٦٠هـ/١٨٤٤م - ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م). أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٥، ص ٣٩٤ - ٣٩٥. مرتضى (١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م - ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٥، ص ٤٧٧.

زوجته فذهب بها إلى ميرزا باقر الطبيب. فكتب لها صفة دواء في ورقة وقال: إغْلِها واسقها إيّاها. فتوهّم أن مراده غَلي الورقة فغلاها وسقاها ماءها فبقيت على حالها، وأخبره أن دواءه لم ينفع. فقال: مرادي أن تغلي الدواء المكتوب فيها لا الورقة. وذهب يوماً إلى الحمّام ونسي الوزرة تحت ثيابه ولم يشعر بها حتى خرج. وجعلت تعوقه عن المشي فخجل من إرجاعها وأبقاها إلى مرّة أخرى.

وجاءني في النجف عامليّ، يقول: فلان من العجم يباحث ليلاً في الأصول ويرغّبني في حضور درسه. فحضرت فلم يعجبني بحثه إلى أن قال مرّة: العلّة متقدمة على المعلول. قلت: في الرتبة؟ فقال: بل في الزمان. قلت: العلّة المركّبة. فقال: والبسيطة. فتركت درسه(٦١).

وجاءني آخر فقال: فلان من العرب يباحث في الفقه وهو جدّ فقيه. فوجدت أنّه لا يحضر درسه إلاّ هو واثنان من العامليين من نوعه وبعض الشروقيين(٦٢). فقلت له: إن أعمى تزوج بمبصرة فقالت له: وددت لو أنّك كنت بصيراً لترى جمالي وصباحة وجهي. فقال لها: لو كنتِ كما تقولين لما تركَكِ البصراء تصلين إليّ: ولو كان هذا الشيخ كما تقولون لما انحصر تلاميذه في هؤلاء.

وجاءني نجفيّ يطلب إليّ حضور درسٍ بيد صاحبه الأموال المسمّاة «فلوس الهند»، فقلت: لا أحضره. قال: أليس صاحبه من أفاضل

(٦١) في اعتقاد محسن الأمين أن هذا التعليل باطل لأن العلة البسيطة الأولى هي الله. وهو لا يُحدّ بزمان. أما الإنسان، وهو المعلول الأول، فأعماله مركّبة ومتسلسلة في الزمان.

(٦٢) الشروقيّون: سكان شرق النجف وكانوا موضع سخرية لاشتهارهم بالجهل حتى أن علي الشرقي، وهو شاعر ووزير، بدّل اسمه من الشروقي إلى الشرقي.

العلماء؟ قلت: بلى، ولكن بيده فلوس الهند ولا أرضى لنفسي حضور درس فيه طمع بالمال. قال: إن فلاناً وفلاناً من العامليين يحضرونه. قلت: لهم شأنهم.

وعمل السيّد حسن عبد العزيز وليمة لختان أولاده الذين هم من ابنة السيّد كاظم ابن عمّ والدي. فدعانا إليها، فجلست في إيوان ومقابلي بعض علماء النجف من العرب من أبناء العلماء وفي الإيوان الشيخ محمّد اللايذ. فقال له ذلك العالِم: لماذا سمّوكم بيت الصقيل؟ فغضب وشتمه شتماً قبيحاً وقال له: يا رذيل.

وفي اليوم الثاني تعرّض للشيخ محمّد جماعة من أتباع العالِم فأهانوه، ولم أعرف سبب غضبه من ذلك.

وكان الشيخ محمد اللايذ هذا لا يزال في حوانيت الكُتُبيّة يطالع، وإذا حضر في مجلس يذكر من أخبار الأئمة. وكان عنده اطّلاع على أخبار العلماء العراقيين والأمراء، فسمعته يوماً يقول: كان لملاّ حسين الحلّي، شاعر وادي شيخ زُبَيْد، صديق من عرف زُبيد يُسمى حمزة، وكان ملاّ حسين يزوره فيكرمه حمزة. فجاء مرة فلم يجده ووجد زوجته واسمها منصورة فأكرمته وقامت بضيافته. فقال يمدحها بالزجل العاميّ المسمّى في العراق مَيْمَر:

قلبي يحب زبيد أنا، من صوره
والهم[٦٣] جيوش عالعدى منصوره
وإن غاب حمزة خلفته منصوره
تعيض عن كل الرجال وتستر

فقالت له منصورة: يا ملاّ حسين الرجال ما يسدّ ثناياها غيرها، ولكن قل عن بعض الرجال.

---

(٦٣) «من صوره» أي من وجوهه. و«أنا» تتبع الجملة الأولى. «والهم» أي وَلَهُم.

السيّد حسين الصائغ

كان السيّد حسين من أهل العلم والتقوى والصلاح. وكان صائغاً لا يصوغ إلاّ الذهب ولا يأتمن الناس سواه ومن يأتمنه هو. وكان عنده من جميع النقود القديمة لا سيّما الإسلاميّة. وكان أعرف الناس بقراءة الخط الكوفي. وكان عنده الدينار الذي هو الذهب الصيني العتيق المُسمّى في العراق «أبو لُعَيْبة» الذي هو مثقال شرعيّ. وأخبرني أنه يوازن نصف ليرة عثمانيّة ذهبيّة. وكان عنده مجلس ليلة الأربعاء يُقرأ فيه خبر المأتم الحسنيّ ويُدعى فيه جماعة للعشاء ويكون اللحم كثيراً والطعام جيداً على عادة العراقيين في الكرم. وكان كثيراً ما يدعو ابن عمنا السيّد جواد[٦٤] حفيد صاحب **مفتاح الكرامة**. وللسيّد حسين ولد اسمه السيّد هادي كان يومئذٍ صغير السنّ يشتغل بعلم النحو وهو اليوم من أفاضل العلماء. وكان السيّد جواد كثيراً ما يقول للسيّد حسين من باب المطايبة: ما بال اللحم قليلاً كأنّك اشتريت العظام من صانع الكباب. وأمثال هذا الكلام. فحلف السيّد أنّه إن تكلّم بمثل هذا الكلام لا يدعوه أبداً. فدعاه ليلة على هذا الشرط، وكان يطلب منه أن يسأل ولده في النحو فطلب منه ذلك تلك الليلة فقال له: كيف تعرب لنا: «لحمنا قليل». فوثب السيّد حسين وقال له إرفع يدك من الطعام فقد أخللت بالشرط.

وكنت يوماً عنده في دكّانه فجاء أخوه وهو كفيف البصر فقال لي: هذا أخي وله نادرة طريفة؛ كانت لنا أُخت مزوّجة بابن عمّ لنا وكان يؤذيها ونحن في جواره فنسمع ذلك ونسكت ـ لأن

(٦٤) جواد الأمين (١٢٨٢هـ/١٨٦٥م ـ ١٣١٨هـ/١٩٠١م)، توفي بالحمّى وهو ما يزال شاباً كما سنرى. أنظر ترجمته في الأعيان، م ٤، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦.

للنجفيّين عادة جميلة في أمر النساء لا يتدخلون بين المرأة من أقربائهم وزوجها، بل لم أسمع مدّة وجودي في النجف أن امرأة لرجل هي من أهله طُلِّقت ـ قال: واتفق أنها ماتت فجعلتُ أبكي. فقال لي أخي هذا وهو أكبر مني: حسين! أتبكي؟ أنسيتَ ما كان يجري على أختنا؟ واللّه إن عزرائيل ما له «دقّة» مثل هذه «الدقة» ـ أي ما صنع جميلاً مثل ما صنع هذه المرة ـ قال: وجاءني رجل بفصّ خاتم من الفيروزج عليه كتابة كوفية وطلب مني قراءته فقرأته وقلت له: مكتوب عليه «سبحان خالق الثور» بالثاء المثلثة. فقال لي: لا يمكن هذا فإن الثور ليس من مخلوقات اللّه العجيبة ويوجد أعجب منه. فقلت: هكذا مكتوب. فأخذه إلى شخص هو دوني في قراءة الخط الكوفي بمراتب فقال له: مكتوب عليه «سبحان خالق النور» بالنون. فعاد إليّ وأخبرني بذلك. فقلت له: أنا أخبرتك بأني أقرأ الخطّ الكوفي ولم أخبرك بأني حادّ الفهم، وهذا أمر يرجع إلى الفهم لا إلى المعرفة بالخطوط. وطلبت منه وأنا بالشام أن يرسل لي وزن الدينار الشرعيّ الذي هو مثقال شرعيّ ويوازن الذهب الصينيّ المسمى في العراق «أبو لُعَيْبَة»، فأرسل لي أنّه يوازن نصف ليرة عثمانيّة ذهبيّة وأرسل لي قطعة قال إنّه وزنها عليه فوجدتها كذلك.

ومن نوادره قال: لقيني رجل في الصحن الشريف فقال لي: سلام عليكم. فنسيت جوابها وقلت في نفسي: جوابها صبّحكم الله بالخير؟ لا. هنّأكم اللّه؟ لا. فوضعت يدي على صدري وذهبت.

الشيخ محمّد الحكّاك

وكنا ندرس يوماً في إيوان في الصحن الشريف وفي جانب الإيوان رجل يُسمّى الشيخ محمّد الحكّاك تمتام يفسّر الأحلام ويحفر

الأختام. وتعبير الحلم يكون بربع إستانبولية[٦٥] سكّر نبات. فجاءه معيديّ وأعطاه متليكاً ليحفر له ختماً، فسأله عن اسمه فقال له: حنتوش بن عنكوش. والظاهر أنه نسي الاسم فحفر له اسم: منتوش بن منكوش. وجاء المعيديّ وأخذ الختم وأعطاه لمن طبعه له على الكاغد وقرأه له فإذا فيه غير اسمه واسم أبيه. فرجع على الشيخ محمّد وقال: لماذا حفرت لي غير اسمي واسم أبي؟ فقال: أنت قلت لي هكذا. قال: لا لم أقل. وبالطبع كان المعيديّ أعرف باسم نفسه واسم أبيه من الشيخ، وطال الجدال بينهما إلى أن قال المعيدي: أنت يا شيخنا ما أدري كيف تتكلم. لأنه تمتام. فقال له الشيخ: ويلك! أنا أسمع بأذني لا بفمي. وأخيراً أذعن الشيخ للأمر الواقع ومسح الكتابة الأولى بالمبرد وحفر ثانياً حنتوش بن عنكوش وكفى الله المؤمنين الجدال.

الشيخ جواد البلاغي

وكان الشيخ جواد البلاغي الفاضل المشهور يجلس إليّ كثيراً. فقال لي يوماً: أنا أريد أن أصحبكم. وكنا جماعة من العامليّين إخوان الصفا نجتمع سفراً وحضراً ولا نخالط أحداً لا من بقيّة العامليّين ولا من غيرهم. فقلت: حتّى أعرض ذلك على أصحابي. فعرضته عليهم فأبوا وقالوا: لا نريد أن نخالط غيرنا. فقلت لهم: زهدكم في راغبٍ فيكم كرغبتكم في زاهدٍ فيكم، فقبلوا. وأردنا السفر لزيارة كربلاء فسافر معنا وكان الفصل شتاء فشربنا الشاي مساء وقمنا أول الفجر فصلّينا وتهيّأنا للسفر فقال لي: ما تريدون شرب الشاي. قلت: لا. وكان معتاداً على شرب الشاي صباحاً

(٦٥) الإستانبوليّة: نوع من الطاس.

ومساء، وأنا حملت سؤاله على الاستفهام الحقيقيّ قياساً على نفسي فسكتُّ. وسرنا، فلمّا كان عند العصر دنا مني وقال: أتدري ما صنعت بي؟ إنّني لم أعد أنظر ببصري. فقلت: أنت صنعت بنفسك هذا. فلمّا كان اليوم الثاني سألني فقلت: نعم. وعجبت كيف يدع الإنسان العادة تملكه وتحكم عليه ولا يدع نفسه حرّاً طليقاً لا يحكم عليه أحد باختياره.

وكنت يوماً في السفينة في طريق كربلا مع جماعة من الطلبة الإيرانيين فقال أحدهم: العامليّون يأكلون اللحم النيّ. فقلت: أكْلُه خير من أكل السمك المقدّد المتروك أياماً حتى ينتن. وذلك أنّهم يأتون بصغار السمك فيملّحونه ويضعونه في حُبّ كما هو ويتركونه حتى ينتن، فإذا وُضِعَت المائدة أتوا بيسير منه في إناء صغير ووضعوه على المائدة وتناولوا منه أثناء الأكل. والمائدة التي ليس عليها منه تُعدّ ناقصة. وفي الحُبّ خشبة إذا أرادوا الأخذ منه حرّكوا ما فيه بتلك الخشبة حتّى يختلط ثم أخذوا منه. واتّفق أن ضافهم رجل، فقام ليلاً لقضاء الحاجة فلم يهتد إلى بيت الخلاء. ودنا من حجرة صغيرة فشمّ منها رائحة نتنة فظنّها بيت الخلاء فدخلها فلم يجد محلاً للتخلي. ورأى حُبّاً صغيراً والرائحة الكريهة تتصاعد منه فظنّه محل التخليّ، فتخلّى فيه. وفي الغد جيءَ بالسفرة وذهب رجل إلى ذلك الحُبّ وضرب فيه بتلك الخشبة حتّى اختلط، وجاء بشيء منه ووضعه على السفرة كالعادة وتناول منه الحاضرون أثناء الأكل. فلما قلت ذلك ضحك الجميع إلاّ واحداً اصفرّ وجهه. فقالوا لي: هذا جرى في رَشْت وهذا الشيخ رَشْتيّ.

الزُكُرت والشُمُرت

طائفتان في النجف بينهما عداوة قديمة سببها أن سيّداً كان يسكن الرُّحبة، بضم الراء، وهي مكان خارج النجف فيه عيون، وله أخت اسمها أم السعد خطبها خاطب فلم يزوّجها. فشكا أمره إلى الشيخ جعفر(٦٦) الفقيه النجفيّ الشهير. فأرسل جماعة ليأتوه بالسيّد، فنهاه صاحب **مفتاح الكرامة** وقال: إن أرسلتهم لتقعنّ فتنة يطول أمدها. فلم يقبل وأتوا إلى السيّد فامتنع عن الحضور معهم. وأرادوا أخذه قهراً فانتهى الأمر إلى قتله. وبقيت هذه الفتنة إلى دخول الإنكليز العراق. وخربت الدار التي كانت تسكنها أم السعد وبقيت خراباً إلى عصرنا. وأهل النجف يسمّونها خرابة أم السعد. وبلغني أنها عُمّرت في هذه الأيام. والنجف فيها أربع محلات: محلّتان يقطنهما الزُكُرت: العمارة والحُوَيش، ومحلّتان يقطنهما الشُمُرت: البُراق والمُشْراق. ولا تزال تقع بينهما ثورات وحروب. ووقع بينهما حرب أوائل مجيئنا للنجف، ولا أتذكّر الآن في أي سنة كان. وسببها أن الشمُرت أكثرهم يسكنون خارج النجف والزكُرت جُلّهم يسكن النجف. فجاء الشمُرت ليلة يدفنون ميّتاً لهم في وادي السلام (مقبرة النجف)، فعلم بهم الزكُرت، فخرجوا لمنعهم. وكان شابّ من الزكُرت أراد الخروج فتعلّقت به أمه، فأفلت منها وخرج مع القوم فقُتل وذلك قُبَيْل الفجر. وعاد الزكُرت حينئذٍ، ودفن الشمُرت ميّتهم وعادوا. وفي اليوم الثاني عاد الشمُرت وهجموا على السوق. وكان السيّد محمّد علي الملقب بطبّار الهوى رئيس زُكُرت العمارة جالساً في المقهى فولّى هارباً.

---

(٦٦) جعفر كاشف الغطاء (١١٥٤هـ/١٧٤٣م - ١٢٢٨هـ/١٨١٢م). أنظر ترجمته في الأعيان، م ٤، ص ٩٩ - ١٠٧.

والتقيت به وهو يركض حافي القدمين نحو محلّته. وثارت من الشُمُرت بعض الطلقات فخاف الناس وأغلقوا دكاكينهم وحوانيتهم بسرعة، واستولى عليهم الخوف والذعر. وتجمّع الفريقان وتحصّنوا، وأغلق الكليدار(٦٧) أبواب الصحن الشريف لئلاّ يدخله أحد الفريقين ويصعدوا إلى المآذن ويطلقوا الرصاص منها؛ فإنها أعلى مكان في البلد، ومن صعد إليها تكون له الغلبة. وبقي الحال على ذلك أيّاماً وبتنا في بعض الليالي والرصاص يمرّ فوق رؤوسنا. وكان الفصل صيفاً وكنّا أولاً على السطح فلمّا سمعنا أزيز الرصاص يمرّ فوق رؤوسنا نزلنا إلى صحن الدار. وجعل الرصاص يمرّ فوق رؤوسنا فانتقلنا إلى الإيوان. أما الحكومة فغاية عملها أن تُغلق السراي ويدخل العسكر القِشْلة وتُغْلِق أبوابها. وأرسل القائمقام تلّغرافاً إلى بغداد بواقعة الحال، فحضر ميرالاي اسمه شعبان باشا ومعه طابور عسكر. وكان الشُمُرت قد انسحبوا قبل حضوره لكنّ الصحن بقي مغلقاً فلم يُفتح إلاّ بعد حضوره. وجعلت الدوريّة تدور في الصحن وكنّا نجلس في جهة باب الطوسي مساء نتذاكر. فجاء جندي وجلس إلينا لمّا رآنا نتكلم بالعربيّة وقال: رُئِيَ غراب وحمامة يطيران معاً ويقعان معاً فَنُظِرا فإذا هما أعرجان. وأنا يجمع بيني وبينكم رابطة، أنا طالب علم من أهل الموصل سقطتُ في الامتحان فدخلت الجنديّة ولمّا سمعتكم تتكلمون العربيّة جلست إليكم. وجعل في كلّ عشيّة يجلس إلينا. وجاء القائمقام ورئيس الزُقُرت(٦٨) طبّار الهوى إلى الميرالاي واعتذر القائمقام عن الزُقُرت بأن الشُمُرت هم المعتدون وكان ميله إليهم فسكت الميرالاي ولم يُبد قبولاً ولا ردّاً.

---

(٦٧) الكليدار: خادم الصحن الشريف.

(٦٨) الزُكرت والزُقُرت رسمان للفظة واحدة.

السيد محمد علي الملّقب طبّار الهوى

ثم طاف طبّار الهوى مع بعض الجند على محالّ الشمُرت يفتّشون عليهم. مع أنه ليس في البلدة منهم أحد. وجعل نساؤهم يشتمون طبّار الهوى. ثمّ إن الأميرالاي قال لطبّار الهوى: أريد منك جميع الشبان الأنجاد ليذهبوا بقيادتك مسلّحين بالمطبّق (الجفت) فتفتّشوا على الشُمُر خارج النجف. وكان ذلك حيلة للقبض عليه وعلى شبّانه بحيث لا يفلت منهم أحد. فاختار من شبّانه كلّ ذي نجدة وسلّحهم بالمطْبق وركب فرسه وخرج أمامهم ومعهم العسكر. حتى توغّلوا في أرض السواد بحجّة التفتيش عن الشمُرت، وأين هم الشمُرت؟ ولمّا توسّطوا أرض السواد، وذلك عند العصر، على شاطىء الفرات صدرت الإشارة إلى العسكر فأمسك بكلّ واحد أربعة من الجند فكتّفوهم وكتّفوا رئيسهم. وعمدوا إلى بنادقهم فأطلقوها في الفضاء دفعة واحدة فارتجت لها الأرض. وسمع دوّيها جلّ أهل السواد، وعرفوا الخبر. وساقوا طبّار الهوى ومن معه إلى بغداد. وعُزل القائمقام واسمه خير الله أفندي، وهو من نواحي حلب، وكان رجلاً شهماً وكان يدعو بعض الطلبة من نُبّل بنواحي حلب في شهر رمضان لضيافته، وعمل لهم مضبطة لدخولهم في سلك الطلبة والتخلّص من الجندية، ولم يكلّفهم بفلس واحد. وبقي الميرالاي وجنده في النجف أياماً ثم عادوا إلى بغداد. ولم تمضِ مدة حتّى جاء الخبر بتعيين طبّار الهوى وكيلاً لمديرية الكوفة، فجاء وتسلّم المديرية، فتعجّب الناس من ذلك. ثمّ عُيّن مأموراً لتعداد النخل في شفّاثا بمعاش ثلاث عشرة ليرة عثمانية ذهباً في الشهر. فذهب إليها وما عتّم أن حُمَّ فمات. وشفّاثا هذه وَبيئة رديئة الهواء. وأهل العراق يضربون بها المثل فيقولون لمن يحاول

أمراً لا يكون: هذا كطالب العافية من شفّاثا. وأوصى أن يُدفن بباب الصحن الغربي، المُسمى بباب الفرج، ليكون تحت أقدام الزائرين لأمير المؤمنين عليه السلام. وأما رؤساء الشمُرت من أهل محلة الحُوَيش فأُبعدوا إلى الشام. وبقوا مدّة ثم أُفرج عنهم. فسُئلوا عن سبب الإفراج عنهم فقالوا: عزّ مالكٌ عزّ مالكٌ، ذلّ مالكٌ ذلّ مالك.

عطيّة أبو كَلَل

وتولى مشيخة الزُقرت بعده عطيّة أبو كَلَل وهو شابٌ شجاع من أهل محلة العمارة. وأوّل ما ظهر من شجاعته أن قومه كانوا يهرّبون الملح، والمملحة العظيمة غربي النجف على نحو ستّ ساعات منها، وهو في القانون للحكومة ليس لأحد أخذه إلاّ منها. لكن أهل النجف يحملونه ويمرّون من الثلمة التي في السور من جهة الغرب ويبيعونه، ولا تستطيع الحكومة منعهم. فتذهب به النساء إلى الدور وتبيعه، وغاية ما في وسع الحكومة أن تفرض غلى البقّالين والخبّازين شراء مقدار في كلّ شهر. وبينما كان أصحاب عطيّة يحملونه على دوابهم ويريدون إدخاله من الثلمة، إذ قبض عليهم الجلاوزة وساقوهم إلى السراي. فبلغ الخبر الشيخ عطيّة، فركب فرسه الحمراء وتوجّه إلى السراي، بين السور والبيوت، حتّى دخل بفرسه السراي وأخرج الدواب والملك بمرأى ومسمع من القائمقام والدرك. ولم ينبس واحد منهم ببنت شفة. وأغلق الجلاوزة الذين في باب البلد المقابل للسراي، الباب خوفاً من دخول أحد منه من أصحاب الشيخ عطيّة. ولم يفتحوه حتّى غاب عنهم. وله وقائع مع الحكومة أظهر فيها بسالة وشجاعة فائقة يطول الكلام بشرحها. وبنى داراً خارج النجف سمّاها الدرْعية. وله ولد

سماه تركي وابنته اسمها تركيّة. فقال في ذلك بعض الشمُرت:

لا بـــد مـــا يِـــضْـــلـــي الـــدرعـــيّـــة
والـــصـــبـــغ يـــشـــمـــاغ ابـــن عـــطـــيـــه[69]
والـــيَـــتُّـــم تـــــركـــــي وتـــــركـــــيـــــة

فأجابه آخر من الزقُّرت:

هـــذي الـــدرعـــيّـــة المعـــروفـــه
والـــيـــصـــلـــيـــهـــا يـــلـــقـــى حـــتـــوفـــه

الشيخ هادي الطهراني[70]

كان أيّام إقامتنا في النجف رجل من العلماء له شهرة يُسمّى الشيخ هادي الطهراني. وقبل حضورنا للنجف كان له درس كبير يحضره فضلاء العرب والعجم وله فضل وحذق ومهارة. إلاّ أنّه كان يطيل لسانه على العلماء السالفين. وكان يقول للشيخ حسن ابن صاحب الجواهر[71] حينما يذكر بعض أنظاره في الدرس: إن أباك حينما كتب هذا المطلب كان قد تعشّى بطبيخ الماش فتبخّر دماغه. وكانت له جرأة على مخالفة الإجماع. وله مؤلّفات في الفقه وغيره طُبعت بعد وفاته. فقرأت فيها في المواريث إنكاره أن يكون ابن العمّ للأبوين مقدّماً في الإرث على العمّ للأب، وهي المسألة المعروفة بالإجماعيّة. فنُسب إليه قبل حضورنا أمورٌ كفّره جماعة من علماء عصره لأجلها، اللّه أعلم بصحّتها، حتّى خيف عليه

(٦٩) أي نصبغ بالسواد كوفية عطيّة، كناية عن قتل عطيّة.

(٧٠) هادي الطهراني (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م - ١٣٢١هـ/١٩٠٣م)، أنظر: الأعيان، م ١٠، ص ٢٣٣.

(٧١) جواهر الكلام، لمحمد حسن النجفي (ت. ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م) وهو شرح لـ شرائع الإسلام، للمحقق الحلّي. أنظر ترجمته في الأعيان، م ٩، ص ١٤٩.

القتل. وحماه الفقيه الشيخ محمّد حسين الكاظمي. وتفرّق عنه الطلاّب من الانتقاد، حتّى لم يبق عنده في أيّامنا إلاّ نحو اثني عشر طالباً من الإيرانيين. وسألت ابن عمي السيّد علي ابن السيّد محمود عنه وكان يحضر درسه قبل الذي نُسب إليه فقال لي: ليس هو في الفضيلة كما يبالغ بعض الناس ولا في عدم الفضيلة كما يقول البعض الآخر. وفي العصر الذي كنّا فيه في النجف أُثيرت مسألته أيضاً من جملة من مشاهير العلماء وصارت حديث الناس في النوادي والمجالس بين العلماء والطلاّب. أمّا شيخنا الشيخ أقا رضا الهمذاني(٧٢) فلم يكن يسمح بذكرها في مجلسه وكان يقول: التكفير أمر عظيم ولا يثبت عندي بمثل هذه النسب.

سفر بني عمّنا

وفي حوالى سنة ١٣١٠ سافر ابنا عمّنا السيّد محمود: السيّد محمّد والسيّد علي(٧٣) إلى جبل عامل. فخرجت معهم إلى كربلا فالكاظميّة فسامرّاء وعدت إلى النجف. ولـمّا خرجنا من كربلا نريد بغداد كان الفرات قد طغى فقطع الطريق، فأخذنا دليلاً، وسار بنا من المحموديّة مشرّقاً على غير الطريق. ثم ضلّ عن القصد. فركض طويلاً ثمّ عاد وقال: رأيت طاق كسرى(٧٤). وسار بنا حتّى عبرنا دجلة في السفن يجرّها «بابور» يسير بالنار. وبتنا في

(٧٢) أقا رضا الهمذاني (ت. ١٣٢٨هـ/١٩١٠م) من كبار علماء النجف، كان يعظ فيه مساءً بالفارسية في الصحن الشريف، ثم انتقل إلى إيران.

(٧٣) محمود بن علي الأمين، أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ١٠٧ - ١٠٨. محمد بن محمود الأمين، أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ٤٨ - ٥٢. علي بن محمود الأمين، أنظر: **الأعيان**، م ٨، ص ٣٤٠ - ٣٤٥.

(٧٤) طاق كسرى أي قصر كسرى وهو يبعد نحو ثلاثين كيلومتراً جنوب شرق بغداد في المدائن.

مشهد سلمان الفارسي[٧٥] رضي الله عنه وبات بجانبنا جنديّان مقيمان هناك لحفظ الأمن. وبعدما تعشّيا معنا وضعا بندقيّتيهما تحت رأسيهما وناما قريباً منّا. وعند الساعة الرابعة تقريباً سمعنا الصياح خارج الباب. فقيل: إن اللصوص سرقوا «قونية» صَفَر[٧٦] من أحد المسافرين. فنبّهنا الجنديّين فقاما يفركان عيونهما من أثر النوم ويمشيان رويداً بكلّ وقار حتّى وصلا إلى قريب الباب. ثم عادا يقولان: الحرامي راح.

مرض الحمى في النجف

ومن الحوادث التي وقعت في النجف أيام وجودنا فيها انتشار الحمّى حتّى بلغت الوفيّات بها إلى الأربعين. وكانت تخرج في العليل أسفل معدته حبّة كبيرة صلبة وكلّ من خرجت فيه هذه الحبّة مات إلاّ الشيخ محمّد حِرز، فقد خرجت فيه وسلم. ومرض بها جماعة من العامليّين منهم من مات ومنهم من سلم. وكان بعضهم لا أهل لهم ولا عيال ولا أحد يمرّضهم. فاستعنت بالشيخ موسى قبلان على الطواف عليهم كلّ يوم لتمريضهم. فأجاب مسرعاً. فبدأنا بالشيخ مصطفى البعلبكي فوجدناه في حجرة في دار ملقى على فراشه كأنّه خشبة. ومعه في الدار رجل عامليّ لا يدنو منه ويتباعد عنه ولا يدخل الدار خوفاً من العدوى. فقلت للشيخ موسى: أنا أشتغل بالأمور الداخليّة وأنت بالأمور الخارجيّة. فذهب ليحضر الطبيب ثمّ يأتي بالدواء. وقمت أنا بدوري فغسلت الأواني وأشعلت النار وكنست الحجرة وهيأت كلّ ما يلزم بكلّ سرور وإقبال، متمثلاً في نفسي قول القائل:

(٧٥) سلمان الفارسي (ت. ٣٤هـ/٦٥٥م) صحابي ولاّه عمر بن الخطاب على المدائن. أنظر ترجمته في الأعيان، م ٧، ص ٢٧٩ - ٢٨٧.

(٧٦) قطعة من النحاس يرفع بها الإناء.

إنّ الـكـريم وأبـيـك يَـعْـتَـمِـلْ
إن لم يـجـد يـومـاً عـلـى مـن يَـتّـكِـلْ

وقول من قال «الحر معوان». وما عتّم الشيخ موسى أن جاء بالطبيب. فوصف للمريض الحقنة وللغذاء ماء اللحم، فذهب الشيخ للسوق وأحضر اللحم وهيأت أنا لوازم الحقنة بعد طبخها وتصفيتها وتبريدها. وأحضر الشيخ المحقان معه، وهو أنبوب من الزجاج طويل يُصَبّ فيه الدواء. فقلت للشيخ: هل تحقنه أنت؟ قال: إني أستطيع كلّ شيء عدا أمر هذه فليس في استطاعتي أبداً. وهنا حصلت المشكلة. فأنا وإن كنت موطّناً نفسي على كلّ عمل، لكنّ أمر هذه الحقنة صعب عليّ لأنّي لم أباشرها قبل هذا، لا سيّما بهذا المحقان الطويل الذي يبلغ طوله نحو ذراع، ولا سيّما أن العليل يأبى ذلك، وهو رجل جسيم. ولمّا كان لا مناص لي من ذلك أقدمت عليه وقاسيت فيه كلّ صعوبة. ثم انتقلنا إلى غيره ممّن لا ممرّض لهم. وكان إذا توفي أحد العامليّين تولّينا أنا والشيخ موسى المذكور تجهيزه وتشييعه إلى مقرّه الأخير.

وبهذه الحمّى توفّي قريبنا السيّد جواد حفيد صاحب **مفتاح الكرامة**، وكان شهماً فاضلاً فكانت المصيبة به عظيمة. وأُقيم مجلس فاتحة حضره علماء النجف وأدباؤه ووجهاؤه ورَثته الشعراء. وممن رثاه هذا الفقير بقصيدة مذكورة في «الرحيق المختوم».

مجيء الوالد للعراق

بعد سفري للعراق بمدّة ضاقت نَفْس والدي وهو في جبل عامل شيخ كبير السن مكفوف البصر يسكن بين أهل الغِلظة الجفاء مع ابنتين. وكانت له زوجة توفيت وليس له معين إلاّ الله. فكتب إليّ أنه لا يُرَخِّصني في البقاء، وأنه لا يستطيع البقاء هكذا: فإمّا أن

تحضر إلى هنا وتترك النجف أو تحضر وتُحضرني إلى النجف. فاسودّت الدنيا في وجهي. وخُيِّرتُ بين أمرين ليس لي في أحدهما خيرة: تركي النجف يضيّع عليَّ كلّ ما عملته وإحضاري له إلى النجف يستدعي نفقات كثيرة. فعزمت على الأمر الثاني مع ما فيه من المشقّات. فدخلت الحضرة الشريفة وتضرّعت إلى اللّه تعالى ودعوته في كشف هذه الغمّة عنّي وإرضاء والدي عنّي. فلمّا دارت الجمعة جاءني منه كتاب يخبرني فيه أن ما كتب به أولاً كان ناشئاً عن ضيق صدره لقلة المُعين. وقد سلّم أمره لله وصبر: فلا عليك أن تبقى مواظباً على درسك ولا تهتمّ من أمري بشيء. فحمدت الله على ذلك. ولكنّ نفسي بقيت مضطربة مغتمّة، فسلّمت أمري إلى الله تعالى وتوكّلت عليه وصبرت فقرّت نفسي بعض القرار. لكنّني بقيت في غمّ واضطراب مشتغل البال في هذه الحال التي عليها والدي حتّى مضى على ذلك سنوات. فكان من فضل الله ونعمه المتتابعة عليَّ أن يسّر لوالدي السفر إلى العراق، مع ما هو عليه من الضعف والعجز، مخدوماً مرفّهاً مكرّماً مع جماعة من أهل جبل عامل من خيرة الناس، حتّى أنّه قال لي: لو كنت معي مع عدّة أولاد لي لما خُدمت هذه الخدمة. فجاءتني يوماً برقية ولكنّها مغلوطة، لكنّه يُفهم منها أو الوالد متوجّه إلينا أو سيتوجّه. وكان في غلطها رحمة ومصلحة لنا، وذلك لأنه لولا غلطها لذهبنا إلى بغداد لاستقباله والحال أنه جاء لكربلاء ولم يمرّ ببغداد لكون فيضان الفرات قد قطع الطريق إلى بغداد. فجئنا إلى كربلاء في زيارة عرفة بين الشكّ واليقين. وفي اليوم الثاني ورد كربلاء ففرحنا بقدومه.

وجاءنا في كربلاء الشيخ محمد طه نجف زائراً لوالدي وهنّأني بقدومه وقال لي: إن قدومه صار يبشّرنا بطول إقامتك عندنا. وأقام

الوالد في العراق عدّة سنين كان مشغولاً في خلالها بالعبادة والدعاء، وزار كربلاء مراراً عديدة وقال لي بعض الإخوان: حينما أراك تأخذ والدك إلى الحضرة الشريفة أغبطك على هذه النعمة.

الغلاء في العراق

وحصل غلاء في العراق ثلاث سنين وبلغت العائلة سبعة أنفس، وصادف حصول قحط في جبل عامل. فكان يأتينا في كلّ سنة خمس ليرات عثمانيّة. وماذا تصنع خمس ليرات مع سبعة أنفس؟ وما كان مورد سواها. ولا يصلني من أحد شيء، ولا عوّدت نفسي على التوسّل إلى أحد. ففي السنة الأولى بعنا بعض الأثاث الذي يمكن الاستغناء عنه لا المُستغنى عنه، واقتصدنا في النفقة فاكتفينا بالأرز الحويزاوي عن الشِنْبة والنُعَيْمَة[٧٧]. ومضت تلك السنة والغلاء في العراق، والقحط في جبل عامل مستمرّان حتّى بلغت وزنة الأرزّ، وهي ثمانون أقّة إستانبولية، ليرة عثمانيّة وقرانين إيرانيّين. ومثلها وزنة الحنطة وكذلك باقي الحاجيّات. ونحن كما كنّا سابقاً في ملازمة الدرس والتعفّف عن الناس وعدم المبالاة بالغلاء كأنّه لم يكن. فبعنا في السنة الثانية بعض الكتب التي يمكن الاستغناء عنها لا المُستغنى عنها. ومضت تلك السنة كالتي قبلها. وجاءت السنة الثالثة كسابقتيها أو أشدّ. فبعنا حُليّ العيال. وجاءت السنة الرابعة وليس عندنا ما يُباع لا من أثاث ولا كتب ولا حِلى، والغلاء والقحط مستمرّان، ونحن على الحالة التي كنّا عليها لم نغيّر شيئاً ولم يتغيّر علينا شيء. وزادت العائلة ونحن لا نبالي بشيء من ذلك مواظبون على مطالعتنا ودروسنا كأنْ لم يكن من ذلك

(٧٧) الحُويزة مدينة في جنوب العراق منها يأتي أرز ثمنه بخس. أما الشنّبة والنُعيمة فنوعان من الأرزّ أغلى ثمناً.

شيء، وقد علم اللّه تعالى ما نحن فيه وما انطوت عليه النفس، فلم يدعنا وتفضّل وأنعم كجاري عادته معنا. ومن لم يغيّر عادته مع اللّه تعالى فحاشى للّه أن يغيّر عادته معه. فبينا أنا جالس للمطالعة عند العصر، فإذا برجل يطرق الباب. فخرجت فإذا هو الشيخ عبد اللطيف شِبلي العامليّ الحدّاثي رحمه الله، فناولني كتاباً، فإذا هو من رجل يسمى الشيخ محمّد سلامة العامليّ(٧٨) فيه أنه أعطاه الحاج حسين مقداد عشر ليرات عثمانيّة ذهباً أو أكثر ليرسلها لنا. ولم أكن أعرف هذا الرجل ولا سمعت به ولا سبق للشيخ محمّد سلامة شيء من هذا القبيل، مع كثرة تردّده إلينا في النجف ونزوله عندنا. فعلمت أن ذلك بتيسيره تعالى. وبقيت مترقّباً لأن أعرف الحاج حسين مقداد من هو؟ وتيقّنت أن للّه به عناية حيث أجرى فرجنا على يده. ولما حضرت إلى جبل عامل، وكنت في النبطيّة، جاء جماعة فقالوا عن أحدهم إنه الحاجّ حسين مقداد. فأجلسته إلى جانبي وقلت له: ألا تكلّفني بحاجة أقضيها لك؟ قال: أريد أن تشتري لي صحيفة سجّاديّة(٧٩). وكانت معي صحيفة طبع تبريز وهي أحسن طبعة وأصحّها فأعطيته إياها.

ثم توفي الوالد في النجف سنة ١٣١٥، كما مرّ، وأوصى أن يُدفن في الصحن الشريف. فدفنّاه فيه في الجهة الشرقيّة الجنوبيّة. وكان له في نفسي حزن عميق.

في الكوفة

ذهبت مرة إلى الكوفة لترويح النفس أيّاماً ومعي رجل من أفاضل

(٧٨) محمد سلامة البعلبكي اليحفوفي من قرية نحلة قرب بعلبك. أصبح قاضي بعلبك.

(٧٩) الصحيفة السجادية، مجموعة من الأدعية تنسب إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين المعروف بالسّجاد وهو الإمام الرابع.

العامليّين. فلمّا وصلنا المسجد قلت له: أنت أعط المكاريّ أجرته لأذهب أنا وأهييء حجرة نبيت فيها. فذهبت وهيّأت الحجرة فوجدت المكاريّ وصاحبي واقفين. فقلت: لمَ لمْ تعطه أجرته ليذهب؟ فقال المكاري: يا آغاتي هذا السيّد يحشي - أي يحكي - بالنحوي وأنا بالنحوي ما أفهم، وإنّما الأجرة أربعة متاليك.

في بساتين السهلة

وفي بعض السنين مرضت أُمّ العيال مرضاً عجز عن مداواته الأطباء. وكان ابنها الكبير رضيعاً. واستمر بها المرض. وصار العزم أن نذهب بها إلى خارج النجف لتغيير الهواء. فذهبنا إلى بعض بساتين السّهلة، وهو لرجل اسمه عبّود وزوجته اسمها سُكَيْنة، وهي صديقة أمّ عيالنا المخلصة. فرحمك اللّه يا سُكينة ورضي عنك، ورحمك اللّه يا عبّود وجزاكما اللّه عنّا خيراً، وذلك في فصل الصيف وأنا لا يمكنني ترك الدرس ولا ترك العيال. وكيف الجمع بينهما؟ فتركت عندها بعض بني عمّنا في النهار ليأتي بلوازمها من الكوفة. وعندها أيضاً سُكينة ونساء صاحب البستان. وكنت أصلّي الفجر ثم أذهب راجلاً إلى النجف لأنّه لا يوجد في ذلك الوقت دوابّ، فأصل النجف عند طلوع الفجر والمسافة تزيد على ساعة ونصف. فأحضر الدرس الذي هو في ذلك الوقت عند الشيخ أقا رضا الهمذاني في صلاة الجمعة. ثم يقرأ عندي تلاميذي دروسهم. وإذا كان لي حاجة في البيت أو السوق أتيت بها وعدت عند العصر راكباً لأن الدواب في ذلك الوقت موجودة. وبقيت على هذه الحال أيّاماً عديدة. وجئت يوماً إلى المسجد لحضور الدرس وعليّ آثار التعب. فسألني الشيخ، فأخبرته أنّني كلّ يوم أحضر صباحاً من بساتين السّهلة إلى هنا. فقال: لكلّ شيء آفة ولطلب العلم آفات.

في مسجد السهلة

وذهبنا إلى مسجد السهلة، ونحن جماعة، في فصل الشتاء للترويح عن النفس أيّاماً. فوصلنا عند المغرب ولم نجد حجرة خالية. وعلمنا أنه يوجد حجرة أقفلها خادم أعجميّ وهي خالية. فسأله السيّد علي ابن عمّنا السيّد محمود عنها، فأنكر. فهدّده وتناوله بالضرب ففتحها. ودخلناها ودخل معنا فأكل وشرب الشاي. ومما قاله لي تلك الليلة: إن العربي والعجمي لو طبخا في قِدْر واحدة لم يختلط دهن أحدهما بدهن الآخر. فعجبت من تغلغل العداوة إلى هذا الحدّ.

وكنا نجلس ليلاً نتسامر فأقرأ لهم بعض الأشعار التي أوردها صاحب **أمل الآمل**[٨٠] في كتابه، مثل قول بعضهم في رثاء عالم: «وبالرغم منّي، قدّس الله روحه» فيضحكون ويأنسون.

وجئنا يوماً بسمن من الكوفة على ورقة مطبوعة باللاتينّي. فامتنع بعض الرفاق من الأكل ممّا طُبخ بذلك السمن. فقلت له: كيف تأكل السكر ولا تأكل هذا؟ فقال: ذلك لم تره عيني وهذا رأيته. ثمّ أخرج من القِدر شيئاً من اللحم وغسله وأكله. وهكذا يكون الجمود.

الزاعم أنه لا حاجة إلى علم الأصول

وكنا يوماً في مسجد السّهلة وفيه بعض العامليّين ممن يدّعي الفقاهة وهو بعيد عنها. فبالَ صبي في المسجد. فأخذ ذلك الرجل ماءً وصبّه فوق البول، فقلت له: زدت في نجاسة المسجد. فقال: في بعض الروايات أن النبيّ فعل هكذا. فقلت له: هذه رواية شاذّة لا

(٨٠) أمل الأمل، لمحمد حسن الحرّ العاملي.

عامل بها. ودعوت من أخذ ذلك فطهرّه في الحوض وأعاده إلى المسجد.

وهذا الرجل كان يزعم أنه لا حاجة إلى علم الأصول. ويكفي مراجعة الأخبار، لأن الأخبار عربيّة ونحن عرب. وأراني مرّة تأليفاً له في الفقه وقال مثل هذا القول. فقلت له: إذا وصلت إلى خبر فيه صيغة إفْعَلْ، وقد اختلف فيها الأصوليّون[٨١] على أقوال، وأنت لم تحقّقها في الأصول فعلى أي شيء تحملها[٨٢]؟ فقال: أُحقّقها حين وصولي إليها. فعلمت أنّه يهرف بما لا يعرف، وأنّه لمّا فاته تحقيق علم الأصول أراد أن يتملّص من عيب ذلك فادّعى عدم الحاجة إليه. وهكذا يفعل الجهل بأهله.

ونظير هذا الرجل عامليّ آخر هو رفيقه وعلى مشربه، كان يقول أيضاً بعدم الحاجة إلى علم الأصول. فرآني يوماً أريد أن أشتري **حاشية ميرزا موسى على الرسائل**[٨٣] فجعل يقلّب يديه متعجّباً ويعقد وجهه ويقول: أيّ حاجة لهذا؟ فقلت له: لكلّ امرىء رأيه. ثم غبرت سنون فجاءني يوماً يريد أن يستعير مني **حاشية ميرزا موسى** فقلت له: ما تصنع بها؟ قال: احتجتها. فذكّرته ما جرى له معي يوم أردت شراءها فقال: دعنا من هذا. فقلت: أخبرني ما هي حاجتك منها، فامتنع فقلت: لا بدّ من إخباري. فقال: جاءني

(٨١) الأصوليون أي أصحاب المنهج المتّبع لأصول الفقه، في مقابل الإخباريين أي الذين يرجعون إلى الأخبار، أي ما نُقل عن النبي وعن الأئمة من أحاديث.

(٨٢) الأصوليون مختلفون في صيغة الأمر هل تدل على الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة؟ وأغلبهم يقول بالوجوب.

(٨٣) **حاشية ميرزا موسى** هي أحد الشروح الكثيرة على **الرسائل**، لمرتضى الأنصاري. وعنوان الحاشية **أوثق الوسائل**، لموسى بن جعفر الجَزّوي (ت. ١٣٤٠هـ/ ٢٢ - ١٩٢١م)، أنظر: **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، للطهراني، م ٢، ص ٤٧٣.

رجل شروقيّ يريد أن يقرأ عندي في الرسائل. فقلت: لا أعيرها لك بعد الذي صدر منك. ثم أعطيته إيّاها وكان صديقي.

الفرائض والمواريث

لمّا قرأت مبحث الفرائض(٨٤) والمواريث في شرح **اللمعة**(٨٥) وجدت أن مسائله متشعّبة ولا سيّما حساب الفرائض. فأحببت أن أكتب مسائله وحساب الفرائض، فكتبت. ثم عَنّ لي أن أكتب فيه كتاباً مبسوطاً مستوفياً للفروع والدلائل، فكتبت فيه كتاباً في مجلّدين ضخمين سمّيته: **كشف الغامض في أحكام الفرائض**. ثمّ اختصرته في دمشق مقتصراً على ذكر الفروع مجرّدة عن الدلائل في كتاب سمّيته: **سفينة الخائض في بحر الفرائض**، ثمّ نظمت فيه أرجوزة سمّيتها: **جناح الناهض إلى تعلّم الفرائض**، مطبوعة. وحينما شرعت في تأليف **كشف الغامض** كنت في دار ضيّقة ليس فيها إلاّ حجرتان يسكن إحداهما ابن عمّي السيّد حسن(٨٦) مع عياله وأنا الأخرى مع عيالي وأولادي. فاضطررت إلى سكنى حجرة في مدرسة القُطب كان يسكنها إيرانيّ له صلة بالمُتَوَلي، وكان لا يأتي إليها إلاّ قليلاً. فنقلت كتبي إليها وكنت لا أنام فيها إلاّ الغِرار، وأصل في المطالعة والكتابة الليل بالنهار، حتّى أكملت المجلّدين تسويداً ثمّ تبيضاً. وطلبت من ابن عمّنا حفيد صاحب **مفتاح الكرامة** جزء المواريث منه فأخبرني أنه عند

---

(٨٤) الفرائض: ما فرض الله من الحصص في المواريث وهي النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس.

(٨٥) **الروضة البهيّة في شرح اللّمعة الدمشقية**، لزين الدين بن علي (الشهيد الثاني).

(٨٦) حسن محمود الأمين (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م - ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٥، ص ٢٨٣ - ٣٠٤.

بعض بني عمّنا، فجئت إليه وطلبت الجزء منه فقال لي: إنه في السرداب. فقلت له: إمّا أن تأتيني به أو تأخذ لي طريقاً إلى السرداب لآتي به. ولا يمكن أن أذهب إلاّ وهو معي. فنزل إلى السرداب وأتاني به وقال لي: أنا أحتاجه فمتى تفرغ منه؟ وأنا أعلم أنه لا يقرأ فيه ولا يستفيد منه حرفاً، وفي كلّ يوم يطالبني به ويشوّش أفكاري، فأخذته وجعلت أفكّر في نسخه، فطوراً أراه عسيراً وتارة أقول: العزم يسهّل العسير. إلى أن عزم رأيي على نسخه. فدخل عليّ بعض الأصحاب فرآني مفكّراً فقال: فيم تفكّر؟ قلت: في نسخ هذا الكتاب. فقال: وما الذي استقرّ عليه رأيك؟ قلت: قد نسخته. قال: ما معنى هذا؟ قلت: قد عزمت على نسخ ومتى عزمت على ذلك فقد نسخته بمشيئته تعالى. وذهبت فأحضرت الكاغد الخمايسي[٨٧] وعملت مُسَطّراً للكتابة وشرعت في النسخ. وصرت كلّما وجدت فراغاً نسخت منه شيئاً حتّى أكملته. ونسخت أيضاً بخطّي رسالة الشيخ يوسف البحراني في المواريث[٨٨].

معاملات مفتاح الكرامة

دخلت يوماً بالنجف على بائع الكتب في حجرته بالصحن الشريف واسمه الحاج علي محمّد. فوجدت عنده **معاملات مفتاح الكرامة**[٨٩] في عدة أجزاء بخطّ واحد وورق واحد وقَطْع واحد وتجليد واحد، مصحّحة. فقال: إنها لرجل بحرانيّ يريد بيعها ويطلب بها خمس ليرات عثمانيّة. وقد سامها إمام جُمْعة تبريز

(٨٧) الأرجح أن يكون الكاغد الخمايسي يتعلّق بحجم الورق كما يقال كاغد نصفي.

(٨٨) في الأصل «في الحوادث»: وليوسف البحراني (ت. ١١٨٦هـ/١٧٧٢م) رسالة في المواريث ذكرها محسن الأمين في ترجمته له، أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ٣١٧، ولم يُعرف له رسالة في الحوادث.

(٨٩) مفتاح الكرامة جزآن واحد في المعاملات وآخر في العبادات.

بأربع ليرات، فقلت له: أنا قد اشتريتها بخمس ليرات. فقال: اليوم أذهب إليه فإن اشتراها بخمس ليرات وإلاّ دفعتها إليك. فذهب إليه فلم يزد على أربع، ظنّاً منه أنّه لا يمكن أن يبذل فيها طالب علم[٩٠] هذه القيمة. وأنه بما عنده من ثروة عظيمة لا يمكن أن يشتريها سواه، فأخذتها ودفعت للبائع شيئاً من ثمنها وأنظرني بالباقي. ولمّا علم إمام الجمعة أنني اشتريتها تأثر كثيراً. فأرسل إليَّ مع الشيخ كاظم الحكيم يسألني بيعها بمهما شئت من ربح، فأبيت. وأرسل إليَّ أخاه فقال: إن عندنا «العبادات» بمثل هذا الخط وهذا القطع، ونريد أن يكون عندنا نسخة كاملة بخط واحد وقطع واحد ومهما طلبت من الثمن ندفع. فقلت: وأنا أريد مثل ذلك ومهما طلبتم من الثمن أدفع. وتأثّر كثيراً فلمّا أيس قال: إن المجلدات التي عندك مسروقة. فقلت: بل التي عندكم مسروقة.

زيارة الحسين عليه السلام

لم تفتني زيارته ـ والحمد لله ـ مدّة وجودي في النجف، وهي نحو عشر سنوات ونصف السنة، في الزيارات المخصوصة: عاشوراء والعيدين وعرفة والأربعين، إلاّ نادراً. وكنت قبل السفر أذهب إلى من لهم عليّ دين في السوق، فأستحلّ منهم. وكنت أشتهي أن أزوره راجلاً وأتهيّب ذلك. فجرّبته فهان عليَّ. واتّبعني على ذلك جماعة من العامليّين والنجفيّين وغيرهم، فزرت راجلاً غير مرّة.

تدبير المعاش

أقمنا في النجف نحواً من عشر سنين ونصف السنة، نعيش عيش الأغنياء وننفق نفقة الفقراء. وذلك بفضل تدبير المعاش، فلا

(٩٠) في الأصل «طالب عالم».

نستدين من السوق بل نشتري نقداً أحسن جنس وأرخصه، وإذا لم يكن معنا الثمن، نستدين نقوداً ونشتري بها. ونشتري كلّ صنف في موسمه فيكون أرخص قيمة.

الشيخ إبراهيم الكاشي

كان هذا الرجل يحضر درس الشيخ ميرزا حسين خليل الطهراني ويقرأ موعظة مختصرة قبل شروع الشيخ في الدرس، ثم تغيّرت حاله وظهر فيه شبه الجنون الذي هو فنون. كان السلطان عبد الحميد طلب إعانة اختياريّة لإكمال السكّة الحديديّة الحجازيّة. ثمّ إعانة إجبارية. فلجأ فقراء النجف إلى العلماء ليدفعوا ذلك عنهم من أموال الحقوق التي تصلهم، فأنكر الكاشيّ ذلك. وجعل يدور على مجالس الدروس ويصعد المنابر قبل مجيء المشايخ ويخطب في هذا الموضوع. ولا شكّ أن هذا نوع من الجنون أو من سوء النيّة. فيجيء الشيخ فيراه على المنبر فيعود ويتعطّل الدرس ذلك اليوم. فأول ما جاء إلى درس الشيخ ميرزا حسين الذي كان يعظ قبله، فجاء الشيخ فرآه ورجع. وفي اليوم الثاني جاء وصعد المنبر فأنزلوه. ثمّ ذهب إلى مجلس درس الشيخ حسن المامَقاني وصعد المنبر وأخذ يتكلّم. فجاء الشيخ فرآه فصاح: «بكشيد». أي جرّوه. فجرّوه وأخرجوه من المسجد. وكان عمّنا السيّد علي قد توفي[٩١] في جبل عامل. فعملنا له ترحيماً عند العصر في الصحن الشريف. وجاء الشيخ محمّد طه نجف فجلس، وإذا بالكاشي قد جاء وتقدّم نحو الشيخ، وكنت أنظره إلى أن وصل إلى أمام الشيخ. ثمّ لم أعد أراه لكثرة ما اجتمع حوله من الناس. ثمّ احتمله الخَدَمَة وأدخلوه

(٩١) علي بن علي الأمين أصغر أعمام السيد محسن. سُمي باسم والده.

بعض الحُجَر خوفاً عليه من القتل، لأن الناس زعموا أنه تناول ثوب الشيخ. ولمّا انصرف الناس حملوه إلى داره. وجئنا للدرس فأُخْبِرنا بذلك فرجعنا. وفي اليوم الثاني وفعل كالأوّل وفعل الشيخ وفعلنا كذلك، وبقي الكاشي يتكلّم ويصيح إلى قرب الظهر. ولم يخرج من الدار فأخرجوه محمولاً. وأرسلته الحكومة إلى إيران، ففعل كأفعاله في العراق. وبعد مجيئنا إلى دمشق جاء إليها وفعل كذلك.

بعض عادات النجفيّين

النجف بلدة حدثت بعد خراب الكوفة وزاد عمرانها في عهد البويهيّين. والنجفيّون أهل شهامة وغيرة وسخاء وقناعة واقتصاد. ونساؤهم يلبسن عباءتين إحداهما على الرأس والأخرى على الكتفين. ويلبسن الثوب الهاشميّ أيّام كنّا في النجف. والآن يلبسن عباءة واحدة طويلة على الرأس تقوم مقام العباءتين: والنساء يشترين ملابسهن بأنفسهن، على أنه قلّ أن تُكلّم المرأة رجلاً حتّى قريبها وابن عمّها إن لم يكن مَحْرَماً. ولهم في الزواج عوائد جلّها مستحسن. فهم يُزَوِّجون القرابة ولا يتكبّرون عليه، وإن كان فقيراً وهم أغنياء. وإذا خَطَبَ القرابة لا يعدلون عنه إلى غيره.

وإذا خُطِبَت الفتاة لا تحضر أمام أبيها أو أخيها، وتجهد أن لا يرياها حتّى تتزوج. وإذا زُفّت إلى غريب غاب الرجال من أهلها عن البلد، ويحضر الوجوه والعلماء العظام لنقلها إلى بيت زوجها، فلا يستقبلهم أحد. ويجلسون في الطريق حتّى تخرج العروس فتمشي مع النساء، والرجال وراءهنّ بعيداً عنهنّ. ويولمون للعرس والختان. ويجب أن يجلس المدعوّون دفعة واحدة ولا يجوز أن يقوم فريق ثمّ يجلس فريق. فمَن عمل دعوة عليه أن يكون عنده أمكنة تسع

جميع المدعوّين عند جلوسهم للطعام وأوانٍ بعددهم، فيوضع الطعام للجميع أمامهم في مكان جلوسهم.

والنجفيّون لا يتدخّلون بين ابنتهم وزوجها في خلاف أو نزاع مهما أمكن. ويندر وقوع الطلاق عندهم أو لعلّه لا يقع. ولا يذكرون النساء في مجالسهم إلاّ قليلاً وإذا اضطرّ الرجل إلى ذكر زوجته قال: أهلنا. ولا يقول زوجتي. ولا يقولون: صهري. بل إذا ذكروا الصهر قالوا: نسيبنا. ولا يذكرون الطعام في مجالسهم بأن يقولوا: أكلنا كذا وصنعنا الطعام الفلانيّ. بل قد يتحدثون عن كرم الكرماء فيقولون: فلان عمل دعوة عظيمة. أو شبه ذلك. وهم أهل وفاء، وويلٌ لمن أخطأ معهم.

وفي مجالس العزاء يجلسون ثلاثة أيّام تُقرأ فيها قصائد الرثاء وكذلك في التهاني والأعراس. ومن حضر من سفر يجلس ثلاثة أيّام فتجيء الناس وتسلّم عليه صباحاً ومساء. والزيارة في كلّ الأيّام إنّما تكون نهاراً. والنساء أيضاً يجلسن للعزاء منفردات عن الرجال. ولهنّ نوائح صناعتهن النياحة على الأموات وعلى الحسين عليه السلام في أيّام عاشوراء وغيرها. ومنهّن من تُنشد الشعر الزجليّ ارتجالاً، ومجالسهنّ منفردة عن مجالس الرجال. وكانت رئيستهنّ نائحة تسمّى ملاّ وُحَيِّدة، بتشديد الياء، وكانت تُنشد الشعر الزجليّ للنياحة ارتجالاً. ولها مجموعة كبيرة من إنشائها في الحسين عليه السلام وفي غيره. فمن شعرها الزجلي في غير الحسين عليه السلام قولها في قتيل في معركة:

منين اجتك هذه الطرقاعه

يا صخر مرمر صعب مشلاعه

يا صخر مرمر صعب ما ينشلع

ما حلالي علتفك مثلك جِرِع

صوّاب ابن كيوان هلحدر الضلع
وانت بوجاسم يسم الساعه[٩٢]

ومن شعر العراقيّين الزجلي ما سمعته من ملاّح في سفينة:

مدكدكة وحلوى ورفيعه
وشايلا الكيمر[٩٣] تبيعه
حيف بيها هالطبيعه
بالدرب تمسي وحدها

ومنه قول آخر:

يا ليتني صفصاف
وأنبت علجراف[٩٤]
وحبّي بذاك الصوب
ومنين أنا خاف

(٩٢) تقول من أين أتتك هذه المصيبة وأنت كالمرمر صعب كسره. لم يَخْلُ لي غيرك شجاع يحمل بندقية يا صوّاب بن كيوان القويّ الشجاع وأنت يا أبا قاسم يا قتّال العدى.

(٩٣) الكمير: قِشدة الحليب.

(٩٤) الجراف: ضفاف النهر.

الفصل الرابع

في الشام

الخروج من العراق إلى الشام

كتب إلينا شيعة دمشق يطلبون حضورنا إليهم والسكنى عندهم. فخرجنا من النجف في أواخر جمادى الثانية سنة ١٣١٩ بعدما أقمنا فيها عشر سنين ونصف السنة.

الكاظميّة

ووصلنا الكاظمية فأصابني فيها رمد شديد. حتّى كنت لا أستطيع النوم ليلاً ولا نهاراً. فأشار عليّ بعضهم بتدخين الترياك (الأفيون). فجررت من دخانه مرّة واحدة بالآلة المسمّاة بـ «البابور»، فوجدت له رائحة خبيثة وسكن ما بعيني من الوجع ونمت تلك الليلة.

وأودع رفقاؤنا أمتعتهم في بيت من بيوت أجلاّء الكاظميّة. فلمّا عزمنا على المسير، افتقدوا دراهمَ اعتقدوا أنها كانت في تلك الأمتعة فضاقوا بذلك ذرعاً. ثم تبيّن أنّها لم تكن في الأمتعة. وهذا أمر يجب التحرّز منه، فمن أراد أن يودع شخصاً أمانة فليعدّها عند تسليمه إيّاها، ويسلّمها إياه ظاهرة حتّى لا يقع في مثل هذا.

ثم اكترينا بغالاً وتهيّأنا للسفر وطلبنا «تذاكر مرور». فجاء السّيد

حمادي، صاحبنا قبل عشر سنوات ونصف، الذي تعنّتنا في أمر تذاكر المرور كما سبق. فأعطيناه تذاكر النفوس والرسم المعيّن لها وهو ثلاثة أرباع المجيدي، وربع مجيدي له، عن كلّ تذكرة. ومعنا رجل عامليّ من ناحية الشقيف عسكري هرب من اليمن وجاء مشياً على أقدامه إلى العراق. فقلنا له: وهذا أيضاً تذكرة نفوسه ضائعة. فجيء له بتذكرة مرور فقال له: أنت اسمك الحاج محمد الأصفهاني، إيرانيّ التبعة، وذهب ليأتي بتذاكر المرور. وفي ليلة سفرنا عاد ومعه الدراهم وتذاكر النفوس. وقال إنه ما تمكن من أخذ تذاكر مرور لنا، إلاّ للعسكري الفار. فأحضر له تذكرة مرور باسم الحاج محمّد الأصفهاني فعجبنا من ذلك.

السفر إلى الشام

وفي الصباح سرنا على اسم الله تعالى وإذا بالسيّد حمادي يقف أمام الكجاوات ويطلب تذاكر المرور. فقلنا له: على يدك دار الحديث. ونقدناه روبيّة فرجع.

في الرمادي

ولما وردنا الرمادي جاء مأمور النفوس يطلب تذاكر المرور، فذكرنا له القصة. فقال: نعطيكم تذاكر من هنا، وكنا نسينا تذاكر النفوس في الكاظمية. فقال: لا يضرّ، ولكنّا نريد كفيلاً. فقلنا: وأنّى لنا ذلك ونحن غرباء؟ قال: هذا صاحب الخان يكفل، فقال: لا يا أفندي أنا لا أقع تحت المسؤوليّة. فقال: أعطوه ربع مجيدي. فأعطيناه فارتفعت المسؤوليّة، وأخرج الختم المبارك وختم سند الكفالة وانتهت المشكلة. وأتى مأمور النفوس بالتذاكر كاملة وقال لنا: لا تؤاخذوني فإن دولتنا ترسل المأمور وتقول له ارتش، وخذ أموال الناس وافعل ما تشاء، أنا رجل بغدادي وإن قلت لكم إنني

من أهل البيوتات المحترمة فربما لا تصدقوني، ولكن افرضوني كما تشاؤون فهل عيش بغداد كعيش الرمادي؟ ففي أكثر الأيّام أُرسل إلى السوق عند الضحى فلا أجد الخُضَر، ومعاشي في الشهر خمس مجيديّات فهل تكفيني ثمن التُتُن؟ فإن لم أتعلّق بكم وبسواكم ما أصنع؟ قلنا له: لا نؤاخذك.

في القائم

وسرنا حتى وردنا مكاناً يسمى القائم وهناك قلعة فيها مدير ناحية وعسكر. فضربنا خيامنا بجنبها وقريب منها أعراب نازلون فجاؤونا ليلاً ونهبوا بعض أمتعتنا بقول القائل:

إذا هو ألهى الناسَ جلُّ أمورهم
فندلاً زُرَيْقُ المالَ ندلَ الثعالب[1]

ولحقناهم فاستخلصنا البعض منهم وفرّوا بالباقي، هذا وحضرة المدير وعسكره الموظّفون لحفظ الأمن إلى جانبنا قد أغلقوا عليهم باب القلعة وناموا.

في دير الزور

ثمّ وردنا دير الزور ذات الخيرات والنِعَم، ثمّ تزوّدنا وخرجنا فوردنا قباقب.

في قباقب

وهناك قلعة فيها جند وبئر بعيدة المدى يُستقى منها بالناضح. وهناك الأعراب يستقون بناضحهم فيجرّ البعير الدلو العظيمة ويذهب بعيداً حتّى تصل إلى فم البئر ثم يعود. وماء البئر في نفسه

(١) بيت جاهلي من شواهد النحويين.

مالح مرّ. وقد جاء الجراد فوقع فيه فاصفرّ وأنتن وانضاف إلى ذلك الزبل والأوساخ التي تقع فيه. فأتينا بماء منه فعملنا منه شاياً وطبخنا منه، فلم نستطع أن نسيغ الشاي ولا الطعام فأعطينا الطعام للدركيّ الذي كان يصحبنا.

البئر الجديدة

ووردنا البئر الجديدة وهي بئر حفرتها الحكومة بين منزلين متباعدين لتنزلها القوافل. وماؤها مرّ مالح فلم نستطع أن نشرب منه. وبينما نحن نزولٌ في ذلك المكان إذ ورده «فرما نفر ما» ومعنا أمير الأمراء، وهو ابن الشاه ناصر الدين القاجاري، قادماً من لبنان ومعه العسكر على البغال وجمال تحمل قِرَب الماء العذب. فذهب ونزل في القلعة وجاءت الجنود إلى البئر تستقي منه. فذهبت وجعلت أنظر إلى البئر. وخرج من القلعة فاستدعاني. وجلست فسألني: من أين؟ فأجبته بالفارسيّة: إنّني قادم من النجف إلى دمشق. فقال: ما أعجب هذا! في هذه البريّة قادم من النجف يتكلّم الفارسية! وأمر فجاؤوني بالشاي وقال في أثناء حديثه: «تميد انيد اين ملاها جه يجه بازي ميكنند» أي: ما تعلّم هؤلاء العلماء في إيران كيف يعملون أعمالاً صبيانيّة. وجاء عكّامنا معه «المطرة» فأمر أن تُملأ ماء عذباً فمُلئت ثمّ ودّعته وانصرفت.

في تدمر

لمّا أقبلنا على تدمر رأينا قطاراً في البرّ من بعيد، فظننّاه قطار جمال. ولما سألنا عنه أُخبِرْنا بأنه صفّ من الأعمدة العظيمة نُضِّدَت فوقها الصخور العظيمة في أطلال تدمر القديمة، وكان فوقها البناء نظير الأعمدة التي في قلعة بعلبك. ورأينا نظيرها قريباً من بلدة تدمر

الحاليّة، وبعضها قطعة واحدة وبعضها أكثر، وقد نُحتت بالآلة. وكان العرب يعتقدون أن تدمر من بناء الجنّ. قال شاعرهم:

واستعمِل الجنّ إني قد أذنت لهم

يبنون تدمرَ بالصُفّاح والعُمُدِ[٢]

وذهبنا إلى السراي فرأينا حجراً صُوِّر عليه إنسان وبجانبه طفلان وعلى رأسه شيّد التاج، وهو يلبس شبه التنّورة التي لها كشكش كما هو المتعارف الآن. وفوق البلد قلعة على جبل لها خندق قد حُفر في الصخر. وبناؤها ليس من بناء تدمر القديمة، بل حادث بعد ذلك، بحجر صغير. دخلناها فوجدنا حُجَرها متداخلة يتيه الإنسان فيها لأن باب كلّ حجرة من ضمن الأخرى، مكلّسة كأنما فرغ منها الصانع الآن.

في السخنة

وجئنا إلى قرية تُسمّى السخنة[٣] وبها ماء حارّ تفوح منه رائحة الكبريت لكنّه عذب، فإذا وُضِع في الآنية برد. وأرسلنا لنشتري الخبز من القرية فأبوا أن يبيعونا لظنّهم أنّنا حجّاج عجم. ولم نستطعمهم كما استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهل تلك

---

(٢) النابغة الذبياني في مدح النعمان. والمقطع الذي منه هذا البيت يقول:

ولم أر فاعلاً في الناس يشبهه ... ولا أحاشي من الأقوام من أحدِ

إلاّ سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قم في البريّة واحدُدْها من الفَنَدِ

وخيِّس الجنّ إنّي قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصُفّاح والعُمُد

(٣) تقع السخنة قبل تدمر، فكان الأوْلَى أن يذكرها أولاً.

القرية، فأبوا أن يضيفوهما. ولو وجدنا جداراً منقضّاً أو يريد أن ينقضّ لم نقمه[٤] وإنّما طلبنا منهم خبزاً بثمن. فأرسلنا مُعَمَّماً بعمامة بيضاء وقال لهم: نحن آتون من بغداد وكنّا في زيارة الشيخ عبد القادر ونحن عرب. فسمحوا حينئذٍ بالبيع واعتذروا.

في دمشق

وردنا دمشق في أواخر شعبان من سنة ١٣١٩ في أواخر الخريف. فوجدنا أمامنا أموراً هي علة العلل، ولا بد في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

١ - الأمّيّة والجهل المُطبِق. فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أُميّين بدون تعليم، وبعضهم يتعلّمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢ - وجدنا إخواننا في دمشق متشاكسين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

٣ - مجالس العزاء وما يُتلى فيها من أحاديث غير صحيحة وما يُصنع في المشهد المنسوب إلى زينب الصغرى المُكنّاة بأم كلثوم[٥] في قرية راوية، من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات، وبعض الأفعال المُستنكرة. وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها لا سيما أنها ملبسة بلباس الدين.

فوجّهنا اهتمامنا إلى إصلاح هذه الأمور الثلاثة.

---

(٤) إشارة إلى قصّة موسى والخضر في القرآن الكريم، سورة الكهف. أنظر سورة الكهف ١٨، الآية ٧٧.

(٥) يُبدي محسن الأمين شكّه حول هوية السيدة زينب المدفونة في قرية راوية قرب دمشق. أنظر: **الأعيان**، م ٧، ص ١٣٦ - ١٤٢.

أما الأمر الأول وهو أمر التعليم فبذلنا غاية الإمكان في تعليم العلوم العربية لمن يمكن تعليمهم. فصاروا بفضل ذلك أهلاً لأن يتكلّموا في مجالس العلماء ويناظروا الفضلاء. وجاء مرة رجل عراقي من أهل العلم فرآني أُدرّسهم في علم النحو. فقال: من هوان الدنيا على اللّه أن يُدرّس مثلك في علم النحو.

وأخذنا في إلقاء المواعظ في المجتمعات والمجالس، والتفقيه في الدين بقراءة درس فقهيّ في **التبصرة**[٦] كلّ ليلة بعد صلاة العشاءين. واتّجهنا لإنشاء مدرسة لتعليم الناشئة فأخذنا داراً عارية بدون أجرة، ونقلنا إليها الكُتّاب الموجود في المحلّة وجعلناها مدرسة باسم المدرسة العلويّة. وابتدأنا بإدخال العلوم الحديثة إليها بشكل ضعيف كما هو الشأن في ابتداء كلّ عمل. وكذلك استأجرنا داراً لتعليم البنات إلى جانب البنين.

وفي سنة ١٣٢٠ عزمنا على[٧] الذهاب إلى حجّ بيت اللّه الحرام. وقبل السفر أرادني الحاجّ محمّد حسن بيضون أن أُكلّم تجّار الحيّ في أن يشتروا دار أخيه الحاج يوسف[٨] لتكون مدرسة، وكانت لهم ليلة يجتمعون فيها في الأسبوع يتذاكرون أمور تجارتهم ويدعونني فأجلس معهم. وذهب معي وحثّني على الكلام معهم في ذلك، فتردّدت لاعتقادي أنه من الأطماع الأشعبية. وما زال يشير إليّ أن أكلّمهم وأنا متوقّف حتّى قرب أوان انصرافهم. فقلت في نفسي: إن لم ينفع الكلام فلا يضرّ، فقلت لهم: إنّنا نحتاج إلى

(٦) تبصرة المتعلّمين، للعلامة الحلّي. وقد وضع لها محسن الأمين شرحاً.

(٧) في الأصل «عزمنا إلى».

(٨) يوسف بيضون (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م - ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م) كان قد انتقل من حارة الخراب في دمشق إلى بيروت حيث ازدهرت أعماله التجارية. وأتمّ ابنه رشيد بيضون أعماله الخيرية فأسس الكلية العاملية في بيروت.

دار نجعلها مدرسة وهذه دار الحاجّ يوسف بيضون يريد بيعها وأنا أشتريها لكم مقسّطاً ثمنها إلى أربع سنين؛ القسط الأوّل يُدفع بعد سنة وهكذا. وأردت بذلك أن يهون عليهم الأمر بعدم الدفع في الحاضر. وقلت: إنّني أنا أتعهّد بدفع قسم من ثمنها كأحدهم. فقال زعيم القوم: الآن عندك مدرسة عارية ولا داعي لشراء هذه. فقال آخر، دونه في المنزلة: نِعْمَ الرأي شراؤها، وكلّ منّا إذا حضره الموت لا بد أن يوصي، فلنصرف وصيّتنا في حياتنا. فلم يشأ الزعيم أن يردّ ذلك، وقد قبل به من هو دونه، فقبل وقبل باقي الجماعة. وسافرنا إلى بيروت وكلّمنا الحاج يوسف في ذلك، وطلبنا منه أن يترك قسماً من الثمن بقدر ما على أحدهم. واتفقنا معه على الثمن أن يكون ثمانمائة ليرة إفرنسية ذهباً موزّعة على خمسة أسهم ونصف على الوجه التالي: على الفقير كاتب هذه السطور والحاجّ يوسف والحاجّ عباس رضا والحاجّ سليم العضل كل واحد سهم. والحاجّ مصطفى الصوّان وابن اخته كل بنصف سهم والحاجّ عبد الله والحاجّ حمزة الروماني[٩] بنصف سهم مقسّطة، على أربع سنين. وكتبنا بذلك سندات على هذا النحو.

ثم توجّهنا إلى الحجاز عن طريق مصر وجاءنا كتابهم إلى الحجاز باستلامهم الدار ونقل الأولاد إليها. وكان بصحبتنا في الحجّ إيرانيّ من أهل أرومية، فأعطانا عشرين ليرة عثمانيّة ذهباً للمدرسة. وحجّ في تلك السنة ميرزا علي أصغر خان أتابك، الصدر الأعظم في إيران لكنّه كان معزولاً بسبب قضيّة المشروطة[١٠]. وعاد مع الحاجّ

(٩) في الأصل «الحاج عبد الله والحاج حمزة الروماني كل بنصف سهم». أسقطنا «كل» ليصحّ حساب الأسهم.

(١٠) أي الدستور.

الشاميّ إلى دمشق واجتمعنا به في الطريق. ولما وردنا الشام، دعوناه إلى المدرسة وأقمنا له حفلة، فأرسل لنا في اليوم الثاني كتاباً مع ترجمان القنصل ومعه سبعون ليرة عثمانيّة. ودعونا والي سورية عارف بك الماrديني، فسُرّ كثيراً وخطب خطبة أعرب فيها عن سروره بما رأى. وشكرنا وخاطبنا بأجمل خطاب ودفع لنا إعانة للمدرسة عشرين ليرة عثمانيّة ذهباً. فأصلحنا المدرسة من ذلك بنحو ثلاثين ليرة ودفعنا الباقيَ مما علينا من الأقساط، ثم وقفناها مدرسة. واستثنينا داراً صغيرة منها لم نُدخلها في الوقف لقاء ما بذمّتنا من الثمن. ويسّر الله تعالى دفع جميع الأقساط، إلاّ القسط الأخير. فطلبه منّا الحاجّ يوسف. فأرسلنا له: إن شئت أن تمهلنا به وإن شئت بعنا الدار الصغيرة وأدّيناه. فقال: لا تبع الدار وسأحضر للشام ونعمل حفلة لتدارك العجز. فكان الأمر كذلك. وتبرّع الحاضرون في الحفلة وهو منهم بما دفعنا منه الدين، وزاد معنا ما صرفناه على المدرسة. وما زال أمر المدرسة ينتظم شيئاً فشيئاً وقد بَقِيَتْ مدة غير قليلة لم يتمّ انتظامها. إلاّ أنّنا نقابل ذلك بالصبر ولا نملّ. والأعمال لا يضرّها مرور زمن عليها ولم تنتظم، فلا بد أن تصل مع المداومة والصبر إلى الانتظام، وإنّما يضرّها الملل وقلّة الصبر. فصبرنا وجاهدنا فظفرنا.

ثم وفّق الله لشراء دار ثانية هي أحسن من الأولى بمراحل، ومن أفخم دور دمشق، شُريت بقيمة ألف وخمسمائة ليرة عثمانيّة ذهباً. وأُصلحت بخمسمائة. وهي تساوي أضعاف ذلك. بذل ثمنها كلّ من المحسنين الكرام السيّد علي والسيّد كامل نظام والحاجّ رضا النحّاس والحاجّ مهدي اللحّام والحاجّ حسن الحلباوي، جزاهم الله خير الجزاء. ونُقلت إليها التلاميذ، والدار الأولى تُستغلّ ويصرف ريعها على المدرسة. وقد أصبحت المدرسة اليوم حين تحرير هذه

الكلمات، وهو السابع من شهر شوال سنة ١٣٧٠، على أتمّ نظام وأحسن انتظام، ذات صفوف ثانوية وقسم داخلي تفوق جميع مدارس دمشق التي من نوعها بحسن تنظيمها والمحافظة فيها على التحلّي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة ونجاح طلاّبها في الامتحانات مائة بالمائة. وأصبحت الطلاب تتهافت عليها من جميع الأحياء لما يرى أولياؤهم من تهذيب أخلاق أولادهم ونجاحهم، حتّى صار يضطرّنا الحال أحياناً إلى ردّ طلبهم لضيق المكان. فيُلحّون علينا ويصرّون. ووضعنا لكلّ صفّ فيها كتاباً للمحفوظات(١١) وكتباً تسعة للعقائد والأحكام الشرعيّة؛ من العبادات والمعاملات والمواريث والحدود والديات وتفسير عدة من الآيات القرآنيّة وقسم من الأخلاقيات. وطبعت هذه الكتب وانتشرت في باقي المدارس وعمّ نفعها وتُرجمت إلى الفارسيّة(١٢).

وقد وفّق اللّه تعالى لإيجاد أوقاف لها من جماعة من أهل الخير. وفي سنة ١٣٦٧ اشْتُرِيَ لها دكّان في سوق الحميديّة بألف ليرة عثمانيّة ذهبيّة. وستزيد أوقافها بعون الله تعالى عاماً فعاماً بفضل الإخلاص وحُسن النيّة.

وكانت مدرسة البنات قد ضاقت بالطالبات، فتبرّع المرحوم الحاجّ يوسف بيضون بشراء دار دفع ثمنها ثلاثة آلاف وثمانمائة ليرة عثمانيّة ذهباً. وعَيَّن لها من ماله ألف ليرة عثمانية ذهباً يُصرف ريعها على نفقاتها. فبقيت مدّة يتّجر بها أحد أولاده ويقوم بنفقات

---

(١١) **الدرر المنتقاة لأجل المحفوظات**، الجزء الأول، مطبعة الترقي، دمشق/ ١٣٤٦هـ/٢٨ - ١٩٢٧م. لم تقع بين أيدينا الأجزاء الأخرى.

(١٢) **الدروس الدينية والاعتقادية والعملية**، مطبعة ابن زيدون، دمشق. لم نطّلع على الطبعة الأولى للجزء الأول. أما الجزء الأخير فطبعته الأولى سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م. وقد وضع المؤلف كتابا لكل سنة من سنوات الدراسة.

المدرسة، ثم اشْتُرِيَ بها عقار في بيروت ووُقِف عليها. واعترافاً بفضل الحاجّ يوسف بيضون أطلقنا اسمه على المدرسة وسميناها المدرسة اليوسفيّة.

هذا ما وفّق اللّه لعمله بشأن إصلاح الأمر الأوّل من الأمور الثلاثة المتقدّم إليها الإشارة. وأمّا لأمر الثاني وهو أمر الحزبية بين أبناء الطائفة والتشاكس الواقع بينهم، فرفعه أمر واحد لم نكن نعرفه ولا نعرف أنّ له هذا الأثر وهو المساواة بين الناس وعدم التحيّز لفريق دون آخر. وهذا أمر طُبعنا عليه ولم نتكلّفه تكلفاً.

أمّا الأمر الثالث وهو إصلاح إقامة العزاء لسيّد الشهداء عليه السلام فكان فيه خلل من عدّة جهات منها: ما يتلوه الذاكرون من الأخبار المكذوبة والأغلاط الشائنة وبعض الأعمال التي تجري في المجالس. ذكر مرّة رجل وقعة الجمل فقال: كان اسم الجمل عسكر بن مرديّة. فقلت في نفسي: الجمل كثيراً ما يُعرف باسم، أما أن يقال ابن فلان أو ابن فلانة فلم يُسمع به. فسألته فقال: هذا موجود في **البحار**(١٣) فراجعت **البحار** فإذا فيه: «وكان اسم الجمل عسكراً»، ثم ابتدأ بكلام جديد «فقال ابن مردويه». وقرأ قارىء يوماً في الكاظميّة فلم يذكر في ذلك المجلس حرفاً واحداً صادقاً. وكان إلى جانبي السيّد مهدي آل السيّد حيدر فقلت له: أقسمت عليك باللّه هل فيما ذكره هذا الرجل حرف صادق؟ قال: لا، قلت: فلماذا لا تنهون؟ قال: لا نستطيع. ولمّا حضر الشيخ موسى شرارة إلى جبل عامل أحضر معه مجموعة كتبها له بعض الذاكرين فيها الصحيح والسقيم مما يُتلى في مجالس النجف. وكان فيها خبر مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه كلام للأصبغ بن نباتة يخاطب به أمير

(١٣) بحار الأنوار، لمحمد باقر المجلسي (١٠٣٧هـ/١٦٢٧م - ١١١١هـ/ ١٧٠٠م).

المؤمنين عليه السلام. وقد زيد فيه كلام مسجّع منمّق منه: «إن البرد لا يزلزل الجبل الأصمّ ولفحة الهجير لا تجفّف البحر الخِضَمّ والليث يضرى إذا خُدش والصلّ يقوى إذا ارتعش»[١٤] ونحو ذلك. وكان الشيخ موسى يتلوه ويُعجب من بلاغته. ولما كتبتُ مقتل أمير المؤمنين في **المجالس السنيّة** لم أجد له أثراً في كتاب. وسمعت الميرزا حسين النوري مرة في داره ينكره على المنبر ويقول: إنه لا أصل له[١٥]. وفي تلك المجموعة عدة أحاديث موضوعة. وبعض الذاكرين يزيد عبارات وجملاً محزنة ليُهيج بها السامعين. وهؤلاء القرّاء ليس لديهم ذرّة من علم ولا معرفة وأكثرهم من العوام. ومن كان ذا معرفة لا يتحرّى إلاّ الصحيح. ومثل هذه الأمور تجري في كلّ فرقة وكلّ طائفة. فجهدت في تنزيه هذه الذكرى المباركة عن مثل ذلك ونهيت القرّاء عن قراءة مثلها. وألّفتُ كتاب **لواعج الأشجان في مقتل الحسين عليه السلام**. وانتقيته من الكتب المعتمدة ورتّبته بأحسن ترتيب. وأردفته بكتاب **أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار**، وبكتاب **الدُرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد**، وبـ **النعِيّ**[١٦] للشيخ محمّد بن نصّار، وطبعته فراجَ ذلك رواجاً تامّاً.

ورأينا أن تدريب القرّاء على قراءة الصحيح لا يتمّ إلاّ بوضع كتاب. فألّفنا كتاب **المجالس السنية في مناقب ومصائب النبي والعِترة النبوية** في خمسة أجزاء الأربعة الأولى خاصة بالحسين عليه السلام، وبعضها يزيد على مائة مجلس، وطبعناها مراراً. والخامس

(١٤) نُسب هذا المقطع سابقاً (ص ٣٦) إلى حبيب بن عمرو.

(١٥) مرّ ذكر هذه الحادثة سابقاً (ص ٣٦).

(١٦) **النعي**: مجموعة من مراثي الحسين باللهجة العراقية. أنظر آغا بزرك الطهراني **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، م ٢٤، ص ٣٣٥، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٦.

خاص بالنبي والزهراء وباقي الأئمة الأحد عشر وقد نفدت نسخه كلّها.

ومن جهات الخلل في إقامة العزاء؛ جرح الرؤوس بالمدى والسيوف ولبس الأكفان وضرب الطبول والنفخ في البوقات وغير ذلك من الأعمال. وكلّ هذا مُحَرّم بنصّ الشرع وحكم العقل، فجرح الرؤوس إيذاء للنفس، مُحرّم عقلاً وشرعاً لا يترتّب عليه فائدة دينيّة ولا دنيويّة، بل يترتّب عليه زيادة على أنه إيذاء للنفس الضرر الدينيّ، وهو إبراز شيعة أهل البيت بصورة الوحشيّة والسخرية. وكلّ ذلك كلبس الأكفان وباقي الأعمال مُزْرٍ بفاعله وبطائفته لا يرضاه اللّه ولا رسوله ولا أهل بيته. فهو من عمل الشيطان وتسويل النفس الأمّارة بالسوء[١٧]، سواء أَسُمّي بالمواكب الحسينيّة أم بإقامة الشعائر أم بأيّ اسم كان. فالأسماء لا تُغيّر حقائق الأشياء وعادات الطَغام من العوامّ لا تكون دليلاً للأحكام.

وكانت هذه الأعمال تُعمل في المشهد المنسوب إلى السيدة زينب بقرب دمشق أحدثه بعض قناصل إيران ولم أحضره أبداً ونهيت عنه حتّى بطل. وقد عملت في ذلك **رسالة التنزيه**، طُبعت وتُرجمت إلى الفارسية. وقام لها بعض الناس وقعدوا، وأبرقوا وأرعدوا، وأزبدوا وهيّجوا طَغام العوام والقِشريّين ممّن يُنسب للدين. فذهب زبدهم جُفاءً ومكث ما ينفع الناس في الأرض[١٨].

لقد أشاعوا في العوام أن فلاناً حرّم إقامة العزاء، بل زادوا على ذلك

(١٧) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وما أُبَرِّىءُ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾، سورة يوسف ١٢، الآية ٥٣.

(١٨) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فأما الزبد فيذهب جُفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾، سورة الرعد ١٣، الآية ١٧.

أن نسبونا إلى الخروج من الدين. واستغلّوا بذلك بعض الجامدين من المعمّمين، فقيل لهم: إن فلاناً هو الذي شيّد المجالس في دمشق. فقالوا: قد كان هذا في أول أمره لكنّه بعد ذلك خرج من دين الإسلام. وعمدوا إلى شخص من الذاكرين يُسمّى السيّد صالح الحلّي(١٩). بذلوا له مالاً على أن يقرأ في مجلس أنشأوه كمسجد الضرار(٢٠) ليقرأ فيه السيّد صالح ويقدح فينا. ورَهَنَ بعضهم لذلك داره وأنفق المال الذي رهنها به في ذلك السبيل.

السفر للحج

في سنة ١٣٢١ عزمنا على الذهاب إلى حجّ بيت اللّه الحرام من دمشق الشام ومعنا العيال وليس معنا من النفقة غير خمس ليرات ذهبيّة فاستدنّا لإكمالها، ووفّق بمنّه وفضله لذلك. وكان ذلك في إمارة الشريف عون(٢١).

في مصر

فذهبنا من طريق مصر بحراً من بيروت إلى بور سعيد فالإسماعيليّة فالقاهرة. وزرنا مشهد رأس الحسين عليه السلام، فخلنا أنفسنا في كربلاء لأنّ ما يفعله المصريّون في ذلك المشهد لا ينقص عمّا يفعله العراقيّون الشيعة في كربلاء. وهو مشهد مبنيّ بناء متقناً، ورأينا فيه مُدرّسا مُعمّماً جالساً على منبر صغير وحوله تلاميذ يستمعون إلى درسه. وزُرنا مشهد السيّدة زينب وهو مشهد معظّم مبنيّ بناء غاية

---

(١٩) صالح الحلّي، خطيب مشهور في النجف، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٧، ص ٣٩٧.

(٢٠) مسجد الضرار: أقامه المنافقون في المدينة وأنكره النبي. **القرآن الكريم**، سورة التوبة ٩، الآية ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢١) عون الرفيق، كان شريف مكة من ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م إلى ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م.

في الإتقان. وقد ذُكر في حرف الزاي من أعيان الشيعة من هي صاحبة هذا المشهد[٢٢]. وزرنا قبر محمّد بن أبي بكر، والإمام الشافعيّ. أمّا مشهد السيّدة نفيسة فلم نوفّق لزيارته. ومشهد مالك الأشتر[٢٣] هو خارج القاهرة، لذلك لم نوفّق لزيارته. وذهبنا إلى القناطر الخيريّة وهي على النيل. وقضينا نهاراً كاملاً هناك بضيافة بعض الدمشقيّين الأكارم. وذهبنا إلى جُنينة الحيوانات وفيها من كلّ حيوان يمشي على أربع أو يطير بجناحيه. منها الأسد ولبوته، وهو في مكان منفرد لا يدنو إليه أحد رابض على سرير من الخشب كجلوس المَلِك على سرير المُلْك والزرافة والقنغر وحمار الوحش وبقر الوحش والفيل وغيرها من الطيور وحيوانات البرّ والبحر. وإلى الأهرام وأبو الهول والكنيسة[٢٤] وغيرها. وهذه الأسماء والأمور التي مرّت مذكورة مفصّلة في الرحلة الحجازيّة الأولى في الجزء الثاني من **معادن الجواهر** المطبوع.

زيارة الأزهر

وكان ذلك أيّام تعطيل الدروس الرسميّة. فذهبنا إلى الجامع فوجدنا شيخاً يُلقي درساً على الحاضرين كان قد فرغ منه. فجلست أنا ورفاقي الشاميون، فالتمسِ أحد التلاميذ من الشيخ أن يعيد لهم الدرس وهو في قصة الحَكَمَيْن[٢٥]. وكان قصده تبكيتنا ـ ونحن بزي أهل الشام ـ بما كان يتلاعب به معاوية وعمرو بن العاص

(٢٢) زينب بن يحيى، أنظر: **الأعيان**، م ٧، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢٣) السيدة نفيسة، أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ٢٢٧. مالك بن الحارث الأشتر، أنظر: **الأعيان**، م ١٠، ص ٣٨ ـ ٤٢.

(٢٤) لعل قصده بالكنيسة يكون معبد الغرانيت الواقع على أربعين متراً من أبي الهول. وهو في الحقيقة معبد الإله سوكاريس ـ أوزيريس.

(٢٥) أنظر قصة الحكمين في **الأعيان**، م ١، ص ٥١١ ـ ٥١٧.

بأهل الشام. فقال له الشيخ: لعلّ بعض الجالسين لا يروق لهم ما اشتمل عليه الدرس ـ يعنينا ـ فأصرّ عليه فأعاده. وكلما وصل الشيخ إلى شيء يُعاب على الشاميّين التفت ذلك التلميذ إلينا. حتّى وصل إلى تلاعب عمرو بأبي موسى فقال التلميذ: تشرّفنا بأبي موسى.

إلى الحجاز

ثم ركبنا القطار إلى بور توفيق. ومنها ركبنا في سفينة مصريّة. ونذرنا الإحرام قبل الركوب وأحرمنا. ولما حاذينا الجُحْفَة[٢٦]، صفّرت السفينة صفيراً عالياً إعلاماً بالمحاذاة، لأنه وُضِعَت في البحر علامات تدل على ذلك. فجدّدنا نيّة الإحرام والتلبية. ولم نزل سائرين حتّى وردنا جدّة. ومنها إلى مكّة المكرّمة. فأكملنا أعمال عمرة التمتّع وذهبنا إلى مِنى وعرفات وأتممنا فروض الحجّ ثمّ توجّهنا إلى المدينة المنوّرة على ظهور الجمال.

العودة

فاستأجرنا من مكّة المكرّمة إلى الشام الخشب بأربعين ليرة عثمانيّة، وهو مركب طويل له شقّتان يركب فيه إثنان على بعير واحد. والجمال قطاران تُحيط بهما العساكر السلطانيّة يميناً وشمالاً؛ ففي أحد الجانبين عسكر شاهانيّ على بغال، وفي الجانب الآخر «جندرمة» على خيل ذكور، وبين كلّ واحد وآخر مرمى حجر، وأمام الكلّ قائد معه مدفع على جمل. فإذا وصل الحاجّ إلى المنزل أقام قسم من هذا العسكر بالتناوب حول الحاجّ ببنادقهم وبين

(٢٦) الجُحفة جنوب غرب المدينة، وهي أحد المواضع الستّة التي توجب الإحرام قبل دخول مكّة.

الواحد والآخر مرمى حجر. فيصيح الأول: «كركون»! فيجيبه الآخر «حازرون»[٢٧]. ويصيح للذي بجانبه: «كركون». فيجيبه: «حازرون». حتّى ينتهي الدور ويبدأ غيره، فلا يزالون كذلك إلى الصبح. ولمّا وصلنا إلى مكان يُدعى المضيق، وهو طريق ضيّق بين جبلين، جاء الخبر إلى أمير الحاجّ، عبد الرحمن باشا اليوسف الكردي، بأن الأعراب وقفوا ببنادقهم على أعلى الجبلين، فإذا مرّ الحاجّ تناولوه بالرصاص، فلا يفلت منهم أحد. وكان لشيوخهم «خاوة» على السلطان، فكان يبعث بها من إستانبول فكان يأكلها من يتولى إمارة الحاجّ مع مشاركة غيره. فأرسل أمير الحاجّ تلك الليلة إلى شيوخهم فأرضاهم. وجمع البيارق التي توضع عادة فوق الحُجّاج ونصبها حوله ليوهم الأعراب أنّ معه عسكراً كثيراً. وسار الحاجّ في اليوم الثاني في ذلك المضيق بسلام. ولم نزل نسير حتّى وردنا المدينة المنوّرة. وبعد قضاء الزيارة وأداء المستحبّات، خرجنا منها قاصدين الشام. ولم نزل نطوي المنازل حتى وردنا القطرانة. وكانت السكّة الحديديّة الحجازيّة التي ابتُدِىء بمدّها من دمشق وصلت إلى القطرانة، فركبنا فيها حتّى وردنا دمشق. وكان معنا في هذا الطريق ميرزا علي أصغر خان، الصدر الأعظم في إيران الذي نُفي من إيران وذهب إلى الحجّ وجاء إلى دمشق ثمّ إلى أوربة. ثمّ عُيّن صدراً أعظم في إيران فذهب إليها. ثمّ قُتِل غيلة[٢٨]. وكان رجلاً سخيّاً محبّاً للخير، اجتمعنا به في طريق الحج ثمّ في دمشق. ودعوناه إلى المدرسة العلويّة التي كنّا اشتريناها من الحاجّ يوسف بيضون حين سفرنا لهذه الحجّة كما قدّمنا ذكره. فجلس فيها

---

(٢٧) «كركون» أي «أيها الخفير» و«حازرون» أي «حاضر».

(٢٨) علي أصغر خان أمين السلطان، اغتيل سنة ١٩٠٧م.

وطفنا به على حجراتها. ثمّ أرسل في اليوم الثاني مبلغاً للمدرسة كما مرّ. وبنى في دمشق باب المشهد المنسوب للسيّدة رُقيّة. وعملنا تاريخاً هو منقوش على المرمر فوق الباب موجود للآن[٢٩]. وأصلح مشهد رأس الحسين عليه السلام بجانب جامع دمشق، وكتب على جدران القبّة أسماء الأئمة الإثني عشر.

زيارة المدينة المنورة ثانياً وثالثاً

تشرّفنا بزيارة المدينة المنورة من دمشق ثلاث مرّات: المرّة الأولى في الحجّة الأولى سنة ١٣٢١ وقد مرّ ذكرها والمرّتان الأخريان في عهد إمارة الشريف حسين بن علي على مكّة المكرمة. فذهبنا من دمشق إلى المدينة المنورة في السكّة الحديديّة الحجازيّة، وذلك أيّام «الرخصة». إذ كانت إدارة السكّة تعطي «رخصة» في أثناء كل سنة لمن يريد زيارة المدينة بنصف الأجرة المعتاد أخذها. فكانت الأجرة أيّام «الرخصة» ثلاث ليرات عثمانية ذهباً، ذهاباً وإياباً في حين أنّ الأجرة في غير أيام «الرخصة» ثلاث ذهاباً وثلاث إياباً. وذلك قبل الحرب العالميّة الأولى. فوصلنا المدينة المنوّرة. وكان الإعلام عن سير القطار فيها يحصل بالنفخ في البوق بدلاً من قرع الجرس.

وذهبنا في إحدى المرّتين إلى العوالي[٣٠]. ولم يكن أحد ممن يُنسب إلى الدولة العثمانية يجسر على الدخول إلى تلك الأماكن خوفاً من

(٢٩) مشهد السيّدة رقية في محلّة العمارة قرب الجامع الأموي. وُسّع وجُدّد على الأسلوب الإيراني. ولعل هذا التاريخ قد أزيل. ولكنه مثبت في ترجمة السيدة رقيّة في الأعيان. أنظر: الأعيان، م ٧، ص ٣٤.

(٣٠) العوالي اليوم في ضواحي المدينة للجهة الجنوبية الشرقية، وسكانها من بني علي بدر شيعة، وهم حلف مع حرب.

أهلها. وكان الزائرون يصلون إلى مسجد قبا ويرجعون. وقد نصبوا قرب مسجد قبا مدفعاً فوق بناء عالٍ ووجّهوا فوهته إلى نحو طريق المدينة، حتّى أن عمّ خديوي مصر لما زار المدينة، استأذن حاكم المدينة أهل العوالي في أن يسمحوا له في دخول العوالي للتبرّك بالأماكن المشرّفة والصلاة في مسجد الفضيخ. فقالوا: ليدخل على الرحب والسعة لكن لا يدخل معه عسكر. فقال لهم الحاكم: هذا عمّ الخديوي ولا يمكن أن يدخل بدون عسكر تعظيماً له وإجلالاً. وأخيراً قرّ القرار على أن يدخل معه عسكر من عرب عقيل لأنهم عرب مثلهم. فقبلوا بذلك. ولما وصلوا إلى باب المسجد منعوهم من دخوله وقالوا لهم: حدّكم إلى هنا.

وإنما سُمّي هذا المسجد مسجد الفضيخ لأنه كان في محلّه تمر فضيخ[٣١] ليُعمل خمراً، فأراق النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلّم، ذلك الفضيخ.

ورأينا في جانب المسجد حجرة فيها أطفال يتعلّمون القراءة والكتابة وتحتهم حصير بالٍ. فأخذتنا الرقّة الشديدة عليهم، والذين في تلك البقعة كلّهم من الشيعة. فلمّا دخلنا تلك الحجرة نفر الأطفال منّا نِفار الغنم من الذئب وابتعدوا عنّا. وكلّمناهم فلم يجيبونا بحرف واحد. وطلبنا منهم أن يقرأ أحدهم شيئاً من القرآن ممّا تعلّمه فأبوا. فسألناهم عن معلّمهم فقالوا: غائب. فأخرجنا القطع الصغيرة من النقود المسمّاة بالمتاليك، فلمّا رأوها تهافتوا علينا ففرّقنا عليهم كلّ واحد قطعة. وأعطى رفيقنا، كمال أفندي الحلباويّ الدمشقيّ، خليفة المعلم ريالاً مجيدياً ليشتروا به حصيراً بدل حصيرهم البالي. وكان عندهم رجل من أهل العلم كنّا نعرفه

(٣١) الفضيخ: شراب يُتّخذ من التمر.

من النجف حين كان يتعلّم فيها العلم. فقلنا لهم: نريد زيارته. فقالوا: هو يأتي لهنا. فقلنا: لا نحن نزوره في منزله. فذهبنا فوجدناه في بهو متّسع قد بناه جديداً وقد عاد هو كأنّه شيخ هرم من شيوخ العرب. فشربنا عنده القهوة.

وخرجنا إلى مشربة أمّ إبراهيم وهي عِلّية كانت تسكنها مارية القبطيّة أمّ إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، ويبيت النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فيها، ولا تزال قائمة حتّى اليوم. فإمّا أنها كانت تُصَلّح وتُرَمَّم حتّى بقيت إلى اليوم، أو أنها بُنِيَ مكانها عِلّية مثلها. ولا بد أن يكون الوهّابيّة هدموها فيما هدموه من آثار الأنبياء والصالحين. وصلّينا في دارها ودعونا اللّه بما شئنا، وخرجنا فوجدنا جماعة ينتظروننا لكي نصلّي على جنازة عندهم. فقالوا: إنّا حفرنا أول قبر فانهدم قبل مجيئكم ثمّ حفرنا الثاني، فتفَضّل وصلِّ لنا على الجنازة، فإنّ حظّها كبير حيث انهدم القبر الذي حفرناه لها أولاً وتأخّر دفنها لتصلّوا عليها. فقلنا: لو لم نحضر ما كنتم تصنعون؟ قالوا: كنّا ندفنها بغير صلاة. قلنا: ولِمَ لا تَدْعون فلاناً العالِم ليصلّي على جنائزكم؟ قالوا: هو يقول لنا جيئوا بالجنازة إلى هنا. فعجبنا من ذلك.

ثمّ خرجنا إلى خارج المشربة وكان معي منظار فجعلت أنظر به إلى جهة المشرق فرأيت رجلاً مقبلاً. فلما نحّيْت المنظار عن عيني لم أره. وكانت الأرض التي إلى جهة المشرق ذات حجارة سوداء، وهم يسمّون مثل تلك الأرض الحَرّة، وكذلك هي لغةً. ومنها حَرّة واقِم لمكان جرت فيه وقعة مشهورة. ثم وصل ذلك الرجل فإذا هو من شيوخ العوالي السُنّيّين وعلى جنبه خنجر معكوف الرأس قِرابُه فضّة، وذلك علامة أنّه شيخ. فلمّا نظر إلينا وأنا لابس عمامة على طربوش، ومعنا من يلبس طربوشاً بدون عمامة، ومن يلبسون عمائم

على طرابيش، ومعنا المنظار، اعتقد أنّنا من أجزاء[٣٢] العثمانيين. فقال للذي معنا من عرب العوالي: «ويش هذول». قال: زوار. قال: بل هذول دولة، واللّه لو لم يكونوا معك لكان لي معهم شأن. وأصحابي لم يفهموا كثيراً ممّا قاله وتهدّد به، أمّا أنا ففهمت ذلك كلّه. ثمّ انصرف، فلمّا عدنا أخبر رفيقنا أصحابه بما جرى، فأرسلوا إليه يعاتبونه ويقولون: أتهدّد ضيوفنا؟ فاعتذر وقال: ظننتهم دولة.

وفي المرّة الأخرى كان قد حضر من النجف عالم من أهل العوالي اسمه الشيخ محمّد علي الهاجوج. فأردنا زيارته والصلاة في مسجدَيْ قُبا والفضيخ ومشربة أم إبراهيم. وخرج معنا من المدينة، الشريف علي بن بُديريّ الحسينيّ، وهو شابّ يجيد اللغة الفارسية، وكان حضر إلى دمشق وبقي في دارنا مدّة طويلة. وكان يحدّثنا يوماً بالمدينة فقال: يمكنني أن أقول هذا زَبَن عليّ كما زبن عليك أي استجار بي ولزم بيتي من قولهم زبن بالمكان أي أقام، ومنه المزابنة[٣٣] عند الفقهاء. فأخذناه معنا دليلاً فذهب واعتقل بندقيته ونزع نعليه ووضعهما تحت حزامه، وخرج يمشي معنا راجلاً ونحن ورفقاؤنا الشاميّون أيضاً راجلون، لأنّنا لم نجد دواباً نكتريها والفصل شتاء والأرض دهسة لا يصعب المشي عليها والمسافة قريبة. وصادف أن الشيخ محمّد علي الهاجوج الذي جئنا لزيارته جاء في ذلك اليوم لزيارتنا إلى المدينة. واختلفنا في الطريق فجئنا إلى محلّه وجلسنا في ظلّ شجرة على حصير. فسألنا عنه فأُخبِرنا

---

(٣٢) لعل في «أجزاء» تصحيفاً لـ «أُجراء».

(٣٣) المزابنة هي بيع مقدار من الثمار على الشجر بمقدار من الثمار المقطوفة أو غير المقطوفة يعادلها. وهي محرمة لأن فيها إمكان غبن على أحد الفريقين.

أنّه ذهب للمدينة لزيارتنا، وقد قرب وقت الظهر. فجاؤوا لنا بتمر ولبن حليب، وقد مسّنا الجوع فأكلنا حتّى شبعنا بعض الشبع ورفعنا أيدينا. وسأل هو عنّا في المدينة فأُخبر بمجيئنا إليه فعاد ووصل إلينا. ثمّ دعا أباه وناجاه فقام. وعلمت أنه قال له أن يصنع لنا غداء فقلت له: إنّنا مدعوّون على العشاء الليلة عند السيّد عمران الحبّوبي ولا يمكننا التأخّر فقال: كيف يمكن أن تزورونا ولا تأكلوا زادنا؟ فأقسمت عليه أن يرسل إلى أبيه أن لا يصنع شيئاً. فأرسل إليه فعاد الرسول قائلاً: قد ذبح خروفاً. وحضر أبوه فقال بعض رفقائنا الشاميين: دعوا الذبيحة إلى غد واصنعوا لنا منها غداء. فصاح به أبو الشيخ محمّد غاضباً: «اخمجها»! فقلت للشاميّ: أعطنا سكوتك ودعني أنا أكلّمه، فهذا ليس من شغلك. وقلت لهم: ذبيحتكم مأكولة فاصنعوا لنا منها غداء اليوم. فقالوا: هذا لا يمكن حتّى نطبخ الأرز وتتعشّوا عندنا الليلة. فقلت للشيخ محمّد علي: أنت عربي وقد سكنت النجف، أليس من كان مدعوّاً عند أحد ولم يحضر فعليه «حشْم». أي أن يعمل دعوة لصاحب الدعوة والمدعوّين معه، وقد أخبرتكم أننا مدعوّون الليلة على العشاء عند السيّد عمران الحبّوبي. فرضوا بعد جهد أن يقتصروا على الغداء. وهم عندما يرحّبون بالضيف يقولون: يا هلا ومرحباً زارنا الغيث زارنا الغيث.

وممّا حدّثنا به والد الشيخ محمّد علي الهاجوج ـ وهو شيخ كبير لكنّ عينيه كالسراجين وكذلك جميع أولئك الأعراب ـ أنه في سنة من السنين طلب المغاربة والبخاريّة المجاورون بالمدينة وأهل المدينة وغيرهم إلى حاكم المدينة العثمانيّ، واسمه سعيد باشا، أن يجرّد حملة على أهل العوالي، ويعطي المغاربة والبخاريّة والمدنيّين أسلحة ليكونوا مجاهدين مع الجيش. فوافقهم على ذلك وخرجوا

لضرب العوالي وقتل أهلها واستئصالهم. وأخرجوا معهم مدفعاً. وأوّل ما فعلوه قبل الخروج للحرب أن قطعوا الميرة[٣٤] على أهل العوالي ووكّلوا بالأبواب جنوداً كلّما وجدوا شيئاً مع أهل العوالي من مأكل وملبوس سلبوهم إيّاه. قال الهاجوج: وكنت اشتريت من المدينة شيئاً من الأرُزّ لطبخه فأخذه منّي ضابط في بعض الأبواب، فقلت له هذا شريته لغذائنا. فقال: كلوا برسيم. وهو الذي يُسمى في العراق «قتّ» وفي سورية «فصة» يستعمل لعلف الدواب حال كونه أخضر. ثمّ توجهت الحملة إلى العوالي فجعلت تقطع النخيل الذي في طريقها لأهل العوالي لئلاّ يعوقها عن الحرب. ونصبوا المدفع على ربوة. وبلغ الخبر أهل العوالي. ولم يكن لهم سابق علم بذلك. وكانوا متفرّقين في أعمالهم فلم يجتمع منهم سوى ثلاثين رجلاً منهم والد الشيخ محمّد علي الهاجوج، وبينهم عبد. فهجموا ببنادقهم على المدفع وهو يقذف بقنابله وصعدوا الربوة فقُتل العبد وسلم الباقون. فأسروا المدفعيّ وهو الذي أخذ الأرز بباب المدينة وقال: كلوا برسيم. فخاف كثيراً لِما كان سلف منه من الإساءة. فقالوا له: كن مطمئناً فإنّا لا نقتل الأسير بل نكرّمه. وانهزم العدو وجعل يُلقي سلاحه في الأرض وهم وراءه يقتلون منه. ولم يزالوا يتبعونهم حتّى دخلوا المدينة وأغلقوا أبوابها. ولم يجسروا على الخروج لدفن قتلاهم. فكانوا يعطون النخاولة[٣٥] عن كلّ قتيل خمس ليرات عثمانية ذهبية لينقلوه لهم إلى المدينة فيدفنوه.

---

(٣٤) قطعوا الميرة أي منعوا إيصال المُؤَن.

(٣٥) النخاولة، واحدهم النخوليّ. وهم زرّاع النخل. وكانوا محتقرين ولا يحقّ لهم السكن في المدينة. وهم من الشيعة الإثني عشرية.

والنخاولة حلف مع حرب الممتدّة من مكّة إلى المدينة. وفي كلّ عشرين سنة يكتبون بينهم كتاباً بهذا الحلف تبقى نسخة منه عند النخاولة وأخرى عند حرب. ويتضمّن هذا الكتاب المتضمن لهذا الحلف؛ أنّ على حرب أن ينصروا النخاولة إذا تعدّى عليهم عدوّ، وليس على النخاولة أن يحاربوا مع حرب. فكان الركب من النخاولة وفيه ستّة أشخاص أو أقل يأتي للحجّ ويعود آمناً مطمئنّاً لأنّه حلف مع حرب. في حين لا يقدر الحاج الشامي ولا غيره ومعه عسكر الدولة أن يسافر بين مكّة والمدينة إلاّ بخاوة يدفعها لرؤساء القبائل.

وفي حجّتنا الثانية سافر ركب الحاجّ من مكّة للمدينة، فما زالوا يدفعون الخاوة حتّى قاربوا المدينة ورأوا القبّة الشريفة، وكان هناك رئيس يلقّب بالأحمديّ فطلب منهم خاوة وكان قد نفد ما معهم، فمنعهم من دخول المدينة وعادوا إلى مكّة. لذلك لم نتمكن نحن في تلك السنة من زيارة المدينة المنوّرة.

أمّا أهل العوالي فبينهم وبين حرب محالفة الندّ للندّ وحرب يعدّونهم فرقة منهم. فلمّا وقعت هذه الواقعة أركب أهل العوالي رجلاً ـ على قاعدة أعراب تلك البلاد ـ ناقة قد «شحّروها» أي طلوها بالسواد ووَجْهُه إلى مؤخّرها وقد شُقّ قميصه، وأرسلوه إلى أحياء حرب. والعادة أنّه متى رآه الأعراب بتلك الحالة علموا أنّه مستنجد، فهبّت حرب حينئذٍ إلى سلاحها وذهبوا سراعاً إلى الطريق التي بين يَنْبُع والمدينة التي تأتي منها البضائع بحراً وتُنْقَل على ظهور الجمال إلى المدينة. فاستولوا على ما وجدوه منها في الطريق. وكلّما خرجت بضاعة من البحر استولوا عليها. فضاق الخناق بسعيد باشا وبأهل المدينة، فطلبوا الصلح فاصطلحوا على أن يكون ما قتله أهل العوالي هدراً وما أخذوه من السلاح وما أخذته

حرب من البضائع الأخذيّة لا يُطالَبون بشيء منه. وانتهى الأمر على ذلك. وقال بعض أهل العوالي شعراً زجليّاً يذكر فيه هذه الوقعة علق بذاكرتي هذان البيتان:

عينيك يا من صاح في قصور العوالي
جِنّا حمى راسك الياجاك الدهوم
سعيد باشا ما فيه لا صلح وموالي
واللوم يغشى شارب المايتوم(٣٦)

ثمّ إنّ الشريف علي بن بُديري عاد بنا من طريق من جهة الشرق غير الطريق التي جئنا منها. وكانت من جهة الغرب لأن هذه أقرب. فكان يمرّ على أهل العوالي وهم مضطجعون على السطوح فيسلّم عليهم فيردّون عليه السلام ويقولون: يا علي تفضّلوا تقهووا فيقول لا بالله متقهوين، حتّى دخلنا المدينة من شرقها. فلمّا قربنا منها قال لنا: أسرعوا فالطريق هنا غير مأمون والسكّان هنا ليسوا من أهل العوالي. ورأينا هناك الحنظل وفسيل النخل.

زيارة بيت المقدس

وفي هذه السنة أي سنة ١٣٢١ ذهبنا من دمشق لزيارة بيت المقدس ومشاهد الأنبياء فيه، على نبيّنا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام. ونزلنا في تكيّة النبي داود عليه السلام وهذه التكية أنشأها السلطان سليم العثماني ووقف لها أوقافاً. ينزلها الزائرون ويؤتى بالطعام. وزارنا فيها الشيخ حسن متولّي التكيّة ومعه رجل مُثْرٍ من أهل يافا قيل لنا إن عنده ١٤ بيّارة لزرع البرتقال والليمون

(٣٦) يقول: لِعَيْنَيْكَ يا من استجار بقصور العوالي، نحن نحميك يا من هوجِمَ. سعيد باشا لن نصالحك ولن نكون مواليك، واللوم يغشى شرف من لا يتوم (أي من لا يذبح شاته أيام المجاعة).

والحمضيات وغيرها. وفي يافا من عنده بيّارة واحدة يعدّ غنيّاً
ودعانا اليافي إلى ضيافته عند الرجوع، لكنّا لم نتمكن من ذلك
وقال لنا الشيخ حسن في حديثه: إنّني ذهبت مرة لدمشق
فاستخرت الله أن أنزل عند فلان، وعدّد أشخاصاً، فلم تكن
الاستخارة جيّدة. فاستخرت الله أن أنزل عند الشيخ عطا الكسم
فجاءت جيّدة فنزلت عنده.

وأمر الشيخ حسن ابن أخته الشاب الشيخ أحمد أن يصحبنا طيلة
إقامتنا في القدس ففعل. ولمّا دخلنا مسجد الصخرة ونزلنا إلى
أسفلها رأينا عمودين صغيرين فوقهما قوس صغير مقرنص[٣٧]
فسألنا الخادم عنه فقال: إنا نقول للعامّة هذا لسان الصخرة الذي
كلّمت به النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، أما أنتم من أهل المعرفة
فلا نقول لكم هذا. ثمّ ذهبنا لزيارة المشهد المنسوب إلى موسى
عليه السلام وهذا المشهد المنسوب إليه غير محقّق. واليهود لا
يزورونه بل يُنكرون أن يكون قبره هناك، ويقولون إنّه توفي في
التيه، ومحلّ قبره غير معلوم على التعيين، إنّما المعلوم أنّه في التيه
(أقول) وإنّما ظهر هذا القبر في عهد صلاح الدين الأيّوبي. فجعل
المسلمون يزورونه في يوم عيد الصليب[٣٨] فلا يُفتّح في السنة إلا
مرّة واحدة. ويوم زرناه كان مقفلاً وذهبنا إليه في العربة. وكان
ذلك أوّل شقّ طريق العربات، وكانت الطريق معبّدة من القدس
إلى الشريعة[٣٩] في مكان ما يقولون إنّه غُسِلَ فيه[٤٠] عيسى عليه
السلام حين ولادته. فشُقّ فرع للطريق من محاذاة مشهد النبي

(٣٧) مقرنص: مُدَرّج.
(٣٨) عيد الصليب يعني به عيد الفصح.
(٣٩) الشريعة: نهر الأردن.
(٤٠) في الأصل «يقولون إنه غسل عيسى» فأضفنا «فيه».

موسى. ورأينا النصارى الروس يلثمون الصخور في الطريق الذي يقولون إنّه مُرّ فيها بعيسى حين وُلد، وذلك قرب القدس. وبعد الزيارة سألنا الشيخ أحمد: هل بقي مزار غير هذا؟ فقال: نعم مزار الشيخ حسن الراعي. فقلنا: ومن هو الشيخ حسن الراعي؟ فقال هو راعي سيّدتنا عائشة. فذهبنا وزرناه مع علمنا بأن السيّدة عائشة لم تأتِ فلسطين ولم يكن لها راع يُسمّى الشيخ حسن.

الزيارة الثانية

وتشرفنا أيضاً بزيارة بيت المقدس بعد ذلك من جبل عامل بعد الحرب العامّة الأولى والاحتلال الإنكليزي مرّة ثانية. فلمّا دخلنا مسجد الصخرة جاء الخادم فنظر إلينا ونحن جماعة وقال لابنه: هات الكُبّة (أي الجُبة). فجاء بها ووضع يده على الصخرة وطلب إلينا وضع أيدينا عليها وابتدأ يقول: السلام عليك يا صخرة اللّه. فقلت له: لا يلزم هنا خلط، هذا مسجد ليس فيه إلاّ الصلاة والدعاء. فصلّينا ودعونا. وحضر وقت صلاة العصر، فجاء بنا إلى زاوية من المسجد وأجلسنا هنا فقلت له: لِمَ أجلستنا هنا؟ نحن نريد أن نصلّي جماعة. فقال: يا سيّدي أنتم تصلّون معنا؟ فقلت: ولِمَ لا نصلّي معكم ألسنا وأنتم مسلمين؟ فقال: تفضّلوا. فقمنا وصلّينا العصر مع الإمام. وبعد الفراغ تصافحنا.

وشاهدنا اليهود في المبكى، وهو بجانب حائط المسجد الغربي من خارجه، وجندي إنكليزي يمنع الناس من الدخول إلى محلّ المبكى. فنظرنا المبكى من خارج واليهود مجتمعون فيه. واجتمع المشايخ في مكان تحت المسجد بقرب المبكى وأقاموا حلقة ذكر وبالغوا في الضرب على الدفوف وعلوّ الأصوات ليشوّشوا على من في المبكى.

وذهبنا إلى كنيسة القيامة فرأينا شيخاً مسلماً يلبس العمامة البيضاء جالساً على دكّة في الدهليز. فسألنا عنه فقيل لنا: حيث إن النصارى فِرَق عديدة، فكلّ فرقة تطلب أن يكون القيّم منها، جعلت الحكومة قيّماً مسلماً. ثمّ صعدنا إلى الأعلى فوجدنا الزائرين منهم مَنْ كهيئة الراكع مدّة طويلة ومنهم على هيئات أخرى تعبّداً للّه تعالى. ثمّ نزلنا إلى الأسفل فرأينا المكان الذي يزعمون أنّه دُفِنَ فيه عيسى عليه السلام.

وذهبنا إلى بلدة الخليل عليه السلام، ومشهده مبني بالصخور العظام العاديّة فابتدأ الخادم يتلو علينا زيارة أوّل قبر فلمّا فرغ، أنشأنا زيارة. فلمّا جئنا إلى القبر الثاني قال: يا سيّدي زر أنت فأنا لا أقدر على مثل زيارتك. ويظهر أن القبور هناك هي تحت الطابق الفوقاني من الأرض. وهناك بئر يسمّونه بئر الأرواح لم نعرّج عليه لظنّنا أنّه من نوع المخرقة.

وفي سنة ١٣٤١ تشرّفنا بالحجّ مرة ثانية في عهد الملك حسين بن علي بعد انتهاء الحرب العامّة الأولى من طريق مصر وكنّا يومئذٍ في جبل عامل فدعانا جماعة من أهل دمشق، للذهاب معهم إلى الحجّ وتعهدوا لنا بالزاد والراحلة. وعملنا في ذلك رحلة تذكر في الرحلات (إنش)[٤١] بعنوان الرحلة الحجازيّة الثانية.

في الحرب العامّة الأولى

لما وقعت الحرب العامّة الأولى التي ابتدأت سنة ١٣٣٢ وانتهت سنة ١٣٣٦ كنت في جبل عامل فخطر لي نقل العيال والأولاد إلى دمشق ومنهم من هو في سنّ العسكريّة، ظنّاً منّي أن ذلك

(٤١) «إنش» اختصار «إن شاء الله».

أبعدهم عن الخطر. فنقلتهم وبعت جميع ما عندي من الحبوب المتنوعة في شقراء، ومبلغه سبعمائة مدّ بعتها جميعها بأبخس ثمن، كلّ مدّ بسبعة قروش. وبلغ ثمن المدّ بعد ذلك ١٤ ريالاً مجيديّاً.

في جبل عامل

ثم رأيت وجودنا في شقرا أبعد عن الخطر فعدت إليها مع العيال والأولاد. ولاقينا في ذلك شدّة ورخاء وعسراً ويسراً. ووصل الحال إلى أن لم يبق عندنا من القوت شيء لأنّا كنّا قد بعناه جميعه بأبخس ثمن. ثم وقع الغلاء المفرط فيسّر الله تعالى ما اقتنينا به بقراً وماعزاً وغنماً وفرساً وأتاناً. واستعملنا الفلاحة فدرّت علينا ما نموّن به العيال والأطفال.

ووقع الوباء، في جبل عامل، المسمّى بالهواء الأصفر (الكوليرا) حتى إنه مات في يوم واحد في قريتنا شقراء، وهي قرية صغيرة، إثنا عشر نفساً. وكان الوقت صيفاً ودخل في أثناء ذلك شهر رمضان وامتنع الناس من تغسيل أمواتهم ودفنهم. حتّى الأخ من تغسيل أخيه، وحمله إلى قبره ودفنه، خوفاً من العدوى. وزاد في الطين بلّة أن «الجندرمة» كانت تجول في القرى تطلب الفارّين من الخدمة العسكريّة، فأغلق الناس بيوتهم وأقفلوها واختبأوا فيها. فوظّفنا لتغسيل الرجال رجلاً فقيراً يسمى علي زين، ولتغسيل النساء امرأة تُسمى عمشا بنت الذيب. فكان كلّما تُوّفي واحد يغسله علي الزين أو عمشا، ونذهب إلى البيوت ندقّ عليهم الأبواب ونقول لهم: اخرجوا ولا تخافوا من «الجندرمة» فأنا معكم. فيخرجون ويحملون الجنازة وأنا خلفهم. ومع ذلك إذا وصلوا إلى منعطف يتسلل بعضهم فلا أزال معهم حتّى نُصلّي على الجنازة وندفنها ونعود إلى البيت. فما نكاد نصل حتّى يأتينا خبر جنازة أخرى

فنذهب إلى أن ندفنها وهكذا طول النهار. وتوفّيت امرأة فقيرة، فأبى كلّ أحد أن تُغسل قرب بيته. وكانت هناك خربة فقلت: غسّلوها فيها. فأبى ذلك الجيران. فقلت: غسلوها في المعصرة. ففعلوا ولم نجد مَنْ يحملها، فصادفنا رجلين وامرأة، فألزمتهم بحملها فحملوا جوانب النعش الثلاثة وحملت أنا الرابع، إلى أن صادفنا رجلاً فحمل مكاني. ثم صادفوا منّي غفلة فانسلّوا وتركوا الجنازة في الزقاق، إلى أن فاجأنا جماعة فألزمتهم بحملها فحملوها.

وأمّا أقرباؤنا فخرجوا من القرية إلاّ قليلاً منهم. فبعضهم ذهب إلى الصوّانة وبعضهم إلى صدّيق (مكان قرب تبنين). وفي ذلك أقول:

قلْ للذين إلى «الصوّانة» ارتحلوا
ومن أناخوا المطى في أرض صدّيقِ

لو تعلمون الذي قد حلّ بعدكُمُ
بنا من الدهر كَرْبٍ ومن ضيقِ

ترى الأنام سكارى من جواه وما
ذاقوا السلافة من دَنٍّ وراووقِ

ضيف جديد به الأرواح أضيع من
كتاب ربّك في أبيات زِنْديقِ

ضيف جديد به القرّاء قد نَفَقَتْ
أسواق مَنْ كان منهمْ كاسدَ السوقِ

لا مرحباً بك يا ضيفَ الهموم ولا
أهلاً بوجهك فارحلْ غيرَ مومُوقِ

وأمّ مَلْدَمَ[42] مع ما بالورى فعلتْ
أقلّ منك أذىً يا شرّ مخلوقِ

(٤٢) أمّ ملدم: الحمّى.

ولست تلقى لركعات الهديّة[٤٣] من
شايٍ ومن سكّرٍ في وشطِ إبريقِ

أمّا أنا فخرجت من البيت وبنيت خيمة بالقرب منه تحت شجرة زيتون. فكان أهل القرية يأتي أحدهم فيقف وراء الحائط ويخبرني أنّ عنده مريضاً بهذا المرض. فأقول له: إسقهِ الشاي. ولولا قيامي بدفن الأموات لدُفنوا بغير غسل ولا كفن، وأهيل عليهم التراب أو أكلتهم الجرذان والكلاب.

ثمّ أمرت أهل القرية أن يخرجوا من البيوت إلى الكروم ونحوها ويتفرّقوا، ففعلوا فخفّت وطأة المرض عنهم.

وكان لنا جار من أقربائنا فتوفّي بهذا المرض. فقال أهل البيت: نريد أن نذهب من هنا إلى بعض الأماكن التي ليس فيها وباء. قلت: ذلك إليكم أما أنّا فباقٍ هنا حتّى يرتفع هذا الوباء. قالوا: إنّما نريد الذهاب لأجلك. فقلت: أنا غير ذاهب. وكان هذا المرض قد أصاب أهل القرية قبل ذلك بمدة ومات به جماعة، لكنّ أهل القرية لم يعرفوه ولم يعرفه أحد غيري، فكتمت ذلك عنهم حتّى لا يدبّ فيهم الذعر. إلى أن جاءني يوماً بعض بني عمّنا يقول: إن زوجتي أصابها شيء كأنّه الهواء الأصفر، فقلت: بل هو هو. فاصفرّ وجهه. وسمعني آخر من بني عمّنا فاصفرّ وجهه وخرج صباحاً بأهله من القرية. أمّا أنا فسَلِمت من هذا المرض ولم يصبني. وقال لي أهل بيتنا: لا شك أنّه سيدفع اللّه عنّا لما نسمعه من أهل القرية من الدعاء لك.

وضاقت بنا أمور المعيشة فكنّا نشتري الذرة البيضاء المدّ النباطي بثلاثين إلى اثنين وثلاثين قرشاً فنقتات به، ونشتري لأخت لنا في

(٤٣) ركعات الهديّة: صلات تُهدى لروح الميت.

مجدل سلم ما يكفيها وبناتها الثلاث. فكنّا نطبخه مع اللحم، كما نطبخ الأرز، ونجرشه ونعمل منه مع اللحم كبّة بالصينية، ونطبخه مع الحليب كالأرز بالحليب.

ودُعينا مرّة لتشييع جنازة في بنت جبيل فوضعوا طعاماً فاخراً كالذي كان يُصنع قبل الحرب، لأنّ أهل بنت جبيل كانوا يبيعون ويشترون إبّان الحرب فأثروا من ذلك، وكان معنا جماعة من العلماء، فلمّا وُضع الطعام تهاووا عليه بنهم زائد. أمّا أنا فرفعت يدي من الطعام ولم أستطع أن أسيغه ـ وإن كنت مثلهم ـ تألّماً من حالتهم.

وفي هذه الأثناء طُلب أهل العلم للخدمة العسكريّة ولم يكن لهم من مخلص منها إلاّ إمامة الجوامع، وكان القانون العثماني لا يقبل لإمامة الجامع إلاّ من كان عنده براءة سلطانية أو مراسلة شرعيّة، والشيعة ليس عندهم شيء من ذلك. فبقوا حائرين، وحضروا إلى صيدا يتداولون في الأمر وأرسلوا إلى الوالي يسترحمون إعفاءهم من البراءة السلطانية والمراسلة الشرعية، إذ لا يوجد عند واحد منهم ذلك. واتّفق أن حضر إلى بيروت عدد كثير من شيعة جبل عامل طُلبوا للخدمة العسكريّة وساروا بمظاهرة حماسيّة نحو سراي الوالي. وانضمّ إليهم أضعافهم من المتفرجين، فلمّا رأى الوالي هذا الجمع سأل عنه فأُخبِر أنّهم أهل جبل عامل جاؤوا متطوّعين في الجيش. فأبرق الوالي حالاً إلى إستانبول يخبر بذلك ويطلب إعفاء أئمّة الجماعة من البراءة والمراسلة. فجاءه الجواب بأن أئمة الجوامع من الشيعة معفوّون من الخدمة العسكرية ولا يشترط أن يكون معهم براءة ولا مراسلة. وجاءت البشارة بذلك إلى صيدا وغيرها. واتّفق أن بعض من ليس معه براءة ولا مراسلة من إخواننا السنّيّين

جاء يطلب إمامة جامع مدّعياً أنه شيعي، فرُدّ طلبه لأنه معروف بغير ذلك.

وكنت أخذت وثيقة بإمامة جامع، فاضطررت إلى الذهاب لصيدا للتأشير عليها. وكان رئيس الدائرة بكباشيّاً اسمه إسحاق أفندي، وتحت يده أحد المنتسبين إلى العلم من جبل عامل، سمساراً لأخذ الرشوة فأخذ منّا أربعة مجيديّات لقاء التأشير. وذهبنا إلى «اللوكندة» لنبيت فيها. فقال لنا صاحبها: أعطوني أسماءكم ووثائقكم لأريها لمن يحضر ليلاً من العسكر فلا يزعجونكم. فأبى صاحبي: فلما كانت الساعة الرابعة تقريباً جاء اثنان من العسكر ببنادقهما، وطلبوا الوثيقة من صاحبي. وجعلا يعتلاّن ويزعجانه. وكان معنا في الحجرة شيخ شائب، فجعلا يزعجانه وهو يقول لهما في جملة كلامه: أنا كنت اليوم عند البكباشي. فيقول له أحدهما: هَبْ أنّك كنت عند المشير فأنا أريد منك وثيقة. فما انصرفا إلاّ بشقّ الأنفس. وكان سبب ذلك حماقة صاحبي. أما أنا فلم يتعرّضا لي بشيء.

وكنت هيّأت قبل الذهاب إلى صيدا ثمن عِدلين من الذرة وكان عندنا دابّة واحدة. فطلبنا من جيراننا عارية دابّة لنأتي بالذرة من برعشيد. وعهدنا إلى من يأتي بذلك فصادف أنّه في اليوم الثاني شُغلت دابّتهم وفي اليوم الثالث صار سعر المدّ ١٤ ريالاً مجيدياً. فلمّا عدنا من صيدا وجدنا أن ما معنا لا يكفي لشراء مدّ واحد ونحن نصرف في كلّ يوم ما يقارب ثلاثة أمداد. فصرنا نقتات من الحِلبة بعد أن نحلّيها بالماء ونطبخها بالمثاقيل، أو نقتات من نبات الأرض بعد أن نطبخه ونضع له شيئاً من الملح والزيت إن وُجد. وإنْ كان عندنا شيء من شعير أو حنطة مخلوطة بالتراب وغيره،

جهد العيال في تنقيته وخبزوا منه أرغفة ووضعوها في الصندوق وأقفلوه، وأعطوا كلّ واحد من الأولاد كلّ يوم قطعة رغيف. وكان الناس يأكلون البلّوط ويطبخون الباقية المعدّة لعلف الدوابّ ويخبزونها ويأكلونها. فسمع باسمها أحد أولادنا الصغار، فظنّها خيراً من الشعير فقال: اصنعوا منها خبزاً لا من الشعير. فلمّا ذاقها عافها ورجع إلى الشعير. وكثر الشحّاذون، فجعل أهل البيت يتبرّمون بهم. فقلت: لا تُرجعوا أحداً خائباً وأعطوا أحدهم ولو بقدر البِشْلِك[44]. ثمّ حلّينا الترمس وجعلنا نعطي السائل حبّات منه.

وجاءني يوماً الحاجّ محمّد مبارك، وكان من أهل النعمة عند خليل بك الأسعد وأسلافه، وأبوه مبارك كان عبداً أسودَ، تزوّج بإمرأة بيضاء فخرج أولاده مثلها. فقال لي: أنا جوعان، فقلت له: من ساواك بنفسه ما ظلمك، ليس عندنا غير الحلبة. وأحضرت إناءين أحدهما له والآخر لي. فقال: ألا يوجد لبن؟ فقلت: بلى وجئت بإناء من اللبن وتغدّينا من الحلبة واللبن بغير خبز. وقال: معي كتب وأريد بيعها فهل تشتريها؟ فوجدت جلّها طبع إيران وعندي منها. ووجدت بينها **شرح الحماسة** للخطيب التبريزي[45]. فأعطيته أربع مجيديّات وأخذته. وهو لو أعطيته ربع مجيدي لقبل، لكنّي لم أحبّ أن أشتريه إلاّ بزيادة عن قيمته.

ثم جاء موسم الفول فكان فيه الفرج وجعل الناس يطبخونه ويضعون عليه الملح ويأكلونه أو يضعون عليه المخيض ويأكلونه، والزيت كان معدوماً. ثمّ دخل موسم الحنطة والشعير والعدس

(٤٤) البشلك: قطعة نقد كبيرة الحجم قليلة القيمة.

(٤٥) في الأصل «الخطيب البغدادي»، وهذا سهو. لأنه لم يُعرف للخطيب البغدادي شرح للحماسة. وفي الأعيان ٣٤ شرحاً للحماسة ليس فيها ذكر للبغدادي. أنظر: **الأعيان**، م ٤، ص ٥١١ ـ ٥١٢.

وغيرها والثمار، ففرّج اللّٰه عن الناس وانقضت تلك السنون العسرة كما قال الشاعر:

ثـمّ انـقـضـتْ تـلـك الـسـنـون وأهـلـهـا

فـكـأنّـهـا وكـأنّـهـم أحـلامُ[٤٦]

وانتهت الحرب العامّة الأولى ونحن في جبل عامل كلّ مدة الحرب.

في الهرمل

حضر أثناء الحرب إلى شقراء اثنان من أهل الهرمل، وطلبا إلينا أن نذهب معهما إلى الهرمل لتدارك أمر فيه إصلاح بين فئتين متنازعتين على ميراث خطير. ويُخشى من بقاء النزاع وجود مفاسدَ كثيرة عظيمة، ويتوقّف تدارك ذلك على حضورنا. فسافرنا معهما. ولمّا وردنا بيروت وجدنا السفر صعباً جداً. فطلبنا إلى بعض الأصحاب تسهيل أمر سفرنا، فقال: لا يمكن ذلك إلاّ بحضوركم لدائرة البوليس وأخْذ رخصة للسفر. فأصرّ علينا الرجلان والتمسا حضورنا للدائرة ولو كان في ذلك حزازة ومشقّة علينا رغبة في الإصلاح بين المؤمنين. فحضرنا ووجدنا الدائرة ملأى من الناس، والجلاوزة تطردهم طرد الغنم. فهممنا بالرجوع، فرجا منّا الرجلان إتمام السعي. فلمّا وصلنا إلى باب الدائرة ورآنا الرئيس، وهو تركي، أوعز إلى الحاجب أن لا يمنعنا من الدخول. فدخلنا إلى الشرطي المكلّف بكتابة الجوازات، وهو بيروتي، فلم يلتفت كثيراً وبقي مشتغلاً بعمله. فلمّا رأى ذلك الرئيس أشار إلينا بالحضور إليه، وأخذ في كتابة الجواز لنا مع أن ذلك ليس من شغله. واندسّ بيننا

(٤٦) البيت لأبي تمام. وقد نشر محسن الأمين كتاباً حول أبي تمام ثم ضمّنه أعيان الشيعة. أنظر: **الأعيان**، م ٤، ص ٣٩٠ - ٥٣٩.

رجل ذو هيئة وهندام وثياب فاخرة، ووضع ورقته بين أوراقنا خِلسة فنظر إليه الرئيس شزراً. ولمّا أتمّ كتابة جوازاتنا قال: في أمان اللّه خُجا أفندي. ونفخ ورقة الذي اندسّ بيننا فأطارها ووقعت على الأرض وأخذها صاحبها وعاد من حيث أتى.

وكانت المسألة التي طُلبنا للهرمل لأجل فصلها، أن رجلاً مُثْرياً يُسمى الحاجّ محمّد علي المقهور تزوّج امرأة من آل بُلَيْبِل، وتوفّي وهي حامل فولدت ذكراً، وادّعى أهل زوجها أنّها ولدته ميتاً فلا ميراث له. وادّعت هي أنّها ولدته حيّاً ثم مات فورث أباه ثم ورثته هي.

ولما دخلنا الهرمل وجدنا المسألة قد وصلت إلى الحاكم وقد سيق أخو الزوجة مخفوراً إلى بعبدا. فقلنا لهم: إذا كان مُرادكم مراجعة الحاكم فلماذا أزعجتمونا وأحضرتمونا لهنا؟ ـ وظَنَنَّا أن الحالة عندهم كما هي الحالة في بلادنا، متى وصلت المسألة للحاكم لم يمكن حلّها حتّى يعجز الطرفان أو أحدهما ـ فقالوا: الآن نرسل للمدير ويُرجع أخو الزوجة ويُفرج عنه ولا يكون إلاّ ما تأمر به وتحكم.

وفي الصبح حضر المدير[٤٧] وهو تركيّ، ابن أخت لي رضا باشا قائد عموم جبل لبنان، واسمه نوري أفندي، وقائد الدرك وهو درزيّ، وحاكم الصلح المكلّف بفصل الدعاوى وهو مسيحي. جاء الثلاثة لينظروا من هو هذا الذي جاء لفصل هذه الدعوى المهمّة. وبعدما تحدّثنا معهم مدّة خرجوا. وقال المدير: أنا أرسل إليك أوراق الدعوى لأجل فحصها، لكنّه جعل الحاء المهملة خاء معجمة، وقال

(٤٧) مدير الإيالة.

لمن معه: «أنا هذا السيد عجبتو» أي أعجبني. ثمّ أرسل إليَّ أوراق الدعوى.

وفي اليوم الثاني صباحاً حضر المتداعيان: وكيل الزوجة ووكيل آل المقهور. وحضر المدير والقائد وحاكم الصلح ليروا كيف تكون هذه المحاكمة التي لم يروا مثلها. فطلب المدير افتتاح المحاكمة بقراءة القرآن. فجاء سيّد يحفظ القرآن فلم يرضَ المدير أن يقرأ لأنّه كان يستثقله، وبالحقيقة كان ثقيلاً. وكان معنا شيخ فقلنا له أن يقرأ حزباً من القرآن فلم يكن يحفظ ولم يتيسّر إحضار قرآن.

وافتُتِحت المحاكمة فقال وكيل الزوجة: إن الولد وُلِد حيّاً ثم مات. وقال وكيل آل المقهور: إنه وُلد ميتاً. وكان الظاهر أن القول قول الزوجة لموافقته استصحاب الحياة(٤٨) وأن أولئك مُدّعون. فطلبنا حضور القابلة والنساء اللواتي حضرن الولادة، فذهب من يُحضر القابلة، وعاد قائلاً إنّه لم يجدها. وذهب من يُحضر باقي النساء، فكان جوابه كذلك. فعلمت أنه ما دام الحاكم له يد في المحاكمة يصعب حضورهنّ. ولاح لي أن الولد وُلِدَ حيّاً واستهلّ ثمّ مات، فصعب عليهم أن ترث أمّه سهمه البالغ على الأقل ألف ليرة عثمانية ذهباً، ثم تذهب وتتزوّج وتعطي أموال زوجها الأول لزوجها الثاني. وأن الأوفق فصل الدعوى بوجه الصلح. فقلت للمدير: دع هذه القضيّة وأنا أُنهيها لك في وقت قريب. فذهب ومن معه. وقلت للجماعة: اختاروا رجلاً من آل بُلَيْبل ذا عقل ودين يرضى به آل المقهور، واختاروا آخر ذا عقل ودين يرضى به آل بُلَيْبل. ففعلوا. وخلوت بهما ومعنا كاتب فقلت لهما: قوّما ما يملكه الزوج بقيمة تقطعان أنّه لا يساوي أقلّ منها. ففعلا، فكان ما

(٤٨) أي أن الولادة تستصحب الحياة إلاّ إذا ثبت عكس ذلك.

ترثه الزوجة من ولدها لو كان حيّاً ثمانون ألفاً من القروش أي ما يعادل ثمانمائة ليرة عثمانية ذهباً. فقلت لهم: قد حكمت بأن تُعطى الزوجة نصف هذه القيمة صلحاً. فقال الفريقان: قبلنا ورضينا. وأحضروا المبلغ أكثره نقود وبعضه من الذرة الصفراء، وأعطي للزوجة. وكتبنا لهم وثيقة وأعطيناهم إيّاها وأحضرنا كاتب العدل فسجّل ذلك.

وممّا قاله لنا المدير في حديثه: نحن الأتراك ابتُلينا بخازوقين خازوق الامتيازات وخازوق الدين. فقلت له: أما خازوق الامتيازات فنعم، وأما خازوق الدين فالذي ابتليتم به خازوق ترك الدين لا خازوق الدين، ولو مشيتم على ما أمركم اللّه به من قوله: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة﴾[49] لما وصلتم لِما وصلت إليه.

وكان في ذلك الوقت المشايخ من آل حمادة الكرام منفيّين من قِبَل الأتراك إلى الأناضول. وحضر منهم شخص ونحن في الهرمل يُدعى أبو نَزْهة، قد أفرج عنه الأتراك. فلم ينزل في داره ونزل في دار أخرى وقال: ما دامت ديار أهلي منهم خالية فلا أنزل في داري. فكان ذلك منه غاية الشهامة وعلوّ النفس وكرم الطبع. وحضر معنا بعض الدعوات، فأنشد في غضون الحديث شيئاً من رُكبانيّة ابن الخِلفة[50] وكنت أحفظ أكثرها فأنشدت له ما غاب عنه منها.

ثم خرجنا من الهرمل. وأرسل المدير كتاباً إلى الضابط الذي في محطّة الرأس، وهو تركي من بلده، يوصيه بتسهيل سفرنا، وكان

(٤٩) سورة الأنفال ٨، الآية ٦٠.

(٥٠) محمد بن إسماعيل الحِلّي (ت. بعد سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥م) المعروف بابن الخِلفة. أنظر: الأعيان، م ٩، ص ١٢٢ - ١٢٣.

السفر في تلك الأوقات عسراً بسبب الحرب. فقال الضابط: أنا لا أحتاج إلى توصية وإذا كان رجل مثلكم من العلماء ومن الذرية الطاهرة، لا يمكن أن أقصّر في خدمته. فأكرمنا وأجلسنا على فراشه وجلس هو ناحية وصنع لنا طعاماً وأنامنا في فراشه وبقي هو ساهراً ينتظر القطار. وكان الركوب فيه محظوراً لغير العسكريّين فأركبنا فيه وأوصى المتولّي أمور القطار بنا وقال له هؤلاء من أقاربي فأوصلنا إلى رياق.

ومن السوانح التي اتّفقت لنا في تلك المدة ـ والحديث شجون ـ أنّنا كنّا في تشييع جنازة في بعض القرى، فشرع بعض من يُنسب إلى العلم في قراءة خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، وقرأ منها: «والنفس بينهما متجاذِبة» بكسر الذال، فقال له رجل من صغار أهل العلم: «متجاذَبة» وفتح الذال. فغضب المنسوب إلى العلم من ذلك. وبلغني أن بعض ذويه أرادوا ضرب من غلّطه لكنّهم خافوا عاقبة ذلك لأن أهل قريته أشدّاء. فقلت: يا سبحان اللّه! إنّ من ردّني عن غلط يجب أن يكون له منّة عليّ لا أن أغضب منه، فهو كمن يرى ثوبي ملطّخاً بالطين أو ببعض الأقذار وينبّهني عليه فهو يستوجب منّي المدح والامتنان لا أن أغضب منه. لكنّ هذا يُصدِّق ما ورد: «ما تكبّر امرؤ إلاّ لنقص يراه في نفسه».

ذهابنا لدمشق بعد الحرب العالميّة الأولى للسلام

لما انقضت الحرب العالميّة الأولى ودخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق وذلك حوالى سنة ١٣٣٩[٥١]، بقي الجيش الإنكليزي

(٥١) دخل فيصل دمشق في ٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٨م/ ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٦هـ.

والأمير فيصل فيها سنة كاملة. ثم خرج الإنكليز منها وبقي الفرنسيون في الساحل. فقال الإنكليز لفيصل: قد صارت المسألة عربيّة إفرنسيّة.

فذهبنا مع لفيف من العلماء والزعماء. وبتنا في طريقنا مع اثنين من العلماء ورجل من الوجهاء في جبّاثا الزيت عند الوجيه سعيد العاص(٥٢) وهو رجل مضياف ذو كرم وإكرام للضيف يندر وجود مثله. ثمّ دخلنا دمشق وهنأنا الأمير فيصل. واجتمع جماعة من شبان محلة الخراب وطلبوا منّي أن أدعو فيصلاً إلى وليمة يقيمونها له. فذهبت إليه وقلت له: إنّ أهل محلة الخراب يرغبون في أن تتنازلوا وتشرّفوا محلّتهم لوليمة غداء أو عشاء. فقال: أنا عاتب على أهل الخراب. قلت: لماذا؟ قال: لأنهم ما جاؤوا للسلام عليّ. فدهشت لمفاجأته لي بهذا الجواب، ولم أكن أعرف أنّهم لم يجيئوا إليه، فقلت له على الفور: قد جاؤوا ولم يخبرك أحد بمجيئهم. وقلت: هؤلاء شيعة جدّك فيلزم أن يكون لهم التفات خاصّ منك. فقال: شيعة جدّي ولكن ما جاؤوا لعندي. فقلت له: قد أخبرتك أنّهم جاؤوا ولكن لم يخبرك أحد بمجيئهم. فأجاب إلى وليمة عشاء مع علمه بأنهم لم يجيئوا وأنّ ما قلته مجرّد عذر. ولمّا كان قريب الغروب، حضر بعربته وقد اصطفّ طلاب المدرسة له على الطريق صفّين وردّدوا النشيد وارتفعت «السواريخ» إلى عنان السماء. فلمّا وصل إلى قريب المدرسة ترجّل، وقد زُيّن الزقاق وفُرش بأنواع الطنافس. وخرجتُ لاستقباله وقد جيء بكبْش فذُبح. فقلت له أن يمرّ فوقه ففعل. ودخل المدرسة وقد زُيّنت بأنواع الرياش والضياء، فسُرّ كثيراً. وحضر وقت صلاة المغرب فطلب

---

(٥٢) من كبار وجهاء الجولان. وهو غير محمد سعيد العاص رجل الثورة السورية ١٩٢٥ - ١٩٢٧.

مكاناً يصلّي فيه، ودعاني وائتمَّ بي. وأراد رضا باشا الركابي[٥٣] أن يقوم فيصلّي معه، فقال له مكانك. ونُصبتِ المائدة وتعشينا معه. ولمّا أراد الانصراف، قال لي: من هو القائم بشؤون المدرسة؟ فأخبرته أنّني القائم بشؤونها. وقال: حقّاً لقد برهن أهل محلّة الخراب على إخلاصهم في التشيّع. وأرسل في اليوم الثاني سبعين ليرة مصريّة إعانة للمدرسة.

العودة إلى جبل عامل

وبعدما انقضت مراسم الملاقاة للأمير فيصل والسلام عليه التي حضرنا لدمشق لأجلها عدنا إلى جبل عامل ومعنا الشيخ شحادة الغسّاني. فبتنا في الليلة الأولى في خان ميسلون فوجدناه يعجّ عجيجاً باللبنانيين العائدين إلى أوطانهم رجالاً ونساء وأطفالاً. وبعد الجهد تمكنّا من أخذ لحاف وفراش بالأجرة من صاحب الخان. وبتنا بين تلك الجموع. وفي الصباح توجّهنا قاصدين أرض البقاع، وقبل الوصول إلى قلاّبات عين فجور، وجدنا الشمس قد مالت إلى الغروب، وليس أمامنا قرية يمكن الوصول إليها قبل الغروب. ورأينا عن يمين الطريق بناء بين كروم العنب، فسألنا عنه فأُخبِرنا أنه خمّارة يُعصر فيها العنب ليُعمل خمراً. فأبينا المبيت فيها. وأُخبرنا أنّ عن يسار الطريق قرية تسمى الذُنَيْبَة تبعد عن الطريق مسافة ساعة ونصف ساعة. فعرّجنا عليها لنبيت بها في الليلة الثانية من خروجنا من دمشق. وصلّينا المغرب والعشاء على عين لها خارج البلدة. ثمّ

(٥٣) علي رضا الركابي (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م - ١٣٦١هـ/١٩٤٢م) كان قائداً عسكرياً في الجيش التركي، ثم عيّنه الجنرال أللنبي حاكماً عسكرياً على المطقة الداخلية التي احتلّها الجيش العربي، ثم أقرّه فيصل على منصبه. وشكّل أول وزارة في عهد ملكية فيصل في ٨ آذار/ مارس ١٩٢٠، ثم استقال فخلفه هاشم الأتاسي.

دخلنا البلدة، فأبوْا أن يضيفونا مع أننا لم نستطعمهم لأن طعامنا كان معنا. فقصدنا أوّلاً إلى دار شيخ البلد، وهي أحسن دار فيها، محكمة عالية الباب، فقلنا لهم: نريد المبيت عندكم فقط ولا نكلّفكم عليق الدابّة، فقالوا: عندنا مرضى. فخرجنا إلى ساحة البلد وجلّ أهل القرية هناك، فقلنا لهم كما قلنا لأهل دار الشيخ فلم ينبسوا ببنت شفة. وأخذوا يتفرّقون. فأغلظنا لهم في القول وقلنا لهم: تذهبون إلى بلادنا بمواشيكم فنضيفكم ونحمل أثقالكم، وأنتم الآن تأبون أن تعطونا مكاناً نبيت فيه! فلم يؤثّر فيهم ذلك وتفرّقوا وتركونا. فجاءت امرأة ودعتنا إلى منزلها وقالت: عندي مكان لمبيتكم ولمبيت الدابّة. وهي أرملة ذات أيتام. فعجبنا من كرم أخلاق هذه المرأة المسكينة ومن لؤم أهل القرية. فحضرنا إلى بيتها وأوقدت لنا ناراً وجلسنا في ناحية من البيت وتعشّينا وأعطيناها شيئاً من الخبز والإدام الذي معنا. وجاءت لنا بشيء من الدبس الجامد الذي يُصنع بتلك البلاد. وأرسلنا إلى الحوّاط(٥٤) فاشترى شعيراً لعلف الدابة واتّفقنا معه أن يذهب معنا صباحاً إلى عُدَيْسة. وقال إنّه يعرف طريقاً قريباً جداً يوصلنا إلى عُدَيْسة. وكان لصاحبة المنزل جار كأنّه أنف مبيتنا عندها، فجاء وأخذنا إلى بيته، وكان فيه قريباً منّا بعض البقر. وفي الصباح جاء الحوّاط فسار بنا على غير الجادة حتّى أوصلنا عُدَيْسة في وقت قريب ووفّيناه كِراه وعاد إلى بلده، وذهبنا نحن إلى شقرا. وبقينا هناك ولا همّ لنا ولا شغل في جميع أيّامنا سوى المطالعة والتأليف والقضاء بين الخصوم وجوابات المستفتين، ثم عدنا إلى دمشق.

(٥٤) الحوّاط: الناطور.

تتويج فيصل ملكاً على سورية

في أثناء وجودي بدمشق تُوّج الأمير فيصل ملكاً على سورية فحضرت وهنّأته بالملك.

وفد جبل عامل لدمشق

وبعدما تُوّج فيصل ملكاً على سورية حضر اثنان من علماء جبل عامل(٥٥) ومعهما توكيل لي ولهما عن أهل البلاد في القيام بما يلزم لدى الملك فيصل.

ودخلنا على الملك فيصل فقال لي: كيف الحالة عندكم. فقلت: أنا قاطن هنا والجماعة عندهم الخبر وهم موفدون من قِبَل أهل جبل عامل لأخذ رأي جلالتكم فيما يصنعونه، لأنّ أهل المنطقة الشرقية يقولون لهم: إمّا أن تكونوا معنا أو علينا. فقال: بعد الغداء يأتيكم رأيي. وكان قد دعانا إلى الغداء عنده. فلمّا تغدّينا خرج ثمّ دعانا إليه فقال: إنّكم سألتموني عن رأيي فأقول إنّ أهل جبل عامل يعزّون عليَّ ولا أريد أن يصيبهم بسببي سوء، فليلزموا السكون.

سفرنا من جبل عامل إلى العراق فإيران

في سنة ١٣٥٢ عزمنا على السفر إلى العراق من جبل عامل لتجديد العهد بزيارة مشاهد الأئمة الأطهار عليهم السلام، وزيارة مشهد الإمام الرضا عليه السلام، في خراسان ولم نكن زرناه من قبل. فخرجنا من جبل عامل في شهر شعبان المعظّم من السنة

---

(٥٥) العالمان هما عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م - ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٧، ص ٤٥٧ - ٤٥٨، وعبد الحسين نور الدين (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م - ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م) أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٧، ص ٤٤٥.

المذكورة إلى دمشق. وخرجنا منها أوّل يوم من شهر رمضان المبارك عند الضحى. وفي مثل ذلك الوقت من اليوم الثاني وصلنا بغداد. وصحبنا معنا مسوّدات **أعيان الشيعة** وهي مِلء صندوق. وكنّا نقدّر أن تكون أجزاؤه عشرة، ثمّ ظننّا أنّها ستكون عشرين، ثمّ اعتقدنا بأنّها ستبلغ الخمسين، ثمّ ظهر لنا ربّما تبلغ مائة مجلد. وقد طبعنا منها ٢٧ جزءاً لا يقلّ الواحد منها عن ٥٠٠ صفحة إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض(٥٦). نسأله تعالى التوفيق لإكماله وطبعه. وكانت هذه الرحلة رحلة ميمونة مباركة استمرّت نحواً من أحد عشر شهراً، نصفها في العراق ونصفها في إيران. وكنّا لا نفتر فيها عن المطالعة والكتابة أينما حللنا. واستفدنا فيها فوائد جليلة وجدناها في المخطوطات النفيسة في المكتبات. ولئن بخل عنّا البعض بما لديه، فقد جاد علينا الكثيرون. ومن بخل فإنّما يبخل على نفسه والله مغنٍ عنه. ووُفِّقنا في هذا السفر لاقتناء نسخة من **رياض العلماء**(٥٧)، بعضها بالاستنساخ وبعضها بالشراء، ولشراء واستنساخ كتب أخرى خطيّة نفيسة. وجرى لنا في العراق وإيران ما نشكر الله عليه.

بعض ما جرى لنا مع الفرنسيّين

أصدر الفرنسيّون قانون الطوائف(٥٨) بما لا يوافق مصلحة المسلمين، ويخالف نص الشرع الإسلامي. فعارض في ذلك جملة

---

(٥٦) أي إذا ضُمّ إليها ما ألحقه بها من مستدركات أولى.

(٥٧) رياض العلماء وحياض الفضلاء، لعبد الله بن عيسى الأصفهاني المعروف بالتبريزي الأفندي (ت. ١٢٣٠هـ/١٨١٥م). وهو كتاب تراجم.

(٥٨) صدر قانون الطوائف هذا بقرار رسمي رقم ٦٠ أصدره المفوض السامي في ١٣/٣/١٩٣٦، وعُدّلت بعض مواده بقرار رسمي رقم ١٤٦ في ١١/٨/١٩٣٨. وقام علماء السُّنّة بحركة احتجاج، تساندها المظاهرات، مما دفع بالمندوب السامي إلى تعليق هذين القرارين.

من علماء دمشق وبالغوا في المعارضة، فأُوقف القانون. وأصدر الفرنسيّون بلاغاً بأن وقفه يشمل السنّيّين من المسلمين فقط. فقدّمت بذلك احتجاجاً للمفوضيّة الفرنسيّة باللغتين العربيّة والفرنسيّة قام الفرنسيّون له وقعدوا ونشرته الصحف(٥٩).

وعزم الفرنسيون على إحداث منصب «رئيس علماء» للشيعة في سورية ولبنان معاً. وقرّروا تعييني لهذا المنصب وأصدروا به مرسوماً اعتقاداً منهم بأنّني أقبله بكلّ امتنان، فالناس تتوسّط للحصول عليه فكيف بمن يأتيه؟ فقلت للرسول الذي جاء بالكتاب: قل لصاحبه إنّ هذا الأمر لا أسير إليه بقدم، ولا أخطّ فيه بقلم، ولا أنطق فيه بفم. وقلت للوُفّاد:

---

(٥٩) وهذا نص الاحتجاج: إلى فخامة المفوض السامي في بيروت
بواسطة المندوب العام في الجمهورية السورية
لقد سمعتم الاجتماعات الصاخبة التي قام بها المسلمون عموماً في مشارق الأرض ومغاربها على القرار ذي الرقم ٦٠ المسمى بقانون الطوائف وعلى تعديله ذي الرقم ١٦٤ الصادرين عن المفوضية العليا لأنهما مناقضان مناقضة صريحة لتعاليم دينهم وأحكام شريعتهم التي نص على احترامها حتى صك الانتداب والذي سبب هذه الثورة الفكرية في البلاد.
ولم نكن نحن المسلمين الشيعيين بأقل استنكاراً لهذا القرار الذي يسيء إلى حرمة الأديان السماوية كافة لأننا من أشد أبناء الشريعة المحمدية تمسكاً بتقاليدها وحرصاً على تعاليمها ولذلك استغربنا أشد الاستغراب ما جاء في خطاب فخامتكم في الراديو من تفريقكم بين طوائف المسلمين هذا التفريق الذي ينكره المسلمون أجمع ونستغرب قصركم توقيف مفعول القرار على الطائفة السنّية وحدها واستثناؤكم بقية المسلمين من ذلك.
فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سورية ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار المسلمين الشيعيين عامة لهذا القرار ولهذه التفرقة المصطنعة بين المسلمين.

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي
محسن الأمين الحسيني

أيّـهـا الـسـائـل عـنـهـمْ وعَـنِـي
لـسـتُ مـن قَـيْـسٍ ولا قَـيْـسٌ مِـنِـي[٦٠]

فعادوا أدراجهم. وبلغ ذلك الفرنسيين فأرسل لي من بيده شؤون الأوقاف والأمور الدينية منهم سكرتيره يقنعني بالقبول ويُرَغّبني بأنّه سيكون لي أمر الأوقاف وغيرها، فأبيت. وجاءني إلى دمشق اثنان من زعماء الطائفة في لبنان يدعوانني إلى القبول، ويقولان: المسألة تحتاج إلى شيء من التضحية. فقلت لهما: لا يصعب على المرء أن يضحّي بدمه في سبيل المصلحة العامة ولكنّه لا يضحّي بكرامته[٦١].

واختلفت شركة الجر والتنوير الأجنبيّة مع الأهالي في دمشق. وكان عندي ليلة فريق من زعماء الكتلة الوطنية فقلت: فما بالنا لا نقاطع هذه الشركة الأجنبيّة؟ لقد أماتت الدولة العثمانيّة عواطف الشهامة والشمم في كبرائنا فكان الوالي إذا جاء إلى هذه البلدة ومرّ بأحد الأكابر وسلّم عليه يأتي إلى أصحابه فيقول لهم مفتخراً: الوالي اليوم «ضرب لي تمنّي». وأغنياؤنا وكبراؤنا اليوم دَخْلهم الشهري مئات الليرات الذهبيّة فإذا دفعوا منها في الشهر عشر ليرات سورية لا يرونها شيئاً، فيدخلون الدار ليلاً ويجلسون على الأسرّة والأرائك ويفتلون زرّ الكهرباء فتضيء الدار كأنّهم في

(٦٠) من شواهد النحويّين المجهول ناظمها ويظن أنه شاهد موضوع على عني ومني المخفّفتين. أنظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، شباط/ فبراير ١٩٥٦، ص ١٠٠.

(٦١) الزعيمان المشار إليهما هما أحمد الأسعد وصبري حمادة، حسب قول حسن الأمين.

أما تاريخ هذا العرض فيكون، بمقتضى مقابلته بغيره، سنة ١٩٣٩. ولم يذكر وجيه بيضون، وهو شاهد عيان لهذه الحادثة (أنظر مقالته في السيد محسن الأمين، سيرته بقلمه وأقلام آخرين، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧)، لم يذكر تاريخها. ولم نجد لها أثراً في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.

النهار، ويرون ذلك هو اللذّة والسعادة، ولا يبالون بتحكّم شركة الكهرباء الأجنبيّة بهم. ذلك لأنّها قد ماتت منهم عاطفة الشمم والإباء، ولو كان فيهم شمم وإباء لآثروا «النوّاصة» على ضياء الكهرباء ولم يرضوا بأن تتحكّم بهم هذه الشركة الأجنبيّة. بل يجب أن نسير من هذا الأمر إلى ثورة على الفرنسيّين. فقال لي بعض الجالسين: لو ألقيت هذا الكلام في مجتمع من الناس. قلت: أنا ما تعوّدت أن ألقي كلاماً في المجتمعات. ولكن أنتم بلّغوه عنّي. وفي اليوم الثاني قاطع الناس الشركة مقاطعة تامّة وأحرقوا بعض عرباتها ولم يعد يركب فيها أحد. ثم تحوّل الأمر إلى قيام عام على الانتداب الفرنسيّ(٦٢).

مع الحكومة السورية

أصدرت الحكومة السورية في عهد الاستقلال قراراً في الانتخابات النيابيّة بأنّ للمسلمين السنّيين كذا من المقاعد في المجلس النيابي ولسائر الطوائف كذا وللأقليّات كذا. وبموجب ذلك دخلت الشيعة في الأقليّات. فقدّمت للحكومة كتاباً بأن الشيعة تعتبر المسلمين طائفة واحدة ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنّيين. فكان لذلك الوقع الحسن عند الوطنيّين. وقرّرت الحكومة بأنّ المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنّيّهم وشيعيّهم، وأن هذه المقاعد المعيّنة للمسلمين في جميع أنحاء الدولة السورية هي للسنّيين وللشيعيين على السواء(٦٣).

(٦٢) نتج من هذه المقاطعة الإضراب الخمسيني في سورية. وقد اضطر معه الكونت دي مارتيل المفوض السامي الفرنسي إلى النزول على رأي الوطنيين. أما شركة الجر والتنوير فهي شركة برأس مال فرنسي مركزها بروكسل.

(٦٣) قانون الانتخاب، رقم ٣٢٥ الصادر في أيار/مارس ١٩٤٧م، قد بسّط عملية

وفي إحدى السنين أمرت الحكومة السوريّة بتغيير اسم محلّة الخراب التي نقطنها وتسميتها محلّة الأمين إكراماً لنا فشكرناها على ذلك.

صلاة الاستسقاء

مما اتّفق لنا من العناية الرّبانيّة والألطاف الإلهيّة أنّه بعد نزوحي من دمشق وعودي إلى الوطن في جبل عامل، قحط الناس وانقطع المطر. فدعونا الناس إلى موافاتنا إلى سهل الخان قرب تبنين. وصُمنا الأربعاء والخميس والجمعة، وخرجنا يوم الجمعة من شقراء إلى السهل حافين مشمّرين ثيابنا بالخضوع والاستكانة وذكره تعالى، فوجدنا الناس مجتمعة هناك من القرى المجاورة فأخذنا في الدعاء والتضرّع. ولمّا زالت الشمس صلّينا الجمعة والظهر احتياطاً ثمّ العصر ثمّ صلاة الاستسقاء. وخطبنا وأمرنا الناس بالتوبة ودعونا وتضرّعنا ومعنا المشائخ والأطفال. وبقينا مشتغلين بالدعاء والتضرّع والبكاء إلى آخر النهار طلباً لاستجابة الدعاء في آخر ساعة من يوم الجمعة. ثمّ أفطرنا وصلّينا العشاءين. وكان ذلك اليوم صاحياً ليس في السماء شيء من الغيم وقد آذانا الحرّ في النهار. فما عدنا إلاّ وقد انتشر الغمام في السماء ومطر الناس تلك الليلة مطراً أحيا الزرع والضرع. وبعده بأعوام انقطع المطر وقحط الناس أيضاً فاستسقينا في ذلك المكان وفعلنا كفعلنا أولاً فسُقِيَ الناس ومُطِروا مطراً كافياً والحمد للّه(٦٤).

الاقتراع، إلاّ أنه أبقى على نظام التمثيل الطائفي للأقليات المنصوص عليه في دستور سنة ١٩٣٠ (المادة ٣٧)، ثم عُدّل بالمرسوم الاشتراعي رقم ١٧ تاريخ ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٩ فقُسّمت المقاعد النيابية بين المسلمين وغير المسلمين.

(٦٤) لا نعرف بالتحديد تاريخ هاتين الصلاتين إلاّ أن الأخيرة كانت سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م حسب قول حسن الأمين.

مشايخنا في التدريس

أما في جبل عامل:

- السيّد محمّد حسين ابن عمّنا السيّد عبد اللّه، قرأت عليه شيئاً من **شرح القطر** في النحو وشيئاً من **شرح السعد على متن عِزّي** في التصريف وهو أوّل مشايخي.
- السيّد جواد مرتضى، قرأنا عليه في قرية عيثا **شرح شرح قطر الندى وشرح ألفيّة ابن مالك** لابن الناظم وشيئاً من **المُغْني** ومرّت ترجمته في بابها.
- السيّد نجيب الدين فضل اللّه العامليّ العيناثيّ، قرأنا عليه في بنت جبيل **المطوّل وحاشية ملاّ عبد الله وشرح الشمسيّة** كلاهما في المنطق، **والمعالم** إلى الاستصحاب[٦٥].

أما في النجف فهم:

السيّد علي ابن عمّنا السيّد محمود قرأت عليه **شرح اللّمعة**.

السيّد أحمد الكربلائي، ومرّت ترجمته[٦٦] والشيخ محمّد باقر النجمابادي، قرأت عليهما في **القوانين وشرح اللّمعة والرسائل**.

الشيخ ملاّ فتح اللّه الأصفهانيّ المعروف بالشيخ شريعة[٦٧]، قرأت عليه أكثر **الرسائل**. هذا في السطوح.

الشيخ ملاّ كاظم الخراساني صاحب **الكفاية في الأصول وحاشية**

---

(٦٥) سقط اسم الشيخ موسى شرارة وكان من كبار مشايخه في بنت جبيل.

(٦٦) أحمد الكربلائي (ت. ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) أنظر ترجمته في **الأعيان**، م٢، ص ٤٧٢.

(٦٧) ملا فتح الله الأصفهاني المعروف بالشيخ شريعة (١٢٦٦هـ/١٨٥٠ - ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م). كان مرجعاً للشيعة في الأشهر القليلة التي سبقت وفاته. أنظر: **الأعيان**، م٨، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

الرسائل وشرح التَّبْصِرة، مُختَصِر طريقة التدريس ومربّي العلماء. قرأت عليه دورة الأصول خارجاً.

الشيخ أقا رضا الهمذاني صاحب **مصباح الفقيه وحاشية الرسائل** وغيرهما. قرأت عليه في الفقه خارجاً في كتابه **مصباح الفقيه** إلى الزكاة ومرّت ترجمته.

الشيخ محمد طه نجف قرأت عليه في الفقه خارجاً.

بعض تلاميذنا

السيّد حسن ابن عمّنا السيّد محمود.

السيّد مهدي ابن السيّد حسن آل إبراهيم الحسيني العاملي.

الشيخ منير عسيران[٦٨].

السيّد أمين ابن السيّد علي أحمد الحسنيّ العامليّ[٦٩].

الشيخ علي ابن الشيخ محمد مروّة العامليّ الحدّاثيّ[٧٠].

الشيخ عبد اللطيف شبلي ناصر العامليّ الحدّاثيّ.

الأستاذ أديب التقيّ الدمشقيّ[٧١].

الشيخ مصطفى خليل الصوريّ توفي في ريعان شبابه.

---

(٦٨) منير عسيران، أول رئيس للمحكمة الشرعية الجعفرية منذ إنشائها سنة ١٩٢٦م. ليس له ترجمة في **الأعيان**.

(٦٩) أمين بن علي أحمد الحسنيّ (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م - ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) في الأصل «الحسينيّ» وقد صححناه. أنظر: **الأعيان**، م ٣، ص ٤٩٥.

(٧٠) علي بن محمد مروّة (ت. ١٣٤٠هـ/١٩٢١م) أنظر: **الأعيان**، م ٨، ص ٣٣٨ - ٣٤٠.

(٧١) أديب التقي (١٣١٣هـ/١٨٩٥م - ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م)، ليس من رجال الدين بل كان مربياً وأديباً، فكان مديراً لعدة مدارس منها المدرسة العلوية، ومؤلفاً لكتب التاريخ المدرسية. أنظر ترجمته في **الأعيان**، م ٣، ص ٢٣٣ - ٢٣٨.

الشيخ خليل الصوريّ.

الشيخ علي الصوريّ.

الشيخ حسين سمرو الحمصيّ الغوريّ.

الشيخ علي شُمَيْع الحمصيّ الغوريّ.

الشيخ علي الجمّال الدمشقيّ وغيرهم.



الفصل الخامس

مؤلفاته

له مؤلفات كثيرة وبعضها قد طُبع مرّتين أو مراراً وبعضها قد تُرجم إلى غير العربية وطُبع. وأكثرها يزيد على ٥٠٠ صفحة إلى ٨٠٠ صفحة. وحسبك أن يكون «أعيان الشيعة» يبلغ مائة مجلّد تقريباً. ولو قُسم ما كتبناه[١] تسويداً وتبييضاً ونسخاً وغيرها على عمرنا لما نقص كل يوم عن كرّاس، مع عدم المساعد والمعين غير اللّه تعالى.

ولم نزل، وقد بلغنا السادسة والثمانين من سنيّ عمرنا، ودقّ العظم وخارت القوى وتوالت الهموم والأمراض، مواظبين على التأليف والتصنيف ليلاً ونهاراً وعشيّة وإبكاراً، سفراً وحضراً. وقد قيل إنّ المجلسيّ لو قُسمت مؤلفاته على عمره لكان نصيب كلّ يوم كرّاس، وعُدّ ذلك مبالغة. مع أنّه كان له من المساعدين والثروة ما ليس لنا منه شيء. وعند إرادة تصحيح ما يُطبع لا نجد غالباً من يقابله معنا، فنتولّى ذلك وحدنا فنحتاج إلى مدّة طويلة، ولكنّنا ألفنا

(١) يستعيد محسن الأمين صيغة الغائب وهو يتكلم عن مؤلفاته وقد بدأ كتابه بهذه الصيغة، ثم يستأنف بصيغة المتكلم. ولعل في ذلك إشارة إلى نيته في سرد الأحداث والمؤلفات بلا تحيّز.

العزلة والتباعد عن الناس مهما أمكن، مع اشتغالنا بالمرافعات وفصل النزاعات وتدبير أمر المعاش وغيرها. وهذه أسماء مؤلّفاتنا:

أعيان الشيعة، وهو أهمّها، نجز منه عشرات المجلّدات وطُبعت وستبلغ مجلّداته مائة مجلّد أو تزيد. وجلّها يبلغ خمسمائة صفحة أو قريباً منها أو تزيد إلى ثمانمائة صفحة. ونحن جادّون في إكمالها تأليفاً وطبعاً، مستمدّين منه المعونة على ذلك. وقد أصبح جلّ موادّه جاهزاً إلى حرف الياء لكنّ أكثرها يحتاج إلى بذل جهود عظيمة لإخراجه كاملاً. وفّقنا اللّه لذلك قبل مفاجأة الأجل إنّه سميع مجيب.

نقض الوشيعة، وهو في الرّدّ على كتاب **الوشيعة** لموسى جار الله (مطبوع).

التاريخ:

تاريخ جبل عامل[٢]، **لواعج الأشجان** (مطبوع)، **أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر** (مطبوع).

الحديث:

البحر الزخّار في شرح أحاديث الأئمة الأطهار، خرج منه ثلاثة مجلّدات وفّق الله لإكماله.

المنطق:

شرح ايساغوجي.

أصول الدين:

إرشاد الجهّال، يتضمن أصول الدين بطريق الاستدلال بوجه سهل

(٢) طُبع بعد وفاته بعنوان: خطط جبل عامل.

قريب إلى الأفهام. **الدر الثمين الأوّل** مطبوع عدّة مرات، **التقليد آفة العقول.**

أصول الفقه:

حذف الفضول عن علم الأصول، حواشي المعالم، كتبها أيام قراءته لها، **حاشية القوانين، الدر المُنَظَّم في مسألة تقليد الأعلم.**

الفقه:

أساس الشريعة، خرج منه مجلّد واحد. **أرجوزة في النكاح، تحفة الأحباب في آداب الطعام والشراب** (مطبوع)، **التنزيه لأعمال الشبيه** (مطبوع) **جوابات المسائل الدمشقيّة، جوابات المسائل الصافيتيّة، جوابات المسائل العراقيّة، جناح الناهض إلى تعلم الفرائض،** أرجوزة أولها:

الحمد لله القديم الوارثِ

المُنشيء الخلق المُميت الباعثِ

(مطبوعة)، **كشف الغامض في أحكام الفرائض** في مجلدين كبيرين. **سفينة الخائض في بحر الفرائض،** مختصر منه بذكر الفروع مجرّدة عن الدليل. **حواشي العروة الوثقى لعمل المقلّدين؛ الروض الأرِيض في أحكام تصرّفات العريض** (مطبوع). **الدروس الدينية،** تسعة أجزاء (مطبوع). **شرح التبصرة** (مطبوع). **درر العقود في حكم زوجة الغائب بالمفقود؛ درس الحيض والاستحاضة والنفاس** (مطبوع). **الدر الثمين في أهمّ ما يجب معرفته على المسلمين** في الطهارة والصلاة والزكاة والخمس والصوم وأحكام الأموات لعمل المقلدين (مطبوع مراراً). **الدرّة**

البهيّة في تطبيق الموازين الشرعيّة على العرفيّة (مطبوع). كاشفة القناع في أحكام الرضاع، منظومة (مطبوع).

النحو:

صفوة الصفو في علم النحو؛ الآجُرّوميّة الجديدة (مطبوعة مراراً).

الصرف:

المنيف في علم التصريف (مطبوع مرتين)، أرجوزة في الصرف يقول في أوّلها:

وبعده فالصرف في الكلامِ
كالنحو مثل الملح في الطعامِ

تراهما للعلم أمّاً وأبا
فيا له من ولد قد نُجبا!

الصرف علمٌ بأصولٍ قد عُلِمْ
بها سوى الأعراب أحوال الكَلِمْ

وما لحرفٍ أو لشبهه الحرفِ
عندهُمُ من عِلّةٍ بالصرفِ

البيان:

حاشية المطول، كتبها أيام اشتغاله به. أرجوزة في علاقات المجاز وشرحها.

الردود والنقود:

الردّ الأول على صاحب المنار يأتي بعنوان الشيعة والمنار.

الردّ الثاني على صاحب المنار مطبوع في مجلة العرفان.

الردّ الثالث على صاحب المنار بعنوان: الحصون المنيعة.

الردّ الرابع على مجلّة **المنار** جواباً عن ردّه على **كشف الارتياب** يأتي بعنوان: **دعاة التفريق وإثارة الفتن والفساد بين المسلمين من هو موقد نارها**. وهو ردّ مطوّل كثير الفوائد مطبوع في **العرفان**.

الردّ على ما كُتب في جريدة **التقدّم** الحلبية من مراسلها في بغداد ونقلته جريدة **المقتبس** الدمشقيّة و**الأحوال** البيروتيّة و**الهدى** الأميركيّة وغيرها بشأن كربلاء والعجم والشيعيّين، مطبوع في مجلة **العرفان** بعنوان: **هل كربلاء مدينة الأموات؟**.

الردّ على ما جاء في مجلة **الشرطة** الدمشقيّة في شأن المتعة، نُشر في **العرفان**.

الردّ على ما جاء في جريدة **الاتحاد العثماني** لأحد علماء حلب من تسمية يوم عاشوراء عيداً.

الردّ على مجلة **الحقائق** الدمشقيّة لردّها على **الحصون المنيعة**.

الردّ على ما جاء في مجلة **المقتبس** بعنوان: **الدستور ومعاوية**، من تفسير بعضهم بيت شوقي:

أودى معاويةٌ به
ونَعَتْه قبل النشورِ

ففسّره أن معاوية هلك بسبب الدستور والحال أن مراده أن الدستور أهلكه معاوية.

الردّ على **جولة في ربوع الشرق**، لمحمّد ثابت المصري، مطبوع في ج ١ ق ٢ من **الأعيان**(٣).

الردّ على جاهل دمشقيّ في تفسيره الكَرّ مطبوع في **العرفان** بعنوان: **فضائح الجهل**.

---

(٣) أنظر: الأعيان، م ١، ص ٦٩ - ٧٦.

الرّد على من زعم أن بعض **نهج البلاغة** منحول، مطبوع في **العرفان** وردّ آخر مطوّل مطبوع في ج ٣ من **الأعيان**(٤).

رفع الاشتباه عن أسئلة موسى جار اللّه(٥).

الرّد على الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي في مقاله المنشور في **العرفان** ج ٣ م ١٠ ونشر الردّ في **العرفان** أيضاً(٦).

الرد على ما جاء في **العرفان** في شأن **الحصون المنيعة** وتفسير بيت الحبّوبي.

الرّد على المحاضرة التي ألقاها الأستاذ محمد كرد علي في المجمع العلميّ بدمشق، نُشر في **العرفان**.

الرّد على الأستاذ محمد كرد علي فيما كتبه في مجلة **المجمع العلميّ** عن كتاب **عصر المأمون**، نُشر أكثره في **العرفان** ج ١٠ م ١٥(٧).

الرّد على جميل الزهاوي في استهزائه بالشرع الشريف نشر بعضه في جريدة **أبابيل**(٨).

الرّد على مروان بن أبي حفصة في تفضيله العباسيّين على العلويّين في قصيدة أولها:

---

(٤) أنظر: **الأعيان**، م ١٢، ص ٥٤٠ ـ ٥٤٤.

(٥) نُشر تحت عنوان: نقض الوشيعة، مطبعة الإنصاف، بيروت ١٩٥١م/ ١٣٧٠هـ.

(٦) رسالة عبد القادر المغربي منشورة في **العرفان** العدد الثالث من المجلد ١٠ سنة ١٩٢٥ ص ٢٨١ ـ ٢٨٣. ردّ محسن الأمين في العدد الخامس منه ٤٩٥ ـ ٥٠١.

(٧) عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعي. أما رد محسن الأمين فكان بعنوان: **التاريخ يعيد نفسه** وقّعه باسم: عبد الواحد. أنظر: **العرفان**، مجلد ١٥، ص ١٠٨٣ ـ ١٠٩١، سنة ١٩٢٨.

(٨) موضوع النقاش مع الزهاوي كان الحجاب بحسب ما أخبرنا به محسن الأمين.

سلام على جمْلٍ وهيهات من جمْلِ
ويا حبّذا جمْل وإنْ صرمتْ حبلي

بقصيدة مثلها وزناً وقافية مطبوعة في القسم الثاني من **الرحيق المختوم**.

الردّ على الوهابية بقصيدة تبلغ ٤٠٦ أبيات تأتي باسم **العقود الدرّيّة** (مطبوعة).

الردّ على الأخرس البغدادي[٩] في أبيات له بأبيات على وزنها وقافيتها.

الردّ على الحكيم بن العباس الكلبيّ في بيتين له بقصيدة على وزنها وقافيتها مطبوعة في القسم الأول من **الرحيق**.

الرحلات:

الرحلة الحمصيّة، منظومة مطبوعة ضمن **الرحيق المختوم**.

الرحلة العراقيّة، منظومة ضمن **الرحيق المختوم**.

الرحلة الحجازيّة الأولى، مطبوعة ضمن الجزء الثاني من **معادن الجواهر**.

الرحلة الحجازية الثانية مطبوعة ضمن الثاني منه.

الرحلة العراقيّة الإيرانيّة[١٠].

---

(٩) عبد الغفار بن عبد الواحد الأخرس ١٢٢٥هـ/١٨١٠م - ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م) شاعر عراقي لُقّب بالأخرس لحبسة في لسانه. أنظر: الزركلي، **الأعلام**، م ٤، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(١٠) جُمعت رحلاته كلّها بعد وفاته في كتاب واحد صدر بعنوان، **رحلات السيد محسن الأمين**، دار الغدير، بيروت، بلا تاريخ.



المراجع

أ

إبراهيم اليازجي، **العرف الطيّبُ في شرح ديوان أبي الطيّب**،دار صادر، بيروت.

ابن أبي الحديد، (أنظر عبد الحميد).

ابن آجرّوم (أنظر محمد الصنهاجي).

ابن طاووس، **كتاب اللهوف على قتلى الطفوف**، (في مقتل الحسين).

ابن هشام الأنصاري،

١ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** (في النحو).

٢ ـ **قطر الندى وبلّ الصدى**. (في النحو).

أحمد فريد الرفاعي، **عصر المأمون**.

ابن الحاجب، (أنظر جمال الدين).

ابن مالك، (أنظر جمال الدين).

ابن عقيل، **شرح ألفّية ابن مالك**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٦.

ابن الناظم، (أنظر بدر الدين).

أبو الطيب المتنبي، (أنظر إبراهيم اليازجي).

الجارَبردي، **شرح شافية ابن الحاجب** (في الصرف).

الجزَويّ، (أنظر موسى بن جعفر).

ح

حسن الصدر، **تكملة أمل الآمل**، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦.

الحرّ العاملي، (أنظر محمد حسن).

خ

خالد بن عبد الله الأزهري، **التصريح بمضمون التوضيح** (شرح الألفية في النحو).

الخطيب التبريزي، **شرح حماسة أبي تمّام**.

ر

رضيّ الدين الأستراباذي:

١ ـ **شرح الكافية في النحو**.

٢ ـ **شرح الشافية في الصرف**.

الرازي، (أنظر قطب الدين).

ز

الزركلي، **معجم الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت.

الزّنجاني، (أنظر عز الدين).

زين الدين البركلي، **إظهار الأسرار في النحو**.

زين الدين بن علي، (الشهيد الثاني)، **الروضة البهية في شرح اللُمعة الدمشقية** (في الفقه).

زين العابدين (أنظر علي بن الحسين).

الزبيدي، (أنظر مرتضى).

س

سعد الدين التفتزاني:

١ ـ شرح التصريف العِزّي
٢ ـ المطوّل في علوم البلاغة.
٣ ـ تهذيب المنطق والكلام (في المنطق).

سراج الدين الأُرماوي، **مطالع الأنوار في المنطق.**

سلطان العلماء، **الحاشية على الروضة البهية في شرح اللُّمعة الدمشقية** (في الفقه).

السيوطي، **شرح شواهد المُغني**، دار مكتبة الحياة، بيروت.

ش

الشريف الرضي، **ديوان الشريف الرضي.**

شمس الدين الفناري، **رسالة في المنطق أو الشمسية.**

الشهيد الأول، (أنظر محمد المكي).

الشهيد الثاني (أنظر زين الدين بن علي).

الشيخ حسن (صاحب المعالم)، **معالم الدين وملاذ المجتهدين** (في أصول الفقه).

الشيراوني، **الحاشية على الروضة البهية في شرح اللُّمعة الدمشقية** (في الفقه).

ص

صاحب المعالم، (أنظر الشيخ حسن).

ط

الطبرسي، **مجمع البيان في علوم القرآن**، مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٣٦. (تفسير).

الطبري، **جامع البيان في تفسير القرآن**، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، (تفسير).

الطهراني، (أنظر آغا بزرك).

ع

العلامة الحِلّي:

١ ـ **خلاصة الأقوال** (في الرجال).

٢ ـ **قواعد الأحكام** (في الفقه).

٣ ـ **تبصرة المتعلمين** (في الفقه).

عبد الرحمن الجامي، **الفوائد الضيائية**، (شرح على الكافية في النحو).

عبد الرحمن الجامي، **الفوائد الضيائية**، (شرح على الكافية في النحو).

عز الدين عبد الوهاب الزّنجاني، **رسالة في الصرف**، أو **العِزيّ**.

عبد الحميد ابن أبي الحديد المعتزلي:

١ ـ **شرح نهج البلاغة**

٢ ـ **القصائد السبع العلويات**، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٤٤هـ.

عبد الله بن عيسى الأصفهاني، المعروف بالتبريزي الأفندي، **رياض العلماء وحِياض الفضلاء**، في (الرجال).

علي بن الحسين زين العابدين (الإمام الرابع الملقّب بالسّجاد) **الصحيفة السجّادية** (مجموعة أدعية).

ق

قطب الدين الرازي:

١ ـ **شرح الشمسية في القواعد المنطقية**.

٢ ـ **لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار** (في المنطق).

القمّي، (أنظر ميرزا القمي).

ك

الكاتبي، (أنظر نجم الدين).

م

محسن الأمين:

١ ـ **أعيان الشيعة**، دار التعارف، بيروت ١٩٨٦.
٢ ـ **الرحيق المختوم** (ديوان شعر).
٣ ـ **خطط جبل عامل**، الدار العلمية، بيروت ١٩٨٣.
٤ ـ **المجالس السَنِيّة**، (في مقتل الإمام الحسين).
٥ ـ **لواعج الأشجان في مقتل الإمام أبي عبد الله الحسين.**
٦ ـ **أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار**، (في مقتل الإمام الحسين).
٧ ـ **الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد.**
٨ ـ **الدروس الدينية والاعتقادية والعملية**، مطبعة ابن زيدون، دمشق.
٩ ـ **الدُرَر المنتقاة من أجل المخطوطات**، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٦هـ.
١٠ ـ **السيد محسن الأمين، سيرته بقلمه وأقلام آخرين.**

(أنظر باقي مؤلفاته في آخر فصل من هذا الكتاب).

المُحقّق الحِلّي، **شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام** (في العبادات).

محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨١.

محمد بن علي الموسوي العاملي، **مدارك الأحكام** (شرح لشرائع الإسلام، في العبادات).

محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار** (في سير الأئمة).

محمد الجواد بن محمد الأمين، **مفتاح الكرامة** (شرح على قواعد الأحكام للعلامّة الحِلّي، في الفقه).

محمد حسن النجفي، **جواهر الكلام**، (شرح لشرائع الإسلام، في العبادات).

محمد الصنهاجي، ابن آجرّوم، **الأجرّومية** (في النحو).

محمد حسن الحرّ العاملي، **أمل الأمل** (في الرجال).

محمد المكيّ (الشهيد الأول)، **اللُمعة الدمشقيّة** (في الفقه).

مرتضى الأنصاري، **الرسائل أو فراض الأصول** (في الفقه).

مرتضى الزبيدي، **تاج العروس في جواهر القاموس**، (معجم لغة).
مصطفى الأطهوي، **نتائج الأفكار في شرح إظهار الأسرار** (في النحو).
المُفَضَّل الضبيّ، **المفضليات**، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦ (مختارات شعرية).
محمد بن نصار، **النَّعِيّ**، (مجموعة من مراثي الحسين باللهجة العراقية).
موسى بن جعفر الجَرَوي، **أوثق الوسائل** (شرح على الرسائل، في الفقه).
موسى شرارة، **الدُّرَر**، (منظومة في أصول الفقه).
ميرزا القُمّي، **قوانين الأصول** (في الفقه).
ميرزا موسى، **حاشية الرسائل** (في الفقه).

ن

نجم الدين الكاتبي، **الشمسيّة في القواعد المنطقية**.

ي

يوسف البحراني، **رسالة في المواريث**.



فهرس الأعلام

أ

ي

فهرس الاماكن









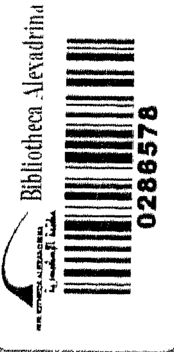
سيرة السيد محسن الأمين

وهي جزء من كتاب أعيان الشيعة



«بعد نزوحي من دمشق، قحط الناس وانقطع المطر. فدعونا الناس إلى موافاتنا إلى سهل الخان قرب تبنين. وصمنا الأربعاء والخميس والجمعة. وخرجنا يوم الجمعة من شقراء إلى السهل حافين مشمرين ثيابنا بالخضوع والاستكانة وذكره تعالى، فوجدنا الناس مجتمعة هناك من القرى المجاورة. فأخذنا في الدعاء والتضرع. وبقينا مشتغلين بالدعاء والتضرع والبكاء إلى آخر النهار. ثم أفطرنا وصلينا العشاءين وكان ذلك اليوم صاحياً ليس في السماء شيء من الغيم وقد آذانا الحر في النهار. فما عدنا إلا وقد انتشر الغمام في السماء ومطر الناس تلك الليلة مطراً أحيا الزرع والضرع».

«من الكتاب»



RIAD EL-RAYYES BOOKS

